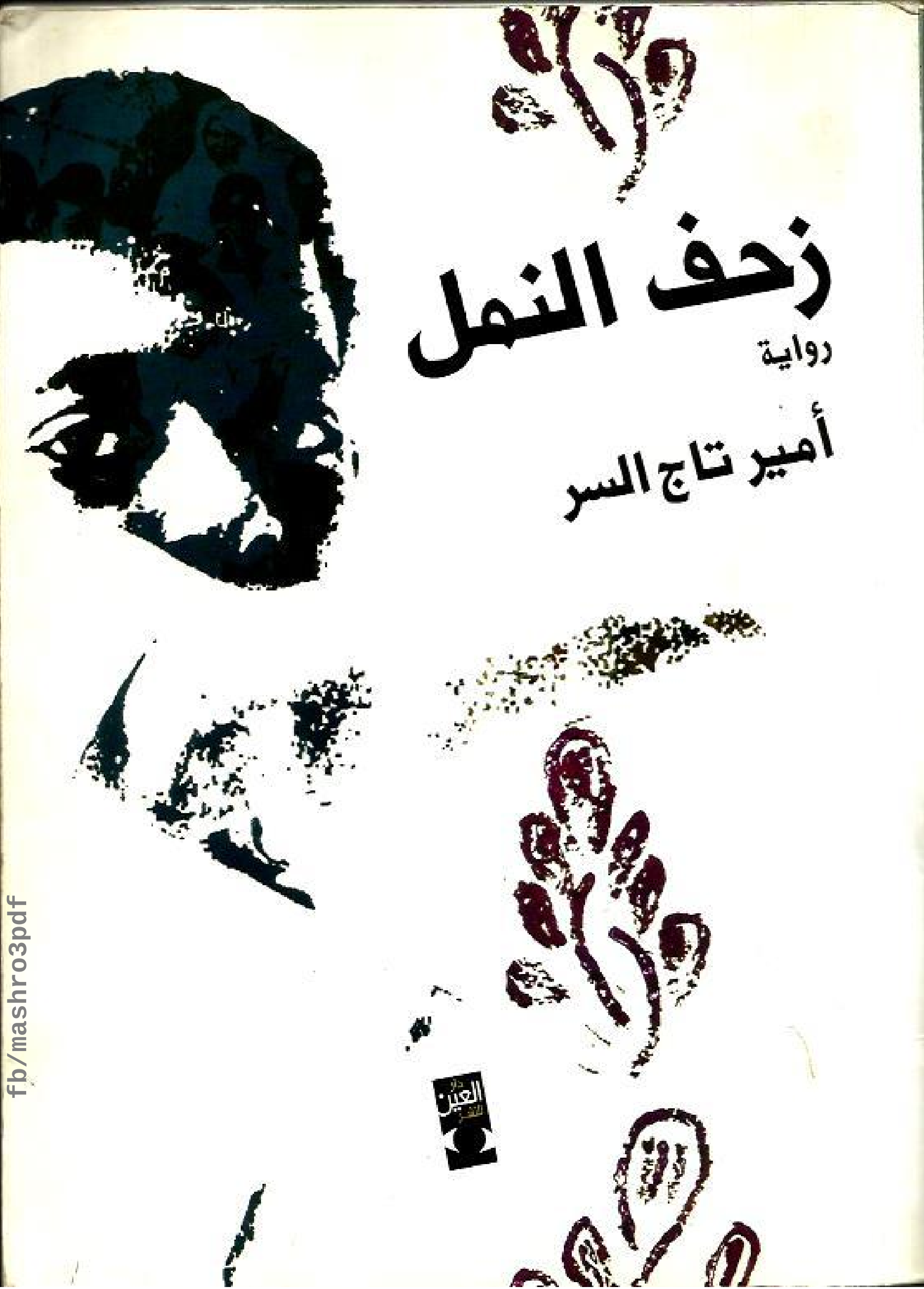


زحف النمل

رواية

أمير تاج السر

دار العين للنشر

زحف النمل

زحف النمل

قصص قصيرة

أمير تاج السر

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨



دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥

www.elainpublishing.com

الغلاف: أحمد اللبـاد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٤١٧/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 978 - 977 - 6231 - 22 -1

زحف النمل

أمير تاج السر

دار العين للنشر

-١-

بدأ الأمر الأشد إيلامًا في حياتي كلها، حين انهرت فجأة في ذلك الحفل الخيري الكبير،الذي أقامته إحدى المؤسسات العامة لدعم أرامل قتلى الحرب الأهلية في البلاد وأيتامها التي تستعر منذ زمن طويل دون أن يفلح ماء السلام المستخلص من شتى التجارب التاريخية والمعاصرة في إطفائها.كان انهيارًا تامًا ومباغتًا، رعشات اليدين والقدمين، تشوش الذهن، تسارع دقات القلب العجوز،خيران العرق الغزيرة التي انبثقت على الجبين وغياب الذاكرة بعد ذلك، لتعود شيئًا فشيئًا في المستشفى تحت العناية المكثفة، وكان أشد ما آلمني حقيقة بعد ذلك حين تذكرت ما حدث، هو أنني لم أكمل الأغنية التي كان فيها مقطعٌ تمثيليٌّ يجسدني راكعًا أقبل تراب ذلك المسرح المتسخ؛ باعتباره تراب الوطن، شبعان أتجشأ حموضة قاتلة باعتبارها شبعًا ناتجًا من اكتفاء الوطن، ثم نازعًا عمامتي من رأسي، ناثرها أمام الناس باعتبارها صناعة وطنية خالصة من صناعات الوطن.وكان يمكن أن أبالغ في ذلك المشهد المثير فأقفز بعمري المديد السنوات إلى معانقة الجماهير في مقاعدها المكسرة والمنتوفة الحبال، مجسدًا عناق الصفوة لعامة الناس، والذي هو العناق المطلوب لأبناء الوطن، وأن انهياري حدث وأنا أحكي بالضبط عن انهيار ذلك الطاغية البربري الذي أذل شعبنا زمانًا.كنت أصف عينيْه المذهولتيْن، وقلبه المتسارع، ورعشة يديْه وقدميْه وعرق جبينه الملتهب، ثم حدث ما حدث.

لم أكن أبدًا من عشاق تلك الحفلات الرخيصة، الخالية من طعم الفخامة الذي أعتبره ضرورة في إنعاش عاطفة الغناء، وتطرية الحبال الصوتية حتى ونحن مصابون بأقسى فيروس الإنفلونزا، أعتبر تلك الحفلات نداء كبير الصوت يشد الغوغاء والرجرجة،

وصعاليك المدينة ولصوصها،يغرسهم في وسط أبرياء جاءوا ليطربوا ويعودوا إلى بيوتهم، ولابد أن ينتهي الأمر بمحفظة تنشل، أو حريق يشب في صدر غيور، أو مدية مسننة تنغرس في إمعاء. إضافة إلى أنها كانت دائمًا بلا مكاسب بدعوى أن مكاسبها قد تسند أرملة فقيرة أو تكفل يتيمًا أو توفر بعض ضرورات الحياة لأم ثكلى.. ومن تجربة لي حدثت في بداية خطواتي في طريق الغناء أن واحدًا من كبار لصوص المدينة آنذاك أراد تحيتي في حفل خيري كنت أغني فيه لصالح مرضى (الدرن)، فصعد إلى المسرح في فوضى واتساخ، انتزع مكبر الصوت من أمام حبالي الصوتية، صرخ مرددًا أغنية عربيدة،ثم ردد : أنا والفنان (أحمد ذهب) إخوة في كل شئ، وكانت جملته تلك مدخلًا فسيحًا دخلت عبره الشرطة والتحقيقات الصارمة إلى حياتي ردحًا من الزمان قبل أن تخرج.

اعتذرت بشدة حين أخبروني عن حفل الخير ذلك.. تعللت بارتباطات أخرى لم تكن موجودة حقيقة، واعتذرت بغضب حين ألحوا وبثوا إلى هاتفي مئات الأصوات التي كان بعضها ناعمًا يغازلني، وبعضها خشنًا يهدد ويتوعد، وبعضها أهوج يحلف بالطلاق ثلاثًا، لكنني رضخت أخيرا حين أرسلوا لي ماسح الأحذية (أكوي شاويش).

لا أدري كيف اهتدى أولئك المنظمون إلى أكوي شاويش، ماسح الأحذية الجنوبي الذي فقدت آثاره منذ سنوات طويلة، و لم أكن أظنه موجودًا حتى تلك اللحظة على سطح الحياة.لا أدري من أين استخلصوه، وكيف عرفوا بذلك الوعد الذي وعدته به منذ أربعين عامًا أن أغني في عرسه متى ما أراد مني ذلك.كنت مغمورًا في ذلك الوقت، وكنت قادمًا إلى العاصمة من ريف بعيد وأمي، أحمل صوتًا مزركشًا، وعودًا بدائي الصنع، وأحلام مزارع متهيج الحواس، يعتقد جازمًا بأنه سلطان الطرب الذي جاء ليجلس على عرش الغناء الذي ظل ـ في رأيي ـ خاليا منذ أن عرف الناس كيف

يغنون. كانت الإذاعة الوطنية قد أسست بالفعل في ذلك الوقت وقطعت شوطًا طويلًا في بثها لتتجاوز مساحة البلاد إلى مساحات مجاورة،وبدأ الناس يقتنون أجهزة الراديو، ويعرفون كيف يستمعون إلى الأغنية، ونشرة الأخبار وأحوال الطقس المتقلبة. وبدأ بعضهم يتحدث في السياسة وبعضهم يطالب بالإصلاح،واكتفى بعضهم بالرقص حين تبث أغنية حتى لو لم تكن راقصة. كان مناخًا لا بأس به لسلطان لا ينقصه سوى التتويج، ومن ثم كانت تلك الرحلة القاسية التي ما زالت آثار شوكها باقية على خواسي. ركبت الإبل والحمير، وبواخر النيل السلحفائية، وقطار النقل الوحيد الذي زحف لخمسة أيام بين الصحاري المدقعة، ومحطات الخلاء اليابسة قبل أن يلقي بي في بحر العاصمة الذي لم أكن أملك قاربًا أو حتى مجدافًا يعينني على خوضه.. ألقيت ببصر الريف على ليل العاصمة المضاء بالكهرباء، رأيت عربات تمرق مسرعة، وحميرًا عليها سروج مذهبة.. رأيت نساء نضرات ورجالا لهم جلابيب شاخصة البياض وتخيلت شعبًا متحضرًا يحملني في نبضه حين أصدح بتلك الأغنيات التي تمجده. كان إلقائي لبصر الريف وأنا أهبط من درجات القطار، كثيفًا ومبالغًا فيه، ولابد أن ثمة انبهارًا مجنونًا قد حدث، وأن غشاوة ممتعة قد تكونت لأن قدمي زاغت فجأة عن الدرجات وهويت إلى أرض العاصمة وحيدا ومكسور الساق. كان وجهي متأزما، وحبالي الصوتية التي أتيت بها لتتويجي، واهنة وتلهث بشدة. نقلني بعض العابرين بالمحطة إلى المستشفى القريب، كان أول مستشفى حقيقي أراه وأنا القادم من أصقاع كثيرة المرض وبلا مستشفيات، دخلته محمولًا ومتوجعًا، لكن بصر الريف لم ينسَ أن يدور بداخله، يلتقط عطرًا جديدًا من عطور العاصمة، كانت مكوناته ثياب الجراحين ووجوه الممرضات، وزحام المرض الذي يتدافع من حولي. كان العنبر الذي نقلت إليه في النهاية، رثًّا بشدة، يكتظ بالفقر والحوادث وآهات الجبائر، كانت ثمة سيقان معلقة، وأيادٍ مبعثرة، ورؤوس مغلفة بالبياض، وكان عدد من الصبية مدلوقين فيه، يحملون في أجسادهم إصابات مختلفة. وقد عرفت أنهم من تلاميذ إحدى الخلاوي الريفية، وقد سقط على رؤوسهم جدار حجري في أثناء درس في التجويد. كنت راقدًا على محفة ممزقة بالكاد

تسع جسدي الممتد، يدفعني الممرضون ببطء وسط ذلك اللحم المهشم؛ حتى عثروا على مكان خالٍ، وكان سريرًا من الحديد الصدئ عليه لحاف مهمل، وملاءة مقطعة، وكان بلا وسادة. كانت حقيبتي قليلة المحتوى قد فقدت في أثناء تلك البعثرة، والعود الذي كنت أحمله بقوة، قد أصيب بجروح بالغة، لكن بذرة إحساس السلطنة في الداخل لا تزال متوفرة، لم يتوقف نموها أبدًا. ألقيت نظرة متأنية على السرير الذي كان بجانبي، وهناك عثرت على تلك الساق المعلقة في الأثقال الحديدية، والتي تنتهي عند تتبعها بالجسد الطويل والصلد للجنوبي (أكوي شاويش). تعارفنا على الفور كمصابين جمعتهما مصيبة، وبلغة أهل الجنوب التي يأتون بها من منابعهم مبعثرة، ويخفقون في لمها مهما عاشوا خارج تلك المنابع، حدثني الجار عن حياته كلها.. كان ريفيًا أيضًا، لكن ريفه كان بعيدًا جدًا. ريف يلفه الغموض، وتستره الغابات، ويرتديه الكر والفر والتمرد على النظم، ريف عارٍ إلا من خرق تشد على الوسط، وحراب للصيد تفهم اللغة دون عناء. كان قد قدم إلى العاصمة منذ عدة أعوام، تلكأ في شوارع الخوف، وحارات العنصرية المزمنة التي لن تسمح لواحد مثل أكوي بالتسكع في جوفها دون أن تخدشه. عمل سقا وبناء وبائعًا للخضار في سوق الشمس القديمة، استأجروه في حمل الأثقال، وخدمة البيوت، وتدريب الصبية على سياقات الجري، وحين بدأت موضة الأحذية ذات الكعوب العالية والأربطة الأنيقة تغزو البلاد في أرجل السياح وتجار الخردوات وموظفي الدولة الكبار، تعلم مسحها وتلميعها وأصبحت مهنته منذ ذلك الحين. كانت ساقه قد تهشمت في عراك على دجاجة أنشبه الجوع بينه وبين جاره، ولم يشبع أي منهما في ذلك اليوم. كنت أحس بقلبه ينبض بعنف حين يتحدث، أرى يديه تتحركان في الهواء في تناغم كأنهما تمسحان حذاء، وكنت من مرقدي أستطيع شم عرقه، ولا أحس بقشعريرة ولا رغبة في القيء.

سألني الجنوبي فجأة بلغة الغابة المكسرة:

– ما الذي تبحث عنه في العاصمة يا ذهب؟

قلت دون تردد:

– أبحث عن نفسي.. عن كياني..عن شعب أطربه بصوتي ويطربني بالسماع إلى صوتي.

– هل أنت حزبي؟

استغربت من سؤاله الذي دل على ثقافة عالية في الصراعات، برغم أن الأحزاب كانت جديدة على البلاد في ذلك الوقت، وحتى أهل الشمال أنفسهم ما كانت ترد إلى أذهانهم بتلك البساطة، لكنني أجبته:

– لا.

– إذن ما مهنتك؟

أنا مطرب.. مغنٍ.. سلطان الطرب الذي سيهز العاصمة من أقصاها إلى أدناها.. هل فهمت؟

لم أنتبه إلى نفسي وأنا ألقى بذلك الإيضاح المتغطرس، وحين انتبهت كانت ساقي قد بدأت تصيح بشدة،ازرق لوني، وخرجت من بطني نداءات الجوع التي لم أكن قد وضعتها في اعتباري.. انتبه الجار إلى تلك النداءات، انحنى قليلا على الأرض وأخرج من مخلاة قديمة، خبزًا يابسًا وطبقًا به طعام (مصلّص) التهمناه معًا حتى التجشؤ.. ولابد أنه الآن انتبه إلى عودي المكسر الحواف الذي حرصت على وضعه في مرمى بصره؛ لأنني لمحت ضحكة بيضاء تركض من بين أسنانه، ثم ركض خلفها ذلك الصوت المتعثر الخطى:

– أنا سأخدمك يا ذهب.. فقط أسمعني صوتك.

كان طلبًا صغيرًا وما أسهل إجابته لو أنه كان في بيت للعرس، أو صالة للأفراح، أو حتى في زقاق عربيد لبيع العرق والبوظة، لكن الغناء في عنبر للحوادث مكتظ بالمرض والآهات، والسيقان المعلقة، كان جنونًا ربما يدحرجني إلى مكان أشد ظلمة، لا سطوة فيه لسلطان ولا فرجة لضوء.. حاولت تأجيل ذلك الطلب، و لم أستطع إلغاءه لأن فضولًا جامحًا هزني.. كنت أريد أن أعرف تلك الخدمة التي يملكها ماسح للأحذية ملفوف بالخرق، في عنبر رث ويمكن أن تدفعني إلى الأمام.قلت لأكوي.. دع الأمر حتى نخرج من هنا بالسلامة، لكن الجنوبي كان صلدًا وعنيدًا..وأبى أن يتزحزح عن رأيه شبرًا، وعندها اضطررت أن أزحف باتجاهه متجاهلًا صياح الساق،و مخالفًا لقوانين الشد والتثبيت للسيقان المكسرة، اقتربت من أذنه، دلقت فيها واحدة من أعز أغنياتي إلى القلب،أغنية (صباحك خير) التي كانت عن (زهرة جعفر) أجمل بنات قريتي، والتي كانت سببًا لفقدان الكثيرين لحواسهم، وهجرة الكثيرين إلى قرى أخرى، وأيضا سببًا رئيسًا في تأخر جني القطن في مواسم عدة؛ لأن الأيدي العاملة كانت تنشغل بالعراك على حبها تاركة خدمة الجني:

- صباحك خير ووجهك نور.
- عيونك شعلة من بلّور.
- يا رايقة وجميل طبعك.
- أكيد هليتي من الحور.
- تقولي خلاص كفاي حبك.
- واقول ياريته يبقى دهور.
- وانتي الزهرة مياسة.
- والخد اللمع مسحور.

- وانتي متاهة الأشواق.
- وأحلام الوطن والدور.
- صباحك خير ووجهك نور.
- يا زهرة وزهور وزهور.

انتهيت من الأغنية وأنا ألهث؛ أصابني ما يشبه الدوار اللذيذ؛ لأن القلب كان يخفق،وطعم زهرة البرتقالي، كان بالفعل في حلقي وأنا أغني. لم أكن واثقًا أن الجنوبي قد فهم لغة المعاناة التي تضج بها الأغنية، ولا أظنه استعاد حبيبة قديمة إلى الذاكرة لها تلك الصفات المشعة.. تخيلت ذهنه البسيط ينقب في ترابه وحواريه المكتظة بجوار الغابات وتشابكها؛ بحثًا عن معنى الحور و البلور و(متاهة الأشواق)، ولا يعثر على شيء أبدًا.. كنت قد رفعت حلقي عن أذنه، تحولت إلى وجهه أرصد علامة أو نظرة تعجب أو انبهارًا، لكن ما حدث بعد ذلك كان أكبر من تصوري..فقد انطلق من حلق الجنوبي صوت ضخم ولكن بلا جماليات ولا اتزان، كان يردد أغنيتي نفسها بنورها وبلورها ومتاهة أشواقها، وكان أغرب ما فيه خلوه من لغة الغابات المكسرة. ضحك أكوي ضحكته البيضاء..ولأول مرة منذ تعارفنا، انبنى حاجز بيني وبينه لم تستطع صحبة العنبر الطويلة، ولا صحبة الحياة العاصمية بعد ذلك إزالته أبدًا،حيث خاطبني بلقب الأستاذ عريضًا غطاني به:

- رائع يا أستاذ ذهب.

كانت أحاديثنا بعد ذلك كلها عن الغناء والطرب، عن العشق الجنوبي النابع من الفطرة وواحدة اسمها (أنجلينا عثمان) خرجت من نطفة تاجر شمالي، و داعبت الصبا المبكر لأكوي شاويش، لا أدري أكان ذلك في غابة أم في طريق حجري، أم على حافة نهر. كان يصفها بالنمرة والشجرة العالية وثمرة الباباي، والحجر الصلد،

وأحيانًا بالسمكة التي تنزلق على اليدين كلما لمستها..رائع يا أستاذ ذهب، وتنهمر من حلقه ضحكات، وأغنيات محلية تذم تجار الشمال الذين كانوا يفترسون ثروتهم وينتزعون الجميلات عنوة من بين نار عشقهم، ويبيعونهم ريشة الديك بعد تلوينها، بأضعاف ثمن الديك نفسه.. كانت صدفة غريبة أن تنكسر رجلي في ذلك اليوم، وأن أحظى بتلك الصحبة الرائعة لأول معجب حقيقي خارج نطاق الريف يبدي إعجابه بين كل جملة وأخرى.. بذرة سلطان الطرب في داخلي الآن راضية جدًا، وتنمو بذلك الماء (الشاويشي) غير عابئة بالاكتظاظ والمرض، وآهات السيقان المعلقة.

كان بعض أقارب الجنوبي يأتون لزيارته من حين إلى آخر، يحملون أشواقًا راطنة، وسلالًا فقيرة من السعف فيها لقم مرة، كنت أقتسمها معه باستمرار، أحس بطعم فاره يخترعه تذوقي، تذوق السلطان الذي لابد سيتوج في يوم ما..اليوم لقم جنوبية وغدًا قوائم من الطعام من شتى بقاع العالم.وخلال فترة قصيرة من إقامتنا بالعنبر، استطعنا أنا وأكوي أن نحرك ساقينا المعلقتين في الأثقال دون ألم أو صراخ، وبعد فترة أخرى استطعنا الوقوف والمشي مستندين على بعضنا، نترنح ونستقيم.وكان الخروج إلى حديقة المستشفى الذابلة بصحبة العود الذي استطعت أن أرتق الكثير من جروحه،متعة كبيرة، هناك التقينا بمرضى قادمين من عنابر أخرى، كانوا ممغوصين ومحبطين، وفاقدي ذاكرة، ومسنين يحملون الضغط والسكري وتصلب العروق. أمسك بالعود في جلال، أتنحنح بنحنحة المغنين العريقين، ثم أصدح بقصائد ربما كانت في الذاكرة الريفية من قبل،أو ربما أرتجلها في ذات اللحظة من إيحاء عطر عابر أو وجه نضر تلامسه عيناي وسط تلك الوجوه الزائرة للمستشفى.وكم من مرة أمسكت بوجه (زهرة) فاتنة ريفنا البعيد، ومهدهزة الصبا، أو هكذا خيل إليّ، أحس بذلك اللهاث اللذيذ الطعم، وتلك المعاناة التي بطعم عسل النحل، لكن الوعي ما يلبث أن يرتد، وأسمع الجنوبي يردد الغناء خلفي، ويحث الآخرين على الترديد.وقد لاحظت في تلك الأيام أن كثيرًا من المرضى وزائريهم كانوا قد تذوقوني وإن كان تذوقًا

صامتًا ينتهي بانتهاء جلسة الترفيه تلك.

في أحد الأيام فتحت لي أول بوابة في العاصمة، وحقيقة إن أكوي الجنوبي هو الذي فتحها، فتحها بشيطنة وإتقان حين أرسل أحد زائريه إلى شخص يعرفه، حاملًا شفرة معينة جاءت على الفور بالرجل المطلوب. في ذلك المساء كنا هادئين ونشطين، وقد غادر تلاميذ التجويد المصابون إلى بيوتهم بعد أن أزيلت أربطتهم، التأمت جروح كثيرة، وهبط عدد من السيقان من أثقال الحديد..وتهيأ أصحابها للخروج.لمحت رجلًا معممًا يتجه إلى ناحيتنا،كان أسمر وجذابا ويحمل تقاطيع أهل الشمال جلية على وجهه، وكانت في يده صحيفة مطوية.اقترب الرجل من جاري أكوي شاويش، سلم عليه بشغف، واعتذر عن عدم معرفته بحكاية الشجار والساق التي كسرت بسبب دجاجة..ثم هتف فجأة:

– أين ذلك المغني المعجزة الذي تحدثت عنه في رسالتك؟

أومأ الجنوبي ناحيتي، أو لعله أومأ ناحية العود الذي كان يطل برأسه من خلف السرير، نهض المعمم وعانقني، ثم قال بصوت فيه فخامة كثيرة:

– أنا شاعر الأغنية إبراهيم علي الشهير ب(دودة القز).

كنت قد سمعت عن دودة القز منذ عدة أعوام، التفت إلى اسمه قبل أن ألتفت إلى معانيه الرهيبة التي كانت تبث عبر أصوات شتى من إذاعة البلاد الوليدة. دودة القز الذي كتب الوسامة والرقة، وظرف الطباع، والنفور، وحياة شعب..هل يمكن أن يكون ذلك حقيقة؟.. يرسل في طلبه ماسح فقير للأحذية في عنبر رث ويحضر. هل يمكن أن يكون ذلك حقيقة؟.. أجلت فرحي بلقائه دقيقة ريثما أشبع من تأمله وتحليل

وجهه وعينيه والبحث عن تلك الجماليات في ثوبه وعمامته..

أين كان يجلس حقيقة حين كتب (جلسة ونجوم وقمر)؟

ومن هي الراقصة الفاتنة التي رمت عليه بشعرها حين كتب (عطرك في الشعر)؟
وهل حقًا شكاه أهل الحبيبة إلى الحكومة حين كتب رائعته (الشكوى)؟

أطلقت الفرح دفعة واحدة وعانقت الرجل من جديد، وكنت أعانق في شخصه بوابة العاصمة الفسيحة التي فتحها أكوي شاويش... وكان أول سؤال تبادر إلى ذهني أن أسأله عن ذلك اللقب الذي محا اسمه وأصبح يردد حتى عبر الإذاعة الرسمية.. لم يفكر الرجل كثيرًا.. رد عليَّ في فخامة:

– أنني أنسج الحرير أيها الريفي.

الليلة الأخيرة لي في العنبر الرث، آهات قديمة خرجت، وآهات جديدة دخلت، وكان ثَمَّ ركن بعيد في حديقة المستشفى أصبح اسمه الآن (ركن الذهب) كناية عن اسمي.. إنه الركن الذي غنيت فيه للمئات، وفيه استمع دودة القز إلى صوتي وذهل، وكان يزودني يوميًّا، يذودني بالأكل والتبغ والمشاعر، وأيضا بقصائد الدموع التي كان يقول إنه كتبها خصيصًا لصوتي.. كان قد أعد لي غرفة في إحدى الحارات الفقيرة، أسسها بما تيسر من الضرورات، وعثر لي على وظيفة اسمية في إحدى دوائر الحكومة، أقتات منها ريثما تقف حنجرتي على قدميها. كان أكوي قد خرج قبلي بعدة أيام وكان يأتي مسكينًا ومعكزًا ليسأل عن حالي، وفي الليلة الأخيرة تلك أبى أن يعود إلى بيته، جلس على الأرض متكئًا على سريري، يغفو ويستيقظ إلى أن طلعت الشمس..في تلك الليلة قررت أمرًا لن أعود عنه أبدًا.. أن أغني في عرس ذلك الفقير، حتى لو

أقامه في أقصى بقعة متمردة في الجنوب.. حتى لو أمه العراة وحاملو حراب الصيد والسكارى، وحتى لو كان مسرح الغناء غابة من غابات الماهوجني المتشابكة أو سفح جبل (الرجّاف) البركاني ..كان سعيدًا حين أخبرته في الصباح، وقال لي في رقة: سوف أخبرك بموعد العرس؛ فكن مستعدًا.

- ٢ -

أخيرًا وقع الطبيب على تصريح خروجي من المستشفى،ذلك الذي كنت أنتظره بشوق حتى أرى العاصمة التي كنت فيها، ولكن خارج نطاق لمعانها. جاء دودة القز مبكرًا لاصطحابي، كان مبتهجًا بشدة وقد بدت عمامته أكثر بياضًا، وبدا ثوبه فاتنًا، وحذاؤه ذو الكعب العالي والرباط، نظيفا. قال إنه أعد حفلًا مسائيًا خاصًا لتحيتي، وسرد على سمعي قائمة بأسماء الذين سيحضرون، وطربت.إنها القائمة التي لابد ستضم اسمي فيما بعد، ولعلها القائمة التي ستبدأ باسمي حين تطرح على أحد.أدخلنا أنا وأكوي في سيارة للأجرة كانت تقف بانتظاره..عربة (همبر) إنجليزية ذات لون رمادي لامع، شعرت بفخامة حقة وأنا أجلس بداخلها.كانت العاصمة الآن في مرمى تأملي المشدود، ونحن ننطلق بالهمبر الرمادية، البيوت التي يسكنها الترف بوضوح،والتي يسكنها تأزم العيش بوضوح أيضًا،الناس في الجلابيب والعمائم والبناطيل، والقمصان..أحذية (المركوب) و (السفنجة)، وأحذية (ماركو) المستوردة. التنوع الكثيف في الملامح، تنوع العواصم الذي لابد يوجد في جميع أنحاء الدنيا. عبرنا بالسوق في ضجته الصباحية، وشارع النيل في بهائه ونظافته، وجسوره المتعددة، وغيوم أشجار الجميز التي تظلله بالكامل. كان كل وجه أصادفه، أتخيله وجه معجب سيغامر بالجري خلف العربة ليلفت انتباهي، وكل فتاة زاهية تمر من أمامنا، أتخيلها المعجبة التي ستفر أسنانها وتمنحني ابتسامة،وكان دودة القز يقرأني بحنكة؛ لأن تفاصيل حديثه كلها كانت تمجيدًا لمستقبلي القادم على يدي قصائده. أكوي شاويش كان صامتًا، وخلته يخطط هو الآخر لمستقبل مدهش بعيدًا عن الأحذية والورنيش وغبار الشوارع.

وصلنا أخيرًا إلى بيت دودة القز الذي كان بيتا عاديًا جدًا في معمار ذلك الزمان، يرقد في حارة ضيقة، وفي حي شعبي يعج بالصراخ والمناوشات، وتسبح شوارعه في ماء الغسيل المدلوق أمام كل باب. أطفال يلعبون الكرة، نساء يبحثن عن ملح، ورجال متبطلون يحتسون شايًا بلون العكر. إنه الطعم المالح الذي لم أكن أود تذوقه في أول معانقة حقيقية للعاصمة، ليس بالتأكيد طعم السكر الذي كان ينبع من قصائد ملتهبة ك (شكوى)، و(جلسة ونجوم وقمر). قال دودة القز ناهرًا خواطري تلك وفي ذات اللحظة التي تكونت فيها في الذهن:

- الحياة هنا والإبداع هنا.

وقد كان على حق في قوله ذلك؛ لأن سلطان الطرب الذي كان بداخلي، كبر وترعرع بسرعة حين بذر في الغرفة الفقيرة، وشاخ بشدة حين انتقل لبيت الرفاهية ذي الطابقين فيما بعد. نزلنا على مهل، أفطرنا وتغدينا ونلت حمامًا شرسًا غسلت به جسدي ونفسي من أدران عنبر الحوادث وارتديت ثوبًا وعمامة طازجيْن، كان دودة القز قد فصلهما لأجلي مع عدد آخر من الثياب، بعد أن طبع قياساتي في ذهنه أثناء زياراته المتكررة. ولم ينسَ الجنوبي أيضًا أن يستحم، وأن يرتدي سروالًا من القطيفة كان إهداء خاصًّا من الشاعر الكبير.

جلسة التحية لأجلي كانت هي الجلسة. العناق الحميم لصوتي بأصوات آخرين كانوا نجوما إذاعيين، ومحترفي إقامة حفلات، ويملك الواحد منهم من المعجبين عددا يفوق سكان الريف كلهم. جاءوا جميعًا، ولا أدري هل كان مجيئهم لافتراسي بمخالبهم المضيئة أم لأخذ يدي والعبور بها إلى البر؟ أسمعتهم أغنيتي عن زهرة جعفر التي لا أمل من ترديدها أبدًا، ووظفت الجنوبي (كورسًا) يردد غنائي بصوت سليم خالٍ من نكهة الغابات. وكم كانت فرحتي عظيمة حين أمسك المغني اللامع (صالح جفون) بعوده

وأخذ يردد معنا الأغنية. كانت الجلسة الأولى التي تلتها عشرات الجلسات بعد ذلك، في بيت دودة الفز، في بيوت متعددة يملكها أولئك النجوم، وحتى في غرفتي الفقيرة، التي كانت في سبيل الإبداع تتسع حتى أخالها قصرًا شامخًا. وشيئًا فشيئًا اقتربت كهرباء العاصمة من صوتي، ابتدأ تجار الحي يعاملونني بلا جشع، صبيته يتوقفون عن الضجيج ولعب الكرة حين أمر رافعًا قامتي إلى أعلى مستوى، وبعض نسوته يستوقفنني في الطريق سائلات عن لا شيء. غنيت في عرس باهر لتاجر كبير، كان الرابع في ترتيب أعراسه، وعرس متوسط الإبهار لفني كهرباء شاب كان من أقارب دودة القز، وكدت ألحق بالحفل الكبير الذي أقيم لتخريج أول دفعة من المعلمات في مدرسة التربية، لكني ضعت في الطرق المتشابهة و لم أصل. وأخيرًا جاء مندوبون من (قاعة المحبة) ذلك المسرح المهم، وقدموا لي عقدًا لإقامة حفل ساهر كبير. كان أكوي شاويش يلازمني باستمرار، يقيم في جحر قريب من منزلي، يطوف بالشوارع ماسحًا الأحذية، ثم يجيء عند القيلولة يشاركني الأكل والشرب وأحلام السلطنة القادمة.

في أحد الأيام جاءني دودة القز فرحًا، كنت قد قدمت له (لغة الجمال) التي يقول مطلعها:

- لغة الجمال فيكي.
- وفين الألم والنوح.
- والبسمة من عينيك.
- زاهية وترد الروح.
- أنا يا ملاك زولك.
- أديني لحظة بوح.
- فيها الشفا وفيها.
- لغز الأمل مشروح.

قدمتها أولًا في عرس جماعي أقامته قبيلة (المحاسنة) التي تقيم في أطراف العاصمة، وزوجوا فيه أربعة وعشرين من شبابهم، إلى شابات بطعم البرتقال. وكانت في ذلك اليوم هي الأغنية التي بكت من معانيها كل عين عاشقة، ورقصت على أنغامها كل قدم رشيقة، حضر دودة القز معي ذلك النصر، والنصر الآخر حين غنيتها في ختان أنجال الوجيه (نمر) تاجر السمسم المعروف. كان هو الذي قدم الفقرتيْن، وقد لاحظت أنه يحظى باحترام كبير لدى المحاسنة؛ لأن بعضًا من شبابهم كانوا ينحنون على رأسه ويقبلونه. دخل دودة القز فرحًا، رفع يده اليمنى بعلامة النصر وهو يتقدم، وقال بصوته الشمالي الفاخر:

– عندي لك خبران ساران يا ذهب.

أعطيته أذنين تتوقان لالتهام الأخبار السارة، فردد:

– أولًا لقد وافقوا على أن تغني في عيد الثورة الذي يصادف بعد شهريْن.. وقد أعددت لك أغنية (رحلة إعمار) التي ستكون مدخلك إلى عالم السلطة.. هل يعجبك هذا الخبر؟
– طبعًا يعجبني..
– صرخت من فرط النشوة.
– إذن خذ الخبر الآخر.. لقد أضرب فنانو الإذاعة عن الفناء حتى تعدل أوضاعهم، والإذاعة الآن محرجة وتحتاج إلى مغنين جدد يملأون فقراتها.. هل تود أن تملأ فقرة؟
– بل عشرين فقرة لو أرادوا.. هيا إليهم الآن.

قفزت إلى أفضل زي اقتنيته بعد أن بدأت أوراق النقد تغزو جيوبي.. كان بنطالًا من القطيفة السوداء، وقميصًا حريريًا أزرق اللون، وقد لف دودة القز عنقي بذلك الرباط الرمادي، وكان بارعًا بالرغم من أنني لم أره يرتدي الملابس الإفرنجية أبدًا.. كان هو الشاعر المعمم، ذا الثياب البيضاء الذي التقيته وصادقته وكونت معه واحدًا من أشهر ثنائيات اللحن والكلمة، ودفنته بيدي بعد ذلك بأعوام طويلة. لم يكن يهمني في تلك اللحظة ماذا سيقال عني؟ وكيف سيتعامل النجوم الذين غدرت بهم وسعيت إلى منبع أضوائهم الكبير؟.. كل ما يهمني كان ضوئي أنا.. ضوئي الذي سيشع أخيرًا من الإذاعة.. الذي سيستقبله أهلي في الريف وربما تستقبله زهرة جعفر، وتعرف قيمة الرجل الذي كانت تعتبره واحدًا من أولئك الهامشيين الذين كانوا يتسكعون حول جمالها.. هيا يا دودة القز.. وانطلقنا أنا ومكتشفي وممهد الطريق لي في ضباب العاصمة. كانت الإذاعة بالضبط كما تصورتها، غرفة رحبة ممتلئة بالأسلاك والحركة، فنيين ومخرجين، ومقدمي برامج أكثر وسامة من نجوم الغناء.. كان استقبال الجميع لي حافلًا، وأجلسوني أمام جمع من المختصين قالوا أنهم سيقيمون صوتي.. والواقع إن صوتي لم يكن بحاجة إلى تقييم.. كان مقيمًا منذ نبع في الريف، مقيمًا منذ همس في عنبر الحوادث الرث في أذن ماسح أحذية فقير، في ركن الذهب، في حفلات عرس (المحاسنة) و(قاعة المحبة).. التقييم الرسمي.. لا بأس.. قيموا على راحتكم.. غنيت ثلاث أغنيات كلها من كلمات دودة القز.. وكلها تحمل طابعه المميز في رصد الرقة والعنفوان، ولمحت وأنا أغني علامات رضا جلية تشع في وجوه أولئك المختصين. لم يقولوا: حسنًا، تعالَ في يوم آخر لنبلغك بالنتيجة، لكنهم صرخوا بصوت واحد: سجلوا معه.. سجلوا معه.. وكانت الفقرة التي أذيعت ثمانين مرة حتى تم إلغاء اسطوانات التسجيل القديمة بعد تطوير الإذاعة، وفقدت بعد ذلك.

عدت إلى غرفتي وأنا أحس بعسل الشهرة راكدًا في حلقي، أغرف منه ولا أشبع،الآن فقط أستطيع أن أقسم بأنني سلطان الطرب.. وحتى لو مت في أية لحظة،

فإن الأغنيات الثلاث التي بذرتها في مكتبة الإذاعة ستكون أبنائي الذين يحملون اسمي.. وجدت أكوي شاويش هناك، أردت إخباره.. لكن الجنوبي كان يعرف، أوقفني بصوته الضخم قائلًا:

- منذ سمعت بموضوع الإضراب وأنا أعرف.

لم أسأله من أين عرف بموضوع الإضراب.. فقد كانت مهنته واحدة من تلك المهن التي تملك آذانًا حادة لا يفوتها أي همس. زودني دودة القز بجهاز عتيق للراديو، وجاء في يوم إذاعة الفقرة لنحتفل معًا.. والحق إنني طربت لصوتي وأنا أعانقه مبثوثًا على الأثير.. كان كأنه صوت آخر لا يمت لحنجرتي بصلة.

بعد إذاعة الحلقة مباشرة جاءني المغني (صالح جفون)، كان غاضبًا بشدة وأخبرني أنه يعتذر عن تلحين أغنية (عذراء) من كلمات دودة القز، التي كنا قد اتفقنا عليها معًا.. قال:

- لا عذراء ولا مطلقة أيها الريفي.
- وانصرف.

تكدرت في ذلك اليوم بشدة، فكرت في فداحة الخطأ الذي ارتكبته، خاصة أن قصيدة (عذراء) كانت من القصائد التي هوت إلى قلبي وامتلكت حيزًا فيه، منذ سمعتها لأول مرة، إضافة إلى أن صالح جفون كان بجانب حنجرته الذهبية، بارعًا في تلحين الأغنيات، لكن دودة القز لم يتكدر، كان متكئًا على وسادتي الخشنة، يصفر بلحن فريد، واكتشفت فجأة بأنه اللحن المثالي الذي يجب أن تخرج به أغنية كعذراء للناس. وفي اليوم ذاته التقيت ب(عباس جروح) الذي كان عازفًا للطبل في الفرقة

القومية، شد على يدي بقوة وقال مشجعًا:

- أنت الإضافة التي كنت أنتظرها طوال عمري.

كانت الأيام التالية كلها حصادًا شرهًا لبذرة الصوت التي بذرتها في الإذاعة، جاءت إلى الصحف العاصمية برقيات من شتى أنحاء البلاد، وحتى من الأماكن التي لم يكن البث فيها نظيفًا، كانت كلها تسأل عن ذلك المغني الجديد الذي قدمته الإذاعة، حصدت شهادات لمثقفين وسياسيين، ولاعبي كرة وأيضًا من رائدات فاعلات في العمل النسائي، وحتى زملائي الغاضبون من إفشال إضرابهم لم ينسوا أن يرددوا في مجالسهم الخاصة: إن أحمد ذهب كان رائعًا. ولا أدري هل كان صوتي المسموع هو الذي أغاظهم، وأعادهم إلى العمل في الإذاعة.. أم شيء آخر، لأن الإضراب ألغي بعد ذلك.. ولعلعت الأصوات القديمة مرة أخرى عبر الأثير.

الحوار الأول في صحيفة (ثورتي)..الحوار الذي ارتبكت فيه كثيرًا، سميت الأفعال، وفعلت الأسماء، و لم أستطع أن أميز بين (الدو) و(الري)، ولا أن أتذكر أغنية واحدة ينطبق عليها السؤال العادي، حين سألني موفد الجريدة :ما أكثر أغنية ممتلئة بالآهات في مجموعة أغانيك؟

أعطيته اسمًا لواحدة من الأغنيات، وكانت للأسف الشديد أبعد أغنياتي كلها عن الآهة.. كذلك هززت رأسي مرارًا و لم أجب حين سألني عن المغني الذي تأثرت به، لكن الحوار - في مجمله - كان خطوة.. خطوة أخرى في طريق التتويج.

جاء عيد الثورة السنوي.. جاء ببذخه وأعلامه الملونة، وحاجة السلطويين إلى تمجيدهم بحناجر المغنين كلما جاءت مناسبة، وكانت أغنية (رحلة إعمار) جاهزة

وبلحن قوي اجتهدت في إعداده.. لم تكن من نوع الأغاني المفضلة لدي في هذه الفترة، لكنها الأغنية التي أراد دودة القز الماكر أن يقفز بها خطوات في الدهاليز السلطوية، وأراد صوتي مطية لهذا القفز.. لكن لا بأس.. سأغني للإعمار الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا، وللشعب الذي قد يغني باسمي في يوم من الأيام.. كان مسرح قاعة المحبة قد أعد للحفل الكبير، زين كما يجب أن يزين، ونقلنا إلى هناك بعربات فيها رائحة جبروت وعليها علامات تدل على هويات غامضة.. لم أكن أدري في تلك اللحظة، هل ما أفعله صواب أم خطأ، وهل هذه حقًا بوابة أخرى من بوابات العبور، كما قال دودة القز؟..

نعم، لقد كانت بوابة.. ليست البوابة التي أرادها أو تصورها دودة القز؟.. ولكن بوابة معطرة دخلت عبرها زهرة أخرى إلى حياتي.

ليست الريفية زهرة جعفر،المزارعة والراعية والحاملة صفائح الماء على رأسها، ولكن العاصمية الحسناء (حياة الحسن)..

كانت حياة بالفعل.. حياة كاملة ورفيعة المستوى، طويلة ورشيقة، ولها وجه ظبي نافر، وكانت قد درست في مدرسة التربية، وتخرجت في تلك الدفعة التي لم أستطع اللحاق بحفل تكريمها. صعدت إلى مسرح قاعة المحبة لأؤدي وصلتي، اشتعلت الموسيقى، وتضفرت (إعمار شعب) من حلقي.. مشت بين الحضور من كبار وصغار، التفت حول أعناقهم كلهم ووجدتهم يقفون ويهتفون، وقد بالغ بعضهم في الهرج؛خلعوا قمصانهم وعمائمهم، حولوها إلى كرات من القماش وطوحوا بها في الهواء:

- لوّن بلدك بي إحساسك
- يوم تتنفس.. بي أنفاسك.
- ابني وعمّر دحرج فاسك.
- ياشعبا ما بنزل رأسك.
- يا وطنا غاليات انسابك.
- لو طليت بالسمرة حبابك.
- او هليت بالخضرة حبابك.
- لو سديت في وشنا بابك.
- برضو ترابك.. يبقى ترابك.
- بيغنيك عم أحمد غنوة.
- بيناجيك أطفالك نجوى.
- بتسافر إطلالة عزك.
- تروي العالم من وسلوى.

صعدت حياة الحسن إلى مسرح الغناء في تلك اللحظات الصاخبة، لا أدري هل لتطفئ الد خب أم لتزيده اشتعالًا؟!، كانت عضوًا في لجنة تنظيم الحفل، ويبدو أن الوطن ال..ي تحمله في قلبها، كان عميقا، وأحست بأن الفوضى قد جرحته، أشارت إلى الجميع في هدوء أن يجلسوا في أماكنهم ويستمعوا، وجاءت إشاراتها كأنها أمر؛ حيث انطفأ الهرج فجأة وعادت الآذان صافية تستمع. التفتت إلى ناحيتي.. لم تكن تبتسم حقيقة لكن خيال عينيها في المسرح المعتم قليلًا، كان قد خاطبني بالفعل.. جاء التوهان اللذيذ، وجاءت الرعشة، وقفز إلى الحلق طعم البرتقال الذي كنت قد نسيت تذوقه في أثناء انشغالي بخطوات الرحلة السلطانية.. أكملت وصلتي بلا وعي، وقفزت من مسرح الغناء كالمجنون، أدقق في كل وجه نسائي أصادفه؛ باحثًا عن الخيال الذي خاطبني وأوقدني دون أن أعثر له على أثر. أردت أن أسأل لكن كبرياء الاسم

الذي بدأ يلمع في تلك الأيام، منعني، وأردت أن أنفجر باكيًا، لكن سلاسل عديدة كبلتني.كانت العاصمية كأنها نور انبثق فجأة وانطفأ.. وحين انتهى الحفل وتهيأنا للانصراف، اقترب مني عدد من الفاتنات ممن استمتعن بغنائي تلك الليلة، شددن على يدي برقة، وقالت إحداهن ضاحكة:

- حياة الحسن تعتذر لك بأنها انصرفت مبكرة بسبب الإرهاق.

سألت: من حياة الحسن؟

- الفتاة التي صعدت في أثناء الحفل وأسكتت الحضور.

إذن.. اسمها حياة الحسن.. خفق قلبي بشدة.. وترسل باعتذارها أيضًا.. لقد كان توهاني إذن حقيقيًا، وطعم البرتقال الذي تذوقته في حلقي قادم من برتقال حقيقي وليس من برتقال تخيلته.. ليس من الصعب أن أعثر عليها.. قلبي سيقودني حتما إلى مخابئها، وإن فشل فإن لدودة القز قلبٌ لا يعرف الفشل أبدًا.. سأخبره بالتأكيد، وقد أحذره من التغزل فيها أو كتابة قصيدة عن لونها وخيال عينيها.. شعرت بأن تلك (الحياة الحسن) كانت حياتي، وحسنتي..وإنني في حاجة ملحة إلى بصماتها.. أردت أن نتسلطن معًا.. أنا على عرش الطرب، وهي على عرش قلبي، سلطانة تأمر وتنهي.

اقترب دودة القز مني في تلك اللحظة، نشل مني المعاناة اللذيذة التي كنت أعيشها بصوته الفخم، ثم قادني من يدي، قذف بي في وسط لجة للتعارف الصارم، ضمت وزراء ووكلاء وزارات، وقادة في الجيش والشرطة، وساسة مغمورين كانوا يسعون للسطوع في تلك الأيام. استقبلوني بانفعالات مختلفة، سألوني عن أشياء تافهة وعامة، وطلب بعضهم تشريفي في بيته، وسألني أحدهم:

- متى نستمع إلى اسطوانتك الأولى.. يا ذهب؟

كان سؤاله مهمًا في الحقيقة، فقد جمعت في تلك الفترة عددًا من الأغنيات تكفي لعدة اسطوانات، لكن أمر إخراجها لم يخطر ببالي أبدًا.. وعدت الرجل خيرًا، ووعدت آخرين طالبوني بأشياء مختلفة، وخرجت من لجة التعارف بصحبة دودة القز، متجهًا إلى بيتي. كنت مشتاقًا إلى لملمة الخدر اللذيذ مرة أخرى واحتضانه، وربما السهر معه في مناجاة طويلة حتى الفجر، لم أقل لدودة القز شيئًا، ويبدو أن الشاعر العاطفي بدوره كان ممتلئًا في تلك اللحظة، ليس بهتافات شعب ألهبته أغنية، ولا بأحاديث ساسة وعسكريين ربما أضاعوا وجهه مباشرة بعد أن انصرف، ولكن بوجوه ومشاعر وارتجاجات كانت تنز من صمته بين حين وآخر. وحين صرخ:

- في قاعة محبة؛ بكيت.
- رميت حلمي القديم ومشيت.
- قلت خلاص لقيت حبك.
- لقيت زمن الفرح ولقيت.
- يا غنَّاية في قلبي..
- ويا ساكنه المشاعر بيت.

انتفضت بشدة، كنت خائفًا أن يكون دودة القز يكتب حياتي.. حياة الحسن. ضغطت على آخر عصب حي في مشاعري، سألته:

- هل هو حب جديد يا إبراهيم ؟

كان هذا الشاعر الكبير، عميقًا في نزواته، لا يؤمن باستقرار العاطفة أبدًا، ويعتبر النهاية الحتمية للقلوب المتحابة، أن ترتبط برباط الزواج، نهاية جرثومية.. هكذا كان

يسميها.

هل تعرف الجدري يا أحمد ذهب؟

هل تعرف الحمى الصفراء والكوليرا؟ وهل تتزوج من الملاريا إذا غازلتك يومًا؟ هذه هي نظريتي. لم أكن أناقشه كثيرًا في تلك النظرية الغريبة، وكنت أشفق عليه أحيانًا، أرى عمره يترهل أمامي وأخاف أن أفقده يومًا، ويدي لا تزال في حاجة إلى يده التي ستقودها إلى عرش السلطنة. وطوال فترة احتكاكي به، لم يخل برنامج حياته من حب جديد يولد، وآخر قديم تهال عليه التراب.. من طرف واحد، من طرفيْن، لفتيات يعرفنه أو لا يعرفنه،لأميات.. لمثقفات.. لربات بيوت.. لخادمات لم يكن يهتم.. فقط جذوة الحب، ثم القصيدة التي غالبًا ما تكون أغنية الموسم حين تخرج ملحنة إلى الناس.

هل هو حب جديد يا إبراهيم؟

أخرجته من شرك القصيدة بصعوبة.. وجدته يتأملني بنصف وعي:

- نعم هو حب جديد.. دعني أكمل قصيدتي.. أرجوك.
- إذا كان الصباح ينبع.
- أكيد ينبع من أجفانك.
- إذا كان الزمن تواه..
- أكيد تواه بألحانك.

إذا هزهز مشاعري الريد.
ورفَّت فيني ألوانك.

- تأكدي يا جميلة الناس.
- هدف أو طاني أوطانك.
- ظهرتي وكنا مبهورين.
- وكان الليل كمان مبهور.
- وقلتي من الكلام جوهر.
- دفق زي شمعة شايله النور.
- تعالي نعيش عمر زاهي..
- جديد و مديد وجوه قصور.
- مؤسسه بي رياش فاخر.
- أنا وعينيك وطلة نور.

قصيدة رائعة يا دودة القز..رائعة جدًّا، لكن احذر أن تكون قصيدتي، احذر أن تكون عن حياتي. هكذا كنت أتعارك بداخلي..

- من هي صاحبة القصيدة يا إبراهيم؟
- إنها فتاة من عرب (الشباقرة)..عمرها سبعة عشر عامًا، لا تقرأ ولا تكتب، لكن عالمها غني.. عالم ممتع.

عندها تنفست بارتياح، ليست (حياتي) من عرب الشباقرة، ليست أميَّة لا تقرأ ولا تكتب، وليست غريرة بسبعة عشر عامًا..الآن فقط أستطيع أن أحكي لدودة القز عن حبي.

جاءني الشاعر في يوم واحد فقط بكل ما يمت إلى حياة الحسن بصلة، قال إنها الرابعة في ترتيب المواليد لترزي بلدي في سوق الشمس في وسط العاصمة، عاشت

حياة عادية في البداية وسط إخوتها، ثم تمردت على تقاليد الأسرة حين سعت إلى التعليم الذي لم يكن مطروقًا بكثرة من قبل الفتيات في ذلك الوقت.. قال: إنها لم يسبق أن أحبت، وترفض الحب والزواج في أحاديثها باستمرار.. وقال: إنها تحب الأعمال التطوعية بجنون، ويمكن اكتسابها إذا قمنا بإعداد أغنية تجسد الشفقة على الأيتام، وأطفال الشوارع، وتدعو إلى العدل والمساواة..وفي نهاية ذلك التقرير، أخرج دودة القز من جيبه صورة واضحة ألقاها أمامي صائحًا:

- أليست هي؟

تسارع نبضي حين عانقت الصورة الشمسية، كانت هي بالفعل، وكانت الصورة تجسدها منحنية في شارع ضيق، تقبل طفلًا بثياب ممزقة.. و في يدها اليمنى باقة من الورد..

- ماذا تنتظر؟.. صرخت في الشاعر الكبير.. هيا اكتب هذه الأغنية المملة عن أولئك المشردين.. أحضر المشردين كلهم إلى بيتي.. افعل أي شيء.. أريد أن أنال رضاها.. أريدها بأي ثمن.

والواقع أن نيل الرضا الذي سعيت إليه كان معقدًا بشدة، ومكلفًا للغاية، وأغرقني في دوامة التوهان زمنًا طويلًا.. لم يكن دودة القز يملك شاعرية الشفقة أبدًا، ولا خطر بباله وهو يعبر بأولئك الأيتام والمشردين الذين تغص بهم الشوارع، إن في وجوههم قصيدة يمكن أن تكتب، وإن في عطور أجسادهم المرة المذاق، عطرًا يمكن رسمه في أغنية.. كان يخرج في الصباح الباكر، ينغمس في شوارع الغبار والتشرد، يقبل طفلًا ويضرب آخر،ويعطي لثالث قطعة من حلوى (الكرميل)، ثم يعود في المساء ليكتب بيتًا، أو جزءًا من بيت، أو لا يكتب شيئًا على الإطلاق،واضطر -في كثير

من الأحيان– أن يستعين بصديقنا ماسح الأحذية (أكوي شاويش) الذي خفت حدة احتكاكه بي قليلا حين بدأت أعرف، حتى يترجم له لفظًا شوارعيًّا، أو يعلمه وقفة من وقفات التشرد الفقير.. وبعد شهريْن تاميْن من المعاناة المطلقة، جاءني بالقصيدة التي كانت غريبة بين قصائده، وملوثة بالقبح المعنوي لهذه الفئة المهملة في المجتمع، والتي للأسف الشديد.. كانت محورًا مهمًّا من محاور حياتي.. حياة الحسن... قال وهو يلقي إليّ بمسودة لم تُصحح أخطاؤها:

– هاك غراب قصائدي أيها العاشق.

لحنت أغنية الشوارع بصعوبة شديدة، أنا أيضًا كنت مثل دودة القز عاشقا للعيون والوجوه النضرة، وبرغم بدايتي المتشردة فإن ألحان الشفقة كانت بعيدة تمامًا عن عودي.. لكني كنت في لحظة اضطرار.. وكان لابد من امتلاك تلك النافرة البعيدة. عثرنا على مسرح متواضع يقبل أن يستضيف أغنيتنا ومضاعفاتها الفوضوية بلا مقابل.. ووجهنا دعوات كثيرة إلى مسؤولين وناشطين في حقوق الإنسان، وأيضًا إلى كل يتيم ومتشرد يستطيع أن يتعلق بباص أو حافلة نقل ويحضر. وكانت الدعوة الأولى بالطبع قد وجهت إلى حياة الحسن.

صعدت إلى مسرح الغناء في نشاط، كان يحيط بي عدد من أكثر صبية الشوارع قذارة واتساخًا، التقطناهم أنا ودودة القز هكذا، وأبقيناهم هكذا إمعانًا في ضخ التراجيديا، وتطلعًا إلى جلب المساعدات من جيوب الحاضرين. والأهم من ذلك إثبات قدرتنا على النزول إلى الطبقات المهمشة، والتفاعل معها.كما تفعل حياتي.. حياة الحسن. كانت أمامي مباشرة في صف المقاعد الأولى، رائقة الحسن ورشيقة، ولها عينا ظبي شديد النفور، كانت ترتدي ثوبًا أزرق عليه نقوش حمراء وزهور متفتحة، و لم تكن غارقة في أية زينة إضافية..لا قرط على الأذنيْن، لا أساور على اليديْن، ولا عقد

يتدلى من ذلك العنق الأخاذ. لم تكن حقيقة تتأملني، لكنني لويت عنق تأملها، وجهته إليّ بإحساسي فقط، ملأتني شحنة العذوبة ورائحة البرتقال، وابتدأت أنشد واحدة من أكثر الأغاني ملًلا كما أعتقد:

- اسمي مظفَّر.. اسمي محاسن..
- اسمي أمل.
- اسمي الأرض المابترووها..
- ولا غيم خيركم فيها هطل.
- العار.. العار..
- فقدت أبويا وأمي وأهلي
- وظل النخلة وحس الجار.
- واتغديت في الشارع ظلمة.
- برده القارس.. صيفو الحار.
- كان ممكن أتعلم وابني..
- أصبح للمغلوبة جدار.
- كان ممكن اتوظف شمعة
- تضوي دروب الناس أنوار.
- العار.. العار.
- يا راكب.. يا ماشي.. يا جاري..
- يا محول بصرك عني.
- أقيف لو لحظة تأمل وجهي..
- لا تخاف من شكلي ومني.
- أنا من لحمك.. من أعصابك..
- أنا ابنك.. يلا امسكني

- يلا امسكني
- يلا امسكني.

وكانت فقرة بذيئة تلك التي أصر عليها دودة القز، أن يتجمهر أولئك المتسخون، يمسكون بيدي وقدمي وثيابي الأنيقة، وهم يرددون خلفي: (يلا امسكني.. يلا امسكني)، قال في ثقة كبيرة: حاول أن تحتمل قليلاً يا ذهب.. هذا المشهد هو الذي سيقربك من محبوبتك، أكثر من بكائك في الأغنية كلها. كنت أتمايل من شدة الجذب المتسخ، أشم رائحة العرق الملوث وأختنق بها.. حين صعدت (حياة الحسن) إلى المسرح، لم أرها حقيقة في البداية، كنت مشغولًا بالانتباه إلى ثيابي الأنيقة ألا تتمزق، وإلى أعصابي المضغوطة ألا تنفلت، حين سمعت صوتًا ناعمًا لكنه وقور يردد معنا: يلا امسكني.. يلا امسكني.. وحينئذ رأيتها..

كانت حياتي تمسك بعدد مهول من المتسخين ويمسكون بها، وجهها كله ابتسامة، وجسدها ثابت في المسرح لا يرتعش.. اقتربت منها بلا وعي، حاولت أن أمسك بيدها أسوة بأولئك البذيئين.. لكنها ابتعدت في حذر بليغ، لم يلحظه أحد من الحاضرين. لم تكن خائفة ولا غاضبة، ولكن خجلة كما يبدو، أن تمس يدها من قبل رجل وسط كل أولئك الناس.

منذ ذلك اليوم لم أعد أستطيع المرور في شوارع الفقر دون أن أسمع تلك النداءات تحتك بأذني، والأطفال يسعون إلى يدي يشدونها.. يلا امسكني.. يلا امسكني.. ومنذ ذلك اليوم أيضًا فتحت حياة الحسن دنياها العريضة لتوطيني بها كأول ساكن شعوري يدخل إلى هذه الدنيا. كان أول انفعال لها حين اختتمت الأغنية ونزلنا من المسرح غارقين في العرق الملوث. حيتني برقة متهدجة، وقالت ضاحكة:

- لم أكن أعرف أنك اشتراكي.

اشتراكي؟.. تقلبت الكلمة في ذهني عدة مرات قبل أن أستوعب ظلالها،أنا اشتراكي؟.. لم يخطر ببالي أبدًا في يوم من الأيام أن أعتنق الاشتراكية، وكوني قادمًا من الريف البعيد لا يعني أنني لا أعرفها.كنت أعرفها بالتأكيد، وعاصرت الكثير من المزارعين في ريفي البعيد كانوا يهضمونها ويتغنون بمعانيها وقد قال لي أحدهم مرة: لن تنجح في غنائك أبدًا ما لم تكن اشتراكيًا تحس بمعاناة من تغني لهم. لكن لا بأس.. لا بأس.. لن أرفض خطوة جديدة ربما تقربني أكثر.

كان دودة القز يقف ملاصقًا لي، التقط ما قالته حياة.. ورمي بجملة ماكرة:

- نعم، سيدتي.. ذهب من اشتراكيي الريف الذين تمدنوا أخيرًا.

ضحكنا كلنا، وافترقنا أنا وحياة الحسن على موعد أن نلتقي غدًا في إحدى الساحات الخضراء في المدينة لنتكلم قليلًا. لم أكن أدري بالتحديد ما محور الحديث الذي سيدور بيني وبين المرأة التي عذبتني أشهرًا طويلة قبل أن تقترب. من الذي سيفتتحه ؟ ومن الذي سيغلقه ؟ وكم تستمر مدته؟. من ناحيتي لم أكن أستطيع قول الكثير؛ لأن لا صبر لدي قد تبقى.. فقط جملة واحدة لا تزيد حرفًا:

- هل تتزوجينني يا حياة الحسن؟

من ناحيتها قد تكون ذات صبر وحبال طويلة، قد تكون ذات لغة مراوغة تغمرني بها، وقد تكون بلا أية عواطف، كما قال دودة القز من قبل، وإنها ما وافقت على لقائي إلا لتغرسني في العمل التطوعي وسط أولئك الصبية البذيئين، أو لتستوثق من اشتراكيتي المزعومة.. تسألني عن رأس المال والثورة البلشفية.. وأفيون الشعوب. استشرت دودة القز في الأمر فنصحني بأن أكون كبير الاشتراكيين إذا كنت حقًا أعشقها، أوأبتعد

بعواطفي المجروحة لأبحث عن حب جديد بلا ايديولوجيا.. وأضاف إنه اضطر في يوم من الأيام إلى الترنح ولبس الثياب المرقعة.. والسهر في قبور الأولياء.. لأنه عشق غادة التي تنتمي إلى إحدى طرق التصوف. ومر عليه عام كامل ظل يذهب فيه إلى أحد البيوت لغسيل الثياب وكيها، وكنس الحوش ورشه بالماء؛ لأن صاحبة ذلك البيت أعجبته وأوحت إليه بالشعر. لم أتذوق نصيحته، و لم أجد حرجًا في استشارة ماسح الأحذية الصديق أكوي شاويش.. فقال بلغة غاباته التي أعرفها:

– اعرض عليها الزواج وأنت تنظر عميقًا في عينيها، نحن نفعل ذلك إذا أردنا الزواج من امرأة نحبها، وغالبًا ما تقبل.

أعجبتني نصيحة الجنوبي ربما لغرابتها، أو ربما لأنها وافقت مزاجي.. رقدت في تلك الليلة مؤرقًا، أغفو وأستيقظ، وكم من مرة ارتديت ملابسي، طفت بحارات الحي الفقيرة أتعثر بحجر أو أهش على كلب.. ولفتت انتباهي في خيوط الفجر الأولى جملة كانت مكتوبة على الحائط المواجه لبيتي، و لم ألحظ وجودها أبدًا من قبل.. كانت مكتوبة بالفحم وبخط عريض متعرج، وكانت تقول: اشتراكيون حتى العظم.

كان موعدنا في بداية المساء، وكان أمامي نهار كامل من الشلل ورعشة القلب.. لا أدري كيف سأقضيه.. جملة واحدة فقط متبوعة بالنظر العميق في عينيها.. هل تتزوجيني يا حياة الحسن؟.. هذا ما سأفعله بالضبط.

وجدتها تنتظرني على مقعد قديم في المساحة الخضراء على شاطئ النيل، كان المساء غائما بعض الشيء.. ثمة عشاق متناثرون، وصبية يحملون علامات فرح طفولي، وثمة باخرة للشحن تعبر أمامي ببطء. وقفت حين لمحتني، واكتشفت وأنا أشد على يدها أن نعومة غزيرة كانت تلمسني، و لم أنتبه إليها في انفعال حفل المشردين ذلك.

جلست وجلست، انتظرت أن افتتح أنا الحوار، وانتظرت أن تفتتحه هي.. ويبدو أن أكثر من عشرين دقيقة مضت ونحن هكذا نتخاطب بصمت دون مفتتح كلامي.. نعم لقد كنا عاشقين بلا شك.. الفتاة التي تتطوع لأعمال فريدة وتتمرد على التقاليد وتصعد إلى المنصات مخاطبة الجموع ولا تعثر على كلمة في حضرتي.. هي عاشقة.. والمغني الذي ما ارتعش صوته أبدًا وهو يقف أمام المئات.. ولا يعثر على كلمة في حضرتها.. هو عاشق.. هذا مشجع للغاية.. إذن سأنتهج نهج الغابات.. أنظر عميقًا في عينيها وأمسها بصوتي:

- هل تتزوجينني يا حياة الحسن؟
- نعم.

قالتها هكذا سهلة وبسيطة وبلا أية رعشة في الشفتين.. ما أعظمك حقًّا يا أكوي شاويش.

-٣-

بدأت أستعد لفرحي الكبير، أو لأكون أكثر دقة، لفرحي الذي أحتاجه كرفيق شهي يعبر معي إلى سلطنة الطرب. تركت وظيفتي الرسمية التي كنت أقتات منها، وانتقلت من الغرفة الصغيرة التي وفرها لي دودة القز في بداية قدومي من الريف إلى بيت آخر واسع بعض الشيء، لكنه لا يزال يحمل بعضًا من سمات رقة الحال.. كان في حي (شجرة يعقوب) أحد الأحياء المتوسطة في معمارها والذي كان فيما مضى يقطنه عدد من يهود البلاد، قبل أن يهاجروا فيما بعد إلى دولتهم الوليدة.. كانت ثمة معابد مهدمة، وكتابات غاضبة بالفحم على الحوائط، وشوارع مردومة بالرمل والحصى. كان البيت مكونًا من غرفتيْن واسعتيْن مدهونتيْن بالأبيض، وصالة متوسطة الاتساع في الوسط، وحوش كبير معروش بشجر (اللبلاب) يصلح لاستضافة أصدقائي، ومحبي فني الذين بدأت أعدادهم تتكاثف. أستضيفهم من حين إلى آخر لقراءة انفعالاتهم، وسماع ألسنتهم تتحدث عن مجدي..أعتقد أن الفنان يطرب كثيرًا حين يجد من يصعد به إلى القمة. حين يتحدث فيصمت الآخرون، حين يمشي في الطرق، فيصافحه المارة باختلاف سحناتهم وأمزجتهم، وحين يستوقف سيارة للأجرة، فتتوقف له سيارات الأجرة المارة في الطريق كلها. رأيت دودة القز في مواقف اللمعان هذه، تتلقاه الوجوه باسمة، والأيدي مصافحة، ورأيت المغني صالح جفون أيضًا، وكان لمعانه فذًّا؛ لأن المحال التجارية كانت ترميه بالهدايا، وأبواب البيوت كانت تفتح، وتطل أمهات وجدات من الداخل لمعانقة وجهه. وأذكر أنني كنت أسير معه مرة في سوق الشمس القديمة، فاقترب منا شخص ملثم، أخرج من جيبه محفظة من الجلد قدمها للمغني قائلًا:

- آسف جدًا يا أستاذ.. لم أكن أعلم أنك صالح جفون.. هاك محفظتك التي نشلتها منك وأنت تدخل السوق.. وعندئذ فقط اكتشف المغني أن محفظته كانت قد اختفت بالفعل من جيبه دون أن يحس.

أثثت بيتي بالدفء اللذيذ أكثر مما أثثته بالخشب والستائر، وحددت موعد العرس بعد أن أعود مباشرة من رحلة فنية كنا أنا ودودة القز نزمع القيام بها إلى عدد من دول إفريقيا السوداء؛ بناء على دعوات ملحة جاءتنا من هناك. كانت بالطبع دعوات دسمة.. دعوات وولائم.. دعوات لا يستطيع أحد عاقل أن يرفضها. أحمد ذهب يغني خارج البلاد، وفي عواصم لم يكن يخطر على باله أن صيته قد لفها.. من أشكر الآن ؟ موهبتي أم رجلي التي انكسرت، أم الظروف كلها وهي مجندة لصالحي ؟. كان أكوي شاويش يساعدني في تأثيث البيت، وتنظيمه، يأتي بنخلة طفلة يغرسها في الحوش الكبير، أو وردة اصطناعية يلصقها في ركن، أو أجده أحيانًا معلقًا في السقف يدهن مساحة مقشرة. وقد أفادتني معرفته بالناس الذين يصادفهم ويعرفهم في الحصول على عدد من الكماليات بأسعار لا تصدق. وقد ظهر لي في تلك الأيام أهل لم أكن أعرفهم ولا أذكر أنني سمعت عنهم من قبل في أحاديث أسرتي.. كانوا خمس أسر بالتحديد، يقيمون في أحد أحياء العاصمة البعيدة، شماليين حتى في طريقة قدومهم وذهابهم، وتسخير عيونهم لامتصاص بيتي ومحتوياته، ويبدو أنهم هاجروا من الريف منذ مدة طويلة، وسكنوا العاصمة ساحبين معهم أي ذكر أو تاريخ قد يربطهم بقريتي البعيدة. ذلك اليوم جاءوني في زيارة مباغتة، اختنق لها البيت الصغير، سردوا على سمعي حكايات طويلة، وأنسابًا بلا حصر تنتهي بهم عند شجرة العائلة، وعندما عرفوا باقتراب موعد عرسي، رددوا جميعًا:

لا تحمل همًا يا أحمد.. نحن عائلتك التي ستزفك إلى عروسك.

والواقع أنني لم أكن أحمل همًّا، و لم تكن تشغلني زفة روتينية مملة تطوف بي في الشوارع متبوعة بالسابلة، كان كل ما يهمني هو تلك الحياة القابعة في قلبي والتي ستتجسد حقيقة بعد أيام فقط. شكرتهم على زيارتهم، وعلى حبلهم الذي وصلوه، وعلى عرضهم الذي قدموه لتبني مشروع الزفاف، لكنني للأسف الشديد نسيت كل شئ بعد ذلك، ولدرجة أنني لم أدعهم حتى لمشاركتي الفرح.

عدنا أنا ودودة القز من جولة إفريقيا منتفشين، غرسنا كلانا اسميْن راسخيْن لن يستطيع أي زمن مهما كان قويًا وصلدًا انتزاعهما من تربة الغرس تلك. أحمد ذهب وإبراهيم علي.. الثنائي الفني الرفيع.. الكلمة العذبة واللحن الطروب.. هكذا قيل في (غينيا بيساو).. في (كورت ديفوار).. في (إنجمينا) و إثيوبيا ودار السلام..وحتى في تلك الدولة النائية التي عثرنا فيها على الفريق الركن (صابر شرحبيل) رئيس البلاد المخلوع، منفيًا ومحبطًا وغائر الصدغيْن..يرتدي بدلة عسكرية عليها إضافات لم يخترعها الجيش بعد،و يعمل بائعًا لتماثيل الفخار والعاج الرخيصة، ويحكي لزبائنه من السياح الأوروبين والأمريكيين عن مجد تليد ينتظره مجددًا، إذا عثر فقط على طائرة مقاتلة تذهب به إلى بلاده.. كان السياح يضحكون بمتعة، يلتقطون صورًا شمسية تجمعهم به ويقولون.. الطائرة في انتظارك فخامة الرئيس.ويبدو أن فخامته كان ملمًّا بكل ما يجري في البلاد سياسيًا كان أو فنيًا أو رياضيًا؛ لأن فخامته قال مباشرة مخاطبًا دودة القز:

– ما أخبار فتاة عرب الشباقرة؟.. هل ما زلت تحبها؟

ثم التفت إليّ قائلًا:

– لو عدت مجددًا إلى حكم البلاد..فسأسجنك أنت وتلك المرأة الاشتراكية التي ستتزوجها.أنتم السبب في ما حدث لي.

ثم أضاف:

- (شقلب) التافه أضاع هدف الفوز لفريق الضواحي.. الفريق الأفضل طوال المباراة.. لن أرحمه إذا عدت..لن أرحمه.

وكان لدهشتنا الكبيرة يتحدث عن مباراة بين فريقي الضواحي والشعلة في دوري الدرجة الرابعة غير المعلن، وغير المذاع، والذي يقام على ملعب ترابي في حارة ضيقة وحي بلا اسم.

في (كورت ديفوار) أقامت لنا إحدى القبائل مأدبة رائعة، قالوا إن غناءنا يشبه تعاويذهم السحرية، و لم نفهم ماذا كانوا يقصدون، لكننا لبينا دعوتهم. كان الطقس إفريقيًا ماطرًا،وبساط من الخضرة يلتهم النظر.. في تلك المأدبة التقيت بسيدة من القبيلة ذاتها اسمها (فرنشيسكا)، امرأة مثقفة وحالمة، ولها اجتهادات رهيبة في تطوير ما يعرف (بموسيقى الصياح) حيث أسمعتني اسطوانة بها صبية يبكون ونساء يولولن، ورجال ينادون على حريمهم بعصبية.. قالت: من هذه المتناقضات.. أصنع موسيقى.. ما رأيك ؟ ،، و لم أعطها رأيًا في الحقيقة؛ لأنني لم أستوعب شيئًا. أيضًا التقيت بزائر فرنسي كان موجودًا بغرض السياحة.. كان اسمه (ديلان) قال إنه حفيد لصحفي اغتالته إحدى ثوراتنا الوطنية منذ قرن حين قدم لتغطيتها، وقال إنه يتذوق موسيقاي بالرغم من أنه لا يفهم كلمات الأغنية.. وإنه مستعد لمراسلتي وإقامة حفل كامل لي في باريس.. كان ذلك ـ في اعتقادي ـ أجمل ما حصدته من تلك الرحلة.. أن تدخل موسيقاي إلى قلب فرنسي، وفي زمن وجيز لم يتعد خمس أو ست سنوات منذ بدأت انطلاقتي الحقيقية.

كانت حياة الحسن تنتظرني على سلم الطائرة،ليس انتظار الوله الذي يمكن توقعه من امرأة غاب حبيبها وعاد، ولكن انتظار سيدة رزينة راقية الحس.. تستقبل واحدًا من نجوم الوطن، يعود من رحلة ناجحة كان فيها العلم الوطني الذي حلق بعيدًا.. كان برفقتها عدد من المثقفين، وعشاق فني وصحفي شاب من جريدة ثورتي، كان يبحث عن سبق صحفي كما قال.. آخ يا دودة القز.. لقد أصبحت أخبارنا سبقًا يأتي بالصحف إلى سلالم الطائرات.. إذن نحن في القمة.. قلتها.. وفوجئت بأن الرفيق الشاعر قالها أيضًا في اللحظة ذاتها.. أحمد ذهب.. نحن في القمة.

تزوجنا أنا وحياة الحسن في يوم صحو كان نظيفًا من الغبار والمطر، ومضاعفات طقس (السافنا) المتقلب دائمًا لا يستقر. كان عرسًا فخمًا بمقاييس ذلك الزمان.. حيث اتسعت الساحة التي أمام البيت لأكثر من ألف شخص، أكلوا وشربوا واستمتعوا.. وجاء جميع زملائي المغنين ليشاركوا بلا مقابل.كان دودة القز هو وكيلي في مراسم العقد واستقبال المهنئين وإكرامهم، برغم عدم تقبله الفكرة حين طرحتها عليه أول مرة.. الرجل الذي لا يحب الزواج ويعتبره جرثومة، لا يود الانغماس في طقوسه.. لكن حين قبل.. كان وكيلًا حقيقيًا أغناني عن أولئك الأهل الذين ظهروا فجأة واختفوا فجأة.

كنت في قمة النشوة بجانب عروسي الزاهية في ثوبها الأبيض، وشعرها المعقود بأشرطة بنفسجية،حين تذكرت شخصًا مهمًا لم أره يحوم حول طقوس الفرح منذ اشتعالها، ولا لمست له يدا جاءت تبارك كما لمست الأيادي الأخرى لمعارف وغرباء.. رجلًا كان لابد أن يكون حاضرًا.. ولكنه غاب.. أكوي شاويش.. أين ذهب الجنوبي في تلك اللحظة المهمة التي تعادل لحظة تعرفي إليه في عنبر الحوادث.. ولحظة انطلاقي في ليالي العاصمة وأفراحها.. ولحظة اقترابي من عرش الطرب.. أين أكوي شاويش؟ نهضت كالمجنون أبحث عنه.. أدقق في سحنات الحاضرين السمر، في الذين يحملون

لغة الغابات، متوقعًا سحنته أو لغته تكمن في مكان ما.. أخرجت دودة القز من حديث حار كان يجرب فيه بهارات جديدة من العشق مع امرأة شابة، سألته.. وكان لا يعرف.. ناديت آخرين لا يعرفونه أصلًا و لم يتذكروه.. خرجت دون وعي أنقب في حارات الفقر السحيقة.. وشوارع الظلمة الليلية.. وسط دهشات عديدة، ووسط فزع من جانب (حياتي) أن أكون قد مللت صحبتها في أول يوم وأهم يوم.. كان الجنوبي قد ذاب تمامًا.. أو امحى لا أدري.. قضيت شهر عسلي وأنا أبحث.. وشهورًا أخرى فيها عسل وفيها ملح،وأنا أبحث، وسنوات خصيبة وجدباء، وأنا أبحث..لكن اليد الزمردية التي دارت في قفل العاصمة في ذلك اليوم وفتحته كانت قد تلاشت.. ولسبب غريب لم أستطع أبدًا تفسيره.كنت أملك في بيتي صورة باهتة جمعتني به، التقطها لنا مصور هاوٍ في أحد الصباحات.. استخدمت هذه الصورة مرارًا.. في الصحف.. في الحارات الضيقة..في الشوارع الواسعة ولا فائدة.

الذي توقعته من حياتي.. حياة الحسن في رحلة بحثي عن الجنوبي، قد حدث بالفعل.. كان اهتمامها مضاعفا.. وظلت تزودني بآمال بلا أساس.. وأحلام ورؤى شاهدت فيها رفيقي مكسوًّا بالبياض، وشبعان يتجشأ، بعكس دودة القز الذي قال لي بصوت قاطع:

- أنت الآن أكبر مطرب في البلاد.. لماذا تبحث عن ماضٍ مظلم قد يضرك أكثر مما يفيدك؟.

وقد كان..حين بدأت أقلع عن تذكر الماضي..وأسير حثيث الخطى نحو المستقبل.

- من الذي اقترح تكوين أول اتحاد لشعراء الأغنية ومطربيها في البلاد؟..

أصوات عديدة طالبت بذلك.. أصوات قديمة وشابة.. وفي بدايتها.. كانوا يرون في تلك الرابطة حبلًا متينًا يدعم أواصر التعاون بين المبدعين، ومدرسة لضخ الدروس العملية لأجيال الفن القادمة.. إضافة إلى وجود قناة شرعية.. فيها تنبت الأغنية، ومنها تطل برأسها إلى الناس وفي دفاتر توثيقها تصان الحقوق.

- ومن الذي رشحني لرئاسة ذلك الاتحاد؟

كلهم.. أصدقائي وخصومي.. شعراء غنيت لهم، وشعراء لم تعجبني قصائدهم، فنانون سبقوني وفنانون أتوا بعدي..أولئك الذين كانوا في القمة وأنزلتهم، وأولئك الذين يطالعون قمتي بمغص، ويريدون هدها.. باختصار شديد.. الغناء الذي أجدته هو الذي غرسني في رئاسة ذلك الاتحاد الوليد.

في كم حفل غنيت حتى الآن؟.. لا أذكر، كم رحلة خارج نطاق الوطن قمت بها سفيرًا فارهًا للأغنية، وصديقًا حقيقيًا للسفراء ورؤساء بعض الدول؟.. لا أستطيع أن أحصي، وهل كانت حياة الحسن هي فعلًا حلمي الذي تعذبت به وبذلت الكثير من الجهد حتى أصافحه ؟ نعم كانت كذلك وأكثر من (كذلك) الحلم الذي لم ينقطع إيحاؤه أبدًا.. الحلم الذي زودني بالبنين والبنات.. والبيت المبدع الذي أخلو فيه إلى قلبي ووجداني.. وأخرج تلك الألحان التي ينتظرها الناس.. لا أعرف حتى الآن عدد الأغنيات التي غنيتها..كل ما أعرفه أنني غنيت وغنيت وأغني إلى الآن. ثم..

- من الذي سماني مطرب الملايين وسلطان الطرب.. وإمبراطور الغناء وفنان الشعوب الأول؟

إنهم شعبي الذي ربيته بافتتاني به.. ورباني بافتتانه بي.. شعبي الذي آذرته بملاحمي حين كانت بنادق العسكريين تقتنص صدره.. ونداءات حظر التجول تشل حركته واتزانه.. وساندني حين ضمتني السجون وطالت ليالي الأسر بي.. وهددني النفي.. شعبي الذي غنيت له هذه الزغرودة وزغاريد أخرى بلا حصر:

شعبي هوانك لن يكون.
ألحان مجدك تعتلي.
قممًا وتهدر كالجنون.
يا أخضر اليد.. يا جميلًا.
يخلب اللب ويحتل العيون.
شعبي خصامك لن يكون.
وبريشة الود السخي.
ولمسة الطل المعطر للغصون.
ستكون أجمل لوحة.
وتكون أحلى ما تكون.
شعبي أوانك قد وصل.
في ذبذبات الحكي.
في الدرب المشجر بالقبل.
أفرد جبينك لا تخف.
وانثر ورود الحب بستانًا وظل.
قد اصطفتك مروءة.
وأتاك من حزن أمل.
ورقصت رقصة عاشق.
من شوك أيام أطل.

شعبي أيا ملك الشعوب.
الأسمر الخمري.
تحت عمامة ونقاء ثوب.
الأخضر الزرعي..
في الشرق.. الشمال وفي الجنوب.
الواقف الأبدي في وجه الطغاة.
وفي الحروب.
المعتلي نهر النضارة.
شاخصًا عكس الغروب.

وكانت أفضل الأيام وأرقاها، تلك التي كانت تكرمني، وتمنحني الأوسمة والألقاب، ليس داخل البلاد فحسب، ولكن خارجها أيضًا.. خارجها القريب والبعيد،الأسود والأبيض، الراطن والمتحدث بلغتي، ولدرجة خيل إليَّ فيها أن الناس حين يودون أن يكسروا نمطية العيش التي يعيشونها، ينادون بتكريم (أحمد ذهب) ومنحه وسامًا، فتستجيب لهم عشرات الجهات..لكن كانت ثمة أيام ضارية أيضًا، أخالها تستلب الكثير مما جنيت.. تطعمه للرياح.. أيام كأيام شوك البداية في الريف وفي عنبر الكسور الرث، ولعل أكثرها ضراوة ذلك اليوم الذي مات فيه إبراهيم على.. دودة القز.الشاعر العظيم وراصف الحروف الذي رصف لي درب السلطنة حتى وصلت. لن أنسى دودة القز أبدًا، لن أنسى مفاتن وجهه التي كانت مؤطرة بجلال حتى وهو يحتضر، لن أنسى أغنيات الخضرة التي لحنتها له وبلغت ـ في مجملها ـ أكثر من سبعين أغنية. صحيح أنني غنيت من كلمات غيره عشرات الأغنيات، لكن كلماته كانت مجدا آخر.. هي الجمر حين يحرق.. هي الحرير حين ينعش.. هي كهرباء العشق التي تشحنني ولا تنقطع شحنتها، وصحيح أن أيامًا من الجفاء قامت بيننا..ربما بسبب كلمة أو سوء فهم، لكنه جفاء المطر الذي يغيب موسمًا ويأتي مواسم كثيرة.

كنا قد أصبنا بمرض السكر في وقت واحد تقريبًا، جاءني دودة القز في أحد الأيام يشكو من دوار بالرأس، وجفاف بالحلق، وغزارة في التبول، وفقدان شهية العاطفة الذي فوَّت عليه كثيرًا من القصائد بالرغم من وجود خاماتها كاملة حوله وأمام عينيه. قال: تصور يا ذهب أن (نجمة) مذيعة التلفزيون الرهيبة طلبت أن أكتب قصيدة عن عينيها و لم أستطع؟.. وجواهر المرفهة رشتني بعطر (كوكو) و لم تتحرك مشاعري؟.. ثم تهاوى على أحد المقاعد باكيًا.. كان شيئًا مدهشًا بحق؛ لأن أعراض مرضه ذلك، كانت ذاتها الأعراض التي أشكو منها منذ وقت، و لم أعرها اهتمامًا. كنت قد عزوتها إلى إفراطي في الاختلاط بأطفال الشوارع، الذين كانت (حياتي) الآن تحتضن أجيالًا جديدة منهم بعد أن شاخت أجيالهم القديمة، تستقدمهم أحيانًا إلى بيتنا الفخم ذي الطابقين والصالات الواسعة،الذي بنيناه على مزاجنا، وفرشناه على مزاجنا، تطعمهم وتسقيهم، وتجبرني برقتها الآمرة على ترديد ذلك المقطع القديم: (يلا امسكني.. يلا امسكني) وأنا أحتضنهم واحدًا بعد الآخر. كنت أغتاظ بشدة في البداية،أحمل غيظي إلى عودي بعد انصرافهم، أستفرغه في لحن حقيقي أو دندنات بلا معنى، ثم ما لبثت أن تأقلمت، أعددت ثيابًا خاصة مكونة من الصوف الثقيل، وقفازات اليدين، وطاقية على الرأس من قماش خشن. أرتدي تلك الملابس كلما سمعت ضجة شوارعية في الأسفل، أو صافحني ذلك الصوت الناعم مرددًا: تعال يا أحمد.. تعال لتمسك بهذه الأرواح الهائمة. الآن أطفال اليتم والتشرد في عرف زوجتي أرواح هائمة، وإمساكها واجب بيتي يوازي في أهميته واجبات أخرى في الحياة الروتينية.

قلت إن دودة القز جاء يشكو وبدأت أشكو أيضًا، ولا أدري أهي صدفة محضة أن نمرض بالداء ذاته، أم قدر أبى إلا أن نتشابه حتى في انحسار صحة البدن؟! ثنائي اللحن والكلمة.. ثنائي العذوبة والطرب، وثنائي مرض السكر اللعين؟ طمأنت دودة القز لأطمئن نفسي، ذكرته ب(صوفية أختر) تلك الآسيوية التي قدمت إلى البلاد في وفد أرسلته هيئة الأمم المتحدة لمتابعة الإفراج عن بعض سجناء الرأي، التقاها دودة القز لا

أدري صدفة أو عمدًا، وهام بعنقها واحدًا من هياماته الشاذة، لماذا عنقها بالتحديد؟.. المرأة التي كانت كلها إيحاء.. وكلها دوافع لكتابة القصيدة.. لماذا عنقها فقط ؟.. سألته في ذلك فأكد أنها عنق فقط..وأضاف محتدًا:

اكتب أنت عن باقيها..ودع لي العنق.

كانت أغنية (يا طويل الرقبة) التي ولدت بعد ذلك، واحدة من أكثر الأغنيات التي رددتها شعبية بين الناس، بالرغم من أنها كتبت بطريقة قديمة لم يكن دودة القز يكتب بها أبدًا.كانت أغنية ظامئة.. كما قال أحد النقاد.. وأغنية الميثولوجيا المحلية حين تعانق الجمال المستورد في بهاء تجليه.. كما قال ناقد آخر.. وللأسف لم أعرف ماذا كان يقصد:

لو بتعرف تسأل.
يا طويل الرقبة.
كنت خليت قلبك.
بالغرام هيمان.
إنت زول أفرنجي.
ولا نافر عابر.
ولا نسخة ريده.
جايه من تايوان.
مد رقبتك مده.
شد قوامك شده.
يا بليغ ومعطر.
تشبه الرمان.

عيدي لو مسيتك.
بالولف غطيتك..
فيك زاهية الرقبة.
وزاهرات أغصان.
خفف الأفرنجي.
وخل رقبتك تنجي.
روحي من أحزان.

والغريب في الأمر، أن كثيرا من الفتيات المحليات من ذوات الأعناق الطويلة، افتتن بهذه الأغنية، اعتبرنها تمجيدًا صريحًا لأعناقهن، متجاهلات ما ورد فيها عن لغة إفرنجية، وعن بلاد آسيوية اسمها (تايوان) كن يعرفن جيدًا حجم تجارتها، وبضائعها التي تغمر الأسواق.ذكرت (صوفية أختر) ورقبتها لدودة القز؛ حتى أفتح شهيته العاطفية المغلقة، لكنها لم تنفتح في ذلك اليوم، وظلت مغلقة لأشهر طويلة بعد ذلك، حتى بعد أن ذهبنا إلى الطبيب معًا، وطمأننا بأن مرض السكر لن يؤثر كثيرًا إذا ما تأقلمنا معه، وأقمنا معه صداقة قوية عمادها الحمية والاتزان، والبعد عن أي انفعال غير ضروري.كان دودة القز يصرخ.. أي انفعال يخصني هو ضروري.. أنا شاعر منفعل ولست ترزيًا أفصل القصيدة على ماكينة خياطة.

هذا بالضبط ما كان يؤ لم الشاعر العظيم.. لكن ما الذي كان يؤلمني أنا؟

الشيء ذاته.. الشيء ذاته..ألا أستطيع الغناء وأنا شعلة من الوجد المتقد تتحرك على المسرح، ألا أعيش القصيدة حرفًا حرفًا قبل أن ألحنها وأغنيها؟ وكانت خيانة لمرضنا حين اتفقنا أنا ودودة القز ألا نصادق مرض السكر أبدًا، وأن نظل فنانيْن مريضيْن لا صحيحيْن بلا فن.

أذكر ذاك اليوم الذي مات فيه جيدًا، المساء الضار والكئيب ، كنت مشاركًا في ندوة إقليمية عن التراث؛ باعتباري واحدًا من الذين نبشوا كثيرًا في أغنيات الجدات التي كانت تخرج في أزمنة الحروب والمجاعات، واستخرجوا منها كنوزًا يرددها الشارع الحديث الآن. كنت الوحيد الذي أحاضر بعودي بينما كان الآخرون أكاديميين صارمين، يحاضرون بالزي الرسمي، والصوت الممتلئ حبرًا، وآلة (البروجكتور) التي تضخم المشاهد على الحائط. فجأة اقتحم المكان عدد من أصدقائي الذين عاصروا جزءًا أو أجزاء متعددة من رحلتي الطويلة في طريق الفن. كانوا يحملون وجوهًا مفزوعة، ويرقات، دمع بدت على العيون جلية. اقترب أحدهم مني غير عابئ بظله الذي غطى مشهدًا علميًا، همس:

- تعالَ يا سلطان.. دودة القز يريدك.

سألته: وأين هو؟

- إنه يحتضر.

كان الرفيق العظيم راقدًا على ظهره في عنبر نظيف في أحد المستشفيات. شاحبًا ومبتلًا، وثمة ازرقاق ملحوظ حول شفتيه، كان يتنفس بجهد، لكن ظل ابتسامة كان يحوم حول شفتيه المزرقتين.

- تعالَ يا أحمد.

اقتربت.. أمسك بيدي في وهن، قربها من قلبه هامسًا:

- تأكد بنفسك يا سلطان الطرب.. لقد توقف.. لكن لا بأس، توجد قصيدة أخيرة بداخله.. اسمع:

باقي كلمة وقلبي يرحل.
حاضن اتراحو الغزيرة.
باقي دقة ريده واحدة
راح تكون ليكي الأخيرة.
يا جنون ماشفت زيو.
إترسم غلفني حيرة.
ياشمس تسطع وتكبر.
إلا فيني بقت صغيرة.
خلي لي دمعة مسافر.
يوم اروح تبكيني بيها.
خلي لي دفقة مشاعر.
يندفن إحساسي فيها.
خلي لي شارع معطر.
شمعة إتساند عليها.
متّ فيك لامن تعبت.
روحي طلعت هاكي ليها.

ثم أغمض عينيه.. وأسلم الروح دون أن تسنده شمعة، أو تسمعه حبيبة من أولئك المئات اللائي خلدهن شعرًا. وظلت قصيدته الأخيرة راكدة في ذهني لا أستطيع الاقتراب منها أبدًا.ولا حتى التفكير بوجودها، وأذكر أن عددًا من زملائي المطربين حاموا حول تلك القصيدة حين سمعوا بمفرداتها الباكية.. أرادوا أن يغنوا احتضار شاعر وهذيان ميت، لكنني لم أسمح لهم.. لم أسمح لهم أبدًا.

دفناه في مقبرة مجاورة للسكة الحديد، بناء على وصية تركها شفاهة لدى إحدى الممرضات. كانت مقبرة بعيدة ومهجورة، ولا تضم أية رفات لأحد من عائلته أو أصدقائه. ولا أدري لماذا كانت خياره الأخير.. لقد كان دودة القز غريبًا في حياته، وغريبًا حين مات. وفي حفل تأبينه الذي أقمناه بعد ذلك، وقفت ممسكًا بدفتره الكبير ذي الغلاف الجلدي الأسود والذي يضم كل ما كتبه.. أحس بلهب حارق يخرج من أحشائه، ويلسعني.. و لم أقل حرفًا واحدًا.

بعد وفاة دودة القز، اضطررت أن أكون صديقًا حميمًا لمرض السكر، أنفذ ما يطلبه مني، وامتنع عما يمنعني عنه، أستشيره حين تعجبني حلوى، أو طاجن من طواجن الدسم، ويلسعني ضميري بشدة حين يسألني عن عصير بارد شربته في تلذذ.

يوم مؤلم آخر مررت به، وأعاد إلى ذهني بداية الشوك، إنه اليوم الذي ذهبت فيه إلى قريتي البعيدة بعد غياب ثلاثين عامًا، ألغيت فيها تلك القرية من ذهني تمامًا.. كانت المناسبة افتتاح مدرسة ابتدائية تحمل اسمي، ودفعت تكاليف إنشائها كاملة، وكان لابد أن أفتتحها بنفسي. ترددت كثيرًا قبل الذهاب، لكن ضغطًا مكثفًا من الأصدقاء، قمع ترددي وغرسني في تلك الرحلة الشاقة. هناك تعثرت بنفر من أهلي الذين لا يزالون أحياء.. كان نفورهم واضحًا، وتلقيهم لهديتي التعليمية خاليًا من المبالاة. بالطبع قاسيت من ذلك، لكن تعثري بزهرة جعفر كان أقسى.. لقد التقيت غضونا وتجاعيد بائسة لامرأة لن تكون أبدًا تلك الزهرة جعفر، فتاة الحلم، حاضنة المسك وطعم البرتقال. لم تقفز أية ذكريات موالية لها أبدًا إلى ذهني، لم يلفني التوهان ولا تحرك لساني ليتذوق. والواقع أن رحلتي كانت قد أحبطت، افتتحت المدرسة بلا نفس، تركتهم ينحرون ثورًا على مدخلها، وفررت عائدًا إلى بريقي.

والآن.. ماذا عن ذلك الانهيار الذي حدث في الحفل الخيري الكبير؟ ماذا عن مضاعفاته التي تلت؟.

هذه هي الرواية.. فقط أريد الآذان التي تفقه.. القلب الذي يساعد بقليل من الخفقان.. والعيون التي تدمع لو جاءت سيرة الدمع.

-٤-

كنت في قيلولة عادية في بيتي أستعد لاستقبال ضيوف أعزاء في المساء، حين جاءت إحدى الخادمات تلهث. كانت زوجتي حياة الحسن في واحدة من مهماتها العنيفة؛ حيث سمعت بأخبار فيضان النهر الأخيرة، وحجم الخسائر التي أحدثها في بيوت الفقر، وممتلكاته وذهبت لتمد يدها، لا أدري يدها القديمة التي كانت تحتضن بها المحبطين، أم الجديدة التي تملك السيولة وشيكات المصارف ؟. كانت الخادمة تخبرني عن شخص غريب.. بل بالغ الغرابة، يلح في مقابلتي.. قالت إنه جنوبي عجوز، لا يبدو معجبًا من أولئك الذين يترددون على بيتي من حين إلى آخر، يبترون قيلولتي ونومي الليلي، يأتون حاملين إعجابًا سمجًا يدلقونه، وقصائد فقيرة يودون لو أغنيتها بصوتي، وربما جاء بعضهم بأعواد مشروخة يطالبونني بوزنها لهم. وأضافت الخادمة لاهثة أكثر: إن زائر القيلولة ذلك كان يتحدث عن مستشفى قديم، وعنبر للكسور، وركن للغناء اسمه ركن الذهب، وأخرج من جيبه خرقة ممزقة مسح بها باب بيتي دون إحساس بالغرابة أو همجية السلوك. انتفضت حين سمعت قول الخادمة، داهمتني بداية الشوك البعيدة، وأحسست بنغزاتها تتكاثف في جسدي كله، الحمير، الإبل، البواخر السلحفائية، القطار، السقطة، الجبائر.. أطفال التجويد.. وحين نهضت لاستقبال ذلك الزائر القادم بكل تلك النغزات، خيل إليّ إن ساقي اليمنى معلقة على ثقل حديدي. كان أكوي شاويش نفسه، النسخة المعدلة بريشة الزمن لماسح أحذية رث كان يملك مفتاحًا زمرديًا، فتح به بوابة العاصمة الأولى للمغني الريفي أحمد ذهب.. وكنت أنا على الجانب الآخر، النسخة المعدلة بريشة الرفاهية للمغني الريفي الذي زلت قدمه حين أعمته كهرباء العاصمة لأول مرة. اندفعت إليه واندفع إليّ، كنا عجوزيْن ماكريْن نحاول تجفيف عمريْن مبتليْن، ونعود مكسوريْن في عنبر الحوادث

ذلك أو مترنحيْن في ركن الذهب نغني معًا لأنجلينا عثمان وزهرة جعفر. كان أفراد طاقم الرفاهية الذي اقتنيته بعد أن أصبحت سلطانًا حقيقيًا للطرب، من خدم وسكرتيرين، وحملة أقلام دعائية، قد أصيبوا بالذهول، وخلتهم في هذه اللحظة ينقبون في التاريخ الذي عاصروه معي، يبحثون عن ذلك الغريب الذي أبهجتني زيارته، ولا يعثرون على شيء أبدًا.

جلس أكوي على أكثر المقاعد اتساعًا في مجلسي الوثير، طلب وجبة من حساء الطماطم، ومديدة الحلبة، وكوبًا من عصير المانجو مخلوطًا بقشره.. ثم أشعل سيجارة رخيصة أخرجها من جيبه، متجاهلًا سيجارة (الدنهيل) الفاخرة التي قدمتها له.

- أين كنت طوال هذه المدة أيها الجنوبي؟

سألته باهتمام حقيقي، وأنا الذي فقدت آثاره منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، عندما اختفى فجأة عن عالمي، وبالتحديد في يوم عرسي الذي شاركني في إعداده، ودون حتى أن يترك تهنئة.

- أين كنت ؟

وفي ذهني الذي بعثرته رؤيته عشرات المشاهد التي تصورتها عن قتيل في حرب أهلية أو ميت بسل الرئة في عنبر صدري أو أسير في أحد بيوت الأسر العديدة، متهمًا بمسح حذاء معارض.

لم يبد على أكوي أنه اهتم بسؤالي، لم تبد على وجهه علامات الصديق الذي سيجلس ساعات طويلة يحكي ما مضى.. كانت جلسته الآن متزحزحة، ورعشة في

أطراف ساقيه تشتعل وتنطفئ. جفف فمه الملوث بالمانجو بخرقته الممزقة، ثم قال:

- وعدتني من قبل بالغناء في عرسي، فهل أنت مستعد؟
- نعم مستعد.

قلتها ثم تجمدت في فمي، أي عرس بعد كل تلك السنوات؟ وأي زفاف لرجل مهدم لابد يعج جسده الآن بعشرات العلل.. تمعنت فيه جيدًا، رأيت وجهه صلدًا، وقد استقامت جلسته الآن على المقعد الوثير كأنه بالضبط في جلسة زفاف.. لكن الفضول الإنساني لن يذعن:

- وهل هي المرة الأولى لك في الزواج؟
- لا.. ولكنها المرة الأولى التي ستفي لي فيها بوعدك.
- أنا مستعد.
- إذن عرسي يوم الخميس.. في ساحة الشهداء، إنه الحفل الخيري الذي اعتذرت عنه من قبل.

نهض أكوي شاويش واقفًا وسط ذهولي المباغت، مشى إلى الباب بمشية ثلاثيني واثق، ثم اختفى قبل أن يلحق به أحد من حاشيتي المرفهة.

قضيت هذه القيلولة مشوشًا، أحس برائحة عطر غامض ينبع من مكان ما، ولا أشمها، وأتمنى لو غير الجنوبي خطته، وعاد مجددًا ليجلس جلسة الصديق التي ربما اشتملت على ثغرات أستطيع أن ألجها وأكافئه من خلالها. لماذا غاب غيابه الطويل ذلك؟ ولماذا اكتفى بمسألة العرس الخيري دون أن يسأل عن ثمن مرتفع لمفتاح الزمرد الذي فتح لي به بوابة العاصمة الأولى حين كنت أقف على أعتابها تائهًا، ومشردًا، وبلا

مفاتيح؟ ولماذا ذهب قبل أن نبكي معًا دودة القز،الذي كان صديقه قبل أن يكون صديقي، تذكرت فجأة أنني لم أسأل لا أكوي ولا دودة القز، عن سر تلك الصداقة التي جمعتهما، لا أظنها صداقة ورنيش يدهن على حذاء متسخ في شارع ضاج أو نهار حار، ولكنها أعمق من ذلك كثيرًا. تلك التي تجئ بشاعر عظيم حتى مرقدي. الآن مات شاعر (الشكوى) حاضنًا ذلك السر، واختفى ماسح الأحذية ببقاياه.

ساحة الشهداء.. حفل الأيتام والأرامل..ضحايا الحرب التي لا تخمد ولا ترحم، عرس الجنوبي الذي وعدته بإحيائه، ولابد أن أفي بوعدي.

وجدتني (حياة الحسن) حين عادت من تقصي أخبار الفيضان، متكئًا على جانبي الأيسر أمرر بيدي على بطني، أحاول تهدئة مصران غليظ انتفخ فجأة.جاءتني بقدح من النعناع، تجرعته دون اعتقاد في نفعه، وجلست إلى جانبي، تطلعت إلى عيني كما كانت تفعل في أيامنا الخوالي، ذلك التطلع الفريد الذي يشد من داخلي الكثير من التوتر، يجعلني حالة مستقرة، ولغة تحكي، وربما فراغًا مفضوحًا بلا ستر.. وقد كان، فقد نزفت قصة الجنوبي كلها. وقصة الحفل الخيري الذي لم تكن (حياتي) تعلم به.. لقد أخفيتها عنها حتى لا أجبر على الغناء مستنشقًا ملل تلك الحفلات التي كانت زوجتي للأسف الشديد تعشقها حتى الجنون. نهضت حياة من جلستها باسمة، اتصلت بجهة ما.. وسمعتها تعلن موافقة المطرب أحمد ذهب على الغناء في الحفل الخيري.

كانت الصدفة الغريبة في الأمر، أنني في ذلك اليوم بالذات، كنت قد وجهت دعوة العشاء التي أقيمها سنويًا في بيتي لمن أسميهم ب(لائحة الأوائل)، أي أولئك الذين وضعوا أول بصمات على حياتي بعد أن قدمت إلى العاصمة، وكنت قد ألغيت منها اسم الجنوبي أكوي شاويش باعتباره مفقودًا، واسم إبراهيم علي - دودة القز،

بوفاته، وبقي في اللائحة خمسة آخرون يضجون طرافة وتناقضًا.. (جبرة) الحلاق، أول من قص شعري في العاصمة، حين كان لابد من قصه.. و(جبر الله) متعهد الحفلات البيروقراطي الذي تعهد بأول حفل لصالحي، و(جكسا الحبوب) أول من صعد على مسرح الغناء ليرقص على أنغام صوتي، ويأتي بعد ذلك رابع طريف.. إنه (دنقا) ولد الحواري الضيقة، الذي كان أول من قذفني بثمرة طماطم في أثناء حفل عرسي في أحد الأندية، ثم تأتي (السرة السايكوبواتية) التي كانت أول إنسان غير عاقل يتذوق غنائي، ويطالبني بثمن المهدئات التي كانت تستهلك منها الكثير. لقد اعتدت على هذا الخليط المتنافر بشكل لا يصدق، كونت معه صداقة حذرة، وكنت أسارع إلى دعوته كل عام، وكان أعضاء تلك اللائحة بدورهم يصادقونني بحذر، يأتون ليأكلوا ويشربوا ويضحكوا، ويستعيدوا ذكرياتهم معي.. كان شعرك ريفيًا يفتقر إلى زيوت الترطيب.. يقول جبرة.. كنت خائفًا ألا يحضر إلى حفلك أحد.. يقول جبر الله.. كانت ثمرة الطماطم الوحيدة التي بحوزتي وكنت جائعًا.. يضحك ولد الحواري، ويمد يده إلى المائدة يتناول شرائح الطماطم المقطعة بفن، يلتهمها. ومن مقعدها البعيد على المائدة الأرستقراطية، تنهض السرة، تتحرك بدوافع القلق السايكوباتي.. ثم تبدأ في الغناء.

الآن [illegible] شيء معد لاستقبال ذلك الخليط المتنافر.. الهدوء الذي لابد من توفره في البيت، الأكل الذي يحبونه، وبذور الضحكات التي سيضحكونها.. وأيضًا مساحة السماع التي يحتاجونها ليحكوا.. لكن لا مزاج لدي لكل ذلك.. سألغي تلك الدعوة اليوم، وقد ألغيها إلى الأبد. هكذا استقر رأيي.. أخبرت طاقمي.. لا تفتحوا بابي.. لا تفتحوا لأحد.

الخميس المنهار يأتي أخيرًا، ساحة الشهداء مزينة بالكهارب الملونة، ومحاطة بسور عريض من القماش الأخضر، يحرسه عسكريون جامدون، يهشون التطفل، ويمنعون لغة التسلق أن ترطن في ذلك اليوم. كان الطقس (نوفمبريًا) مرحًا، والمسرح الذي

أقيم في وسط الساحة يبدو منهكًا وقد تسلخت أحشاؤه، وتناثر طلاؤه الذي كان ورديًا فاتحًا. وقد لفت نظري وأنا أقترب من مدخل الساحة برفقة حاشيتي وأعضاء فرقتي الموسيقية أن تدافعًا كبيرًا يحدث، وأصوات مختلفة تصيح وكان ثمة حديث عن نفاد التذاكر، وحديث آخر مضاد عن توفرها في أيدي السماسرة والمتلاعبين بمزاج الشعب، فقط بسعر أغلى. لن أتحدث عن ذلك الزهو الذي أصابني ولابد قد أصاب زملائي المشاركين في الحفل ممن أتوا قبلي، وحتمًا سيصيب الذين يأتون بعدي، في مثل تلك الكثافة الجماهيرية، تلعب النفس الفنانة دورها بإتقان، ويحس المطرب بيقين غريب أن هؤلاء الناس ما أتوا إلا من أجله فقط. لم يلحظ أحد دخولي الذي كان نشطًا وسريعًا لم يدل أبدًا على لحظة انهيار قادمة. بالطبع لم يكن أكوي موجودًا في (عرسه) وحتى لو وجد لم أكن لألحظه ما لم يأت متسربًا من بين تلك الكتل لتحيتي. على الصفوف الأمامية كانت توجد كراس واسعة ومكسوة بالمخمل، عليها رجال معممون ومتفرنجون، ونساء بعضهن مشتعل أناقة، وبعضهن منطفئ. أخذت أردد في ذهني كلمات بعض الأغاني التي غنيتها للوطن في مختلف أزمنته ومحنه، واخترت أن أبدأ بأغنية عجائب التي كانت عجائب بالفعل.. أو كما قيل في حينها.. الأغنية التي بكى حين سمعها الرئيس المخلوع أكثر من بكائه على خلعه. صعدت إلى المسرح أحملها في لساني وقلبي ودخلت فيها بحواسي كلها حين بدأت الفرقة الموسيقية في عزفها.

كنا كثير بنحبك نحنا.

لما تمر في الشارع كاسح.

نهتف نصرخ.. يا قائدنا.

ولما تقفل سوق الفقرا.

وتمشي مدرع فوق عيشتنا.

ولما أواخر الليل تتفنن.

ترسل صوتك وتكاشفنا.
والله عجائب يا قائدنا.
كنت فقيه ومفكر عاتي.
وشاعر عالي وكاتب قصة.
وكنت ملحن ألحان مجدك.
سائق عربة.. معلم حصة.
وكنت أبونا واخونا وزولنا.
روح الجد المابتتوصى.
والله عجائب ياقائدنا.
خلاص انهرت...

تغير إيقاع الموسيقى، أو انكسرت الأغنية كما يقول الموسيقيون، وسط هتاف الجماهير المشتعلة، الآن تأتي أوصاف ذلك البربري في لحظة انهياره، كما تخيلها شاعر الأغنية، فتحت فمي لأعدد درجات هذا الانهيار، قلت بيتين أو ثلاثة، ثم سقطت مظلم العينين وغزير العرق.

فتحت عيني ببطء، أجلتهما في ذلك المكان الذي يبدو أنهم نقلوني إليه، كنت راقدًا في غرفة مستطيلة، مزدحمة بالأسلاك والأضواء، والحركة الدائبة لممرضين نشطين. في يدي اليمنى عرق مبقور يتصل بمحلول معلق، وفي اليسرى جهاز لقياس ضغط الدم متوقف عند قراءة معينة. كان ثمة قناع على فمي يضخ هواء دافئًا، وفي قدمي إحساس شوك. تذكرت لحظة السقوط وجفاف الريق، وخفت أن أكون سلطانًا مشلولًا للطرب يدير مقاليد الغناء من مقعد متحرك. انتفضت من الداخل، لكن انتفاضي لم يسطع على الجلد أكثر من رعشات قليلة. اختبرت نحنحة المغنين الكلاسيكية في حلقي، وكانت تعمل، جربت صوتي كله في كلمة بلا معنى، وكان يعمل هو الآخر..

حتى الآن لا بأس.. هززت رأسي، فاهتز، وحواجبي، فارتفعت وانخفضت، أدخلت أنفي في مغامرة للشم المكثف، فشم حتى رائحة تبول خارج الأسوار. أرخيت أذني حتى آخرهما فالتقطتا أصواتًا متداخلة، لكنها مسموعة. إذن كان نصفي المبدع يعمل بكفاية، ولا يهم في الوقت الحاضر أن أعرف ما جرى لنصفي الآخر الذي لا يعمل في الفن. فجأة سمعت صوتًا دافئًا يقول:

- الحمد لله على سلامتك يا سلطان.. أنت في العناية المركزة.

حركت عيني في اتجاه الصوت، وكان ينبع من وجه لا ينقصه سوى أن يعود دودة القز من سفره الطويل، ليرسمه في قصيدة، وأن أجلس في ركني الفاخر في منزلي، أرسم القصيدة لحنًا، وأن أقف في مكاني المفضل، مدرج الجامعة.. لأغرس اللحن في الوجدان. وددت أن أقول تلك الخاطرة الغريبة لصاحبة الوجه.. قلتها بالفعل، وكانت ابتسامة حتى دودة القز نفسه لا يستطيع كتابتها. كانت بالطبع مرتي الأولى أن أوجد في ذلك المكان الخطير، لكن لا بأس من وجودي ماداموا يكحلونه بمثل تلك الوجوه الغضة، ويزرعون فيه أزهار البنفسج والغاردينيا. ابتسمت في وهن، وسألت الممرضة ليس عن مرضي، أو حالتي الصحية إن كانت مستقرة أم متدهورة؟.. ولكن عن اسمها..

- كوثر.

قالته وكان كوثرًا.. نهرًا حقيقيًا من عسل.

- هل تتزوجين من مريض مهدم يا كوثر؟

أضفت مازحًا.

- ليس أي مريض بالطبع، ولكن سلطان الطرب.. ممكن.

ردت ضاحكة، وهرولت خارجة من الغرفة..لا أدري لتبث استيقاظي لأطبائي المعالجين، أم خوفًا من تقدم اللغة بيني وبينها إلى ما هو أعمق؟! مهما يكن فقد شعرت بارتياح ما.. والحسان مهما كذبن أو جاملن.. فإن في كذبهن نسائم من هواء رطب.

الآن حولي أكثر من خمسة أطباء، بعضهم التقيته من قبل، وبعضهم التقيت باسمه أو صورته في مكان ما، كانوا يفحصونني بدقة دون التفات إلى شهرتي أو مكانتي الرفيعة، ولدرجة أحسست معها أنني قد أكون مريضًا آخر غير أحمد ذهب.. إمبراطور الغناء.اقتربوا من قلبي ورئتي، وكتفيَّ، وأجزائي السرية، وتأملوا عددًا من التحاليل وصور الأشعة، و لم يخطر ببالهم أبدًا أن يلقوا بنظرة إلى حلقي حيث يعيش ذلك الصوت الزمردي.. في النهاية قال أحدهم وكان أشيب جاد الملامح:

- وضعك الصحي مستقر تمامًا.. يا ذهب..سيطرنا على السكر وضغط الدم، لكن المشكلة في كليتيْك.
- ماذا في كليتي؟

سألت في توجس.

- لقد تعطلتا عن العمل.

كان خبرًا متوقعًا لي أن يتعطل جزء من تكويني أو أموت في مثل هذا العمر، بالرغم من أنني عقدت تلك الصداقة الوطيدة بمرض السكر، بعد أن مات دودة القز، لكن تلقيه لابد أن يحدث الصدمة..أن تكون شهيرًا، ومقتدرًا، وتملك مزاجًا مبدعًا، وفي الوقت ذاته، لا تستطيع أن ترشف رشفة من بن. أن تكون خبيرًا في التذوق وموزعًا في الموائد، ولا تستطيع أن تتذوق كعكة، وأن تلغي من حياتك عادات الخيانة كلها.. أو بهارات الفن كما أسميها..شربت الصدمة كلها ثم استفرغتها دفعة واحدة، قلت لهم بصوتي الذي لا يزال واهنا:

- ثم؟
- رحلة علاج طويلة لابد أن تنتهي بزرع كلية.. لا تيأس.. رجل مثلك يجب ألا ييأس.

رجل مثلي يجب ألا ييأس.. نعم، لقد كانوا على حق..سأستدعي كل غطرسة تعيش في داخلي، أحارب بها اليأس.. وأقول بلغتها المترفعة.. ليس من أجلي ولكن من أجل شعبي الذي ربيته على التذوق. قضيت ذلك النهار وكثيرًا من النهارات التي تلته، وبالرغم من التفاف أسرتي كلها حولي، وخروجي من العناية المكثفة، شاردًا أفكر في تلك الزراعة الرهيبة.. كنا في ريفنا البعيد نزرع القمح والذرة والبصل والليمون، وحتى تمر المدينة ذا النكهة الفذة، نغرف من النهر لنسقي زراعتنا. لكنهم يتحدثون عن كلية يزرعونها في جسد، ترى كيف يروونها حتى تنضج؟.. لقد جلب لي بعض الزوار صحفًا متنوعة، بعضها صادر داخل الوطن، وبعضها خارجه.وكانت كلها تتحدث عن سقوط الذهب في بورصة القصدير، وانهيار الدولار في مسرح العملة المحلية، ويبدو أن أقلامًا معادية لي قد اندست وسط تلك التغطية الفوضوية لسقوطي؛ حيث تحدثت بعض المقالات عن تكبري واستعلائي، وحضوري إلى حفل خيري بسيط، أرتدي حذاء من إنتاج (لونج)، وبدلة حريرية من تفصيل (آن كريستين)، وأنني لم أبدأ الغناء إلا بعد أن تحققت من محتويات ذلك الظرف الكبير الذي يحمل ختمًا حكوميًا.

كان ذلك افتراء كبيرًا؛ لأنني ببساطة شديدة لم أسمع يومًا بمنتج أحذية اسمه (لونغ) ولا ترزية للبدل اسمها (آن كريستين)،وكنت في ذلك الحفل بالذات أرتدي حذاء قديمًا تم تلميعه بشدة، وبدلة عادية كانت من تفصيل (تنقو)، أحد الترزية المحليين ذوي الشهرة المتوسطة.

في البداية كانت تعاسات الغسيل الدموي التي وجب أن أرضخ لها ثلاث مرات أسبوعيًّا، هي ما أرهقني.. لم أتصور أبدًا أن أقضي نهار الكسل والتأمل الذي تعودته طيلة أربعين عامًا، أو ليل المودة الذي أنجز فيه وأحصد، صريعًا تحت ماكينة بلا قلب. تلحس دمي وتتقيؤه، وأنا أراقب أنيابها وأتوجس.. متى سأكسل وأتأمل إذن؟، متى سألحن وأغني وأظل موجودًا على عرش سلطنتي، ومرصودًا من قبل معجبي العديدين في داخل الوطن وخارجه؟ أولئك الذين كانوا مستعدين لتلوين الشوارع التي أعبرها، وإنفاد التذاكر من المسارح التي أغني فيها.. وأيضًا أتباعي حتى لو غنيت في عرس الصيني (تسو سونغ).. في حي (الماركتنج) في (تشنغهاي).. نقلت إحباطي كاملًا إلى أطبائي المعالجين، إلى أفراد عائلتي، وكدت أبثه في مقابلة إذاعية معي بعد تحسن حالتي، لكنني خفت من عقارب في الخفاء قد تلدغ، وثعابين تزحف في قاع عرشي، قد تصعد، وخفت أكثر من أباطرة خلعتهم، أن يتلملموا من جديد؛ ليخلعوني، خاصة أنني سمعت بأن زميلي المخضرم (صالح جفون) يستعد لطرح كاسيت جديد.هكذا أبقيت صوت الحوار ثابتًا، وتفهت من خطورة مرضي بشدة، إلى درجة أن مذيعة الحلقة ظنتني مريضا بإنفلونزا عادية ما تلبث أن تنقشع.سلمت الجراحين يدي اليسرى ووعيي حتى ينشئوا ذلك التواصل الحميم بين وريدي وشرياني اللذين سيتبادلان الدم، سلمتهم ابتسامة أيضًا وهم يحقنونني، وسلمتهم الإرادة الحمقاء والوقحة، أن يغسلوا منكرات الدم في كل شبر في جسدي، على راحتهم. كانت (حياة الحسن) هي من سألت عن إمكانية زراعة الكلى لزوج أضنته المعاناة، وكان ذلك بعد أكثر من عام أنفقته تحت الليف والصابون الميكانيكي..فلتر الدم.. ما أقسى ذلك حقيقة، لم ألحن سوى أغنيتيْن يتيمتيْن كانتا إشعارًا لطيفًا بأنني ما زلت ذهبًا ومن ذهب.. لم أغنِ سوى في أربع حفلات جماهيرية، وكنت خائفًا في كل مرة من انهيار مشابه لذلك الذي حدث في الحفل الخيري وعمدني فاشلًا كلويًّا، سميت ذلك العام عام القحط، والتقيت فيه بمئات يحملون بذور القحط ذاتها، وحصاد القحط ذاته، كان فيهم مسنون يتنفسون بأعمار مشابهة لعمري المديد وخيانات مشابهة لخيانتي لمرض السكر، وشباب

يتنفسون بنصف عمري وخيانات لأمراض أخرى، وأيضًا أطفال ولدوا وجرثومة الفشل تكمن في صراخ ميلادهم.وكان من محاسن الصدف أو مساوئها لا أدري، أنني التقيت بشاعر مغمور أفشلته صبغة الشعر حين تجرعها في يوم عرس محبوبته وكان يستمع إلى مقطع من إحدى أغنياتي تقول كلماته:

اليوم راح أسيب دنياك.
متل ما سبت دنيايا.
واليوم راح أسوي عينيك.
متل بكتني.. يكايه.
أنا مسافر بعيد عنك.
أفتش لي وطن غايه.

كان دودة القز حين كتب تلك الأغنية،عابثًا ولاهيًا، يقفز من عيون إلى عيون، ومن وطن حلو إلى وطن أحلى، لكن المغمور فهمها سمًّا زعافًا حشا به حلقه.. ولم يمت. هذا الشاعر الذي مات بالفعل بعد ذلك بعام فقط، كان هو صاحب تلكما القصيدتيْن اليتيمتيْن اللتيْن أشرت إليهما بإشراق.ولا أنسى أبدًا حين اصطحبني في يوم من الأيام إلى بيته الكائن في أحد الأحياء المتوسطة، لم أصدق نفسي حين عثرت على جنة فرشت بالزهور والمخمل وقصائد الشعر؛ انتظارًا لتلك المحبوبة التي ذهبت ولم تعد.

أتذكر أيضًا اللواء (سعد منصور) الذي كان قائدًا لأحد الأسلحة المهمة، وأقيل من منصبه بعد اتهامه بالتعاطف مع انقلابيين كانوا يسعون لتقويض ركائز الحكم. ولا أدري أهو شريان انتفخ، أم سكر جبار أصابه وعمده مثلنا فاشلًا كلويًّا تحت ذلك الليف والصابون الميكانيكي.كان أرقى عسكري أصادفه في حياتي، وجهه راقٍ ويداه راقيتان، وهيئته ـ في مجملها ـ كانت هيئة رئيس. وفكرت في نفسي.. ليته كان انقلابيًّا

بالفعل وليته نجح، حتى يعم ذلك الرقي مساحات الوطن.اللواء منصور أيضًا مات، قال لي في أحد الأيام إن نداءات متواصلة تجيئه من زملاء مهنة وأصدقاء أعدموا منذ أكثر من عشرين عاما، كانوا يصفون مساكنهم وحدائق لهوهم، وأنهار العسل التي يغرفون منها.. قال لا أستطيع الانتظار أكثر.. أنا ذاهب..وكانت حسرة كبيرة أن أرى سرير غسيله فارغًا، والماكينة التي تعودت على غرف دمه هادئة.

الطفل (بكري) أو (باكو) كما كانت تلقبه عائلته،هو من كان يزيد في إعيائنا، ويجر الدموع إلى عيوننا جرًا، كان شقيًا برغم جلافة الغسيل ونوبات القيء، ووصايا أمه بأن يظل ساكنًا، عبقريًا في رصد الأعداد وحساب أعمار المرضى،وتأليف قصص غريبة عن الجن والسحرة وأسود الغابات، لا أدري كيف كانت ترد إلى ذهنه الصغير. وأذكر في يوم من الأيام أنه سألني:

لماذا لا تغني للأطفال البريئين يا جدو؟

كانت (جدو) تلك بمثابة معول جبار يمكن أن يهدم معنويات (ذهب) المغني، لو كانت في حفل عام أو شارع مبهرج وسط غيد مكحلات بكحل الصبا، لكن في عنبر الغسيل الكلوي ومن باكو لا بأس.. حقيقة كان سؤاله منطقيًا..السؤال الذي لم تسألني إياه الصحافة وأجهزة التلميع الأخرى طيلة أربعين عامًا.. تخللتها أعياد للطفولة، والكشافة، ودورات مدرسية، مع الوضع في الاعتبار أن أغنية المشردين تلك التي كانت شركًا لاصطياد (حياتي) لن تكون أبدًا أغنية لأطفال بريئين. لم أستطع أن أرد عليه بمنطقه، لكنني وعدته أن يسمع قريبًا أغنية اسمها عالم (باكو)، سأغنيها خصيصًا من أجله بعد أن يكتبها واحد من الشعراء المتمكنين، وكنت جادًا، لكن الشعراء لم يكونوا جادين، ولم أعثر على شاعر واحد يملك مظلة الهبوط من عيون سوداء ناعسة إلى عالم باكو اللذيذ والممتع.

في اليوم الذي أخذوا فيه باكو لتحضيره لزراعة الكلى، بعد أن عثروا على كلية مطابقة في أحشاء إحدى قريباته، فرحنا كثيرًا، وحزنا كثيرًا أيضًا. فرحنا؛ لأن معاناة ذلك الولد توشك أن تنتهي، وحزنا؛ لأن النهاية لم تكن معروفة الاتجاه..وفي اليوم الذي زرعوه، ونجحت الزراعة. ألغيت آلامي كلها، وذهبت مسرعًا إلى زيارته، كنت أحمل عودي المزركش، وانفعالاتي القديمة، وأغنية جديدة اسمها (عالم باكو) كتبتها بنفسي وبإحساس غريب استلفته من روح (دودة القز) الرائعة التي لم تنقطع أبدًا عن الرفرفة حولي.

باكو الآن في الصف الرابع الابتدائي، ولد ناضج ومتفتح، وشهير أيضًا، يصادق محبطي فشل الكلى كلهم، يبحث عنهم في العنابر الرثة والطرق وتحت الليف الميكانيكي، ولا يعانقهم إلا وابتسامة تزين وجهه، وباقة من الزهور تسبق يده في المصافحة.

لن أتحدث كثيرًا عن أولئك (الكوثرات) اللائي كن يعطرن مساحة الغسيل الجافة برونقهن ونظراتهن المخملية، وأعني بهن أولئك الممرضات اللائى ينتمين إلى وجه (كوثر) ممرضة العناية المكثفة التي استيقظت على حفيف أنفاسها بعد انهياري العظيم. لن أتحدث عن (أمينة) ولا (مها) ولا (مزاهر) ذات الشعر الحريري التي عرضت عليَّ كليتها وكبدها، وطحالها أيضًا لو كنت أقبل بهذه الهدايا من ممرضة.

قلت إن حياة الحسن ابتدأت تسأل عن زراعة الكلى، و لم يكن بالسؤال المحلي ذي الإجابة المحلية، ولكن السؤال العالمي ذي الإجابة العالمية،بالسؤال الذي سيدق أبواب مستشفيات الوطن أولًا، ثم تحمله التقنيات ووسائل الاتصال إلى جميع مستشفيات العالم التي بها مزارعون محترفون لمثل ذلك النبات البشري..ثم لتحصد هذه الردود تباعًا:

في لندن.. ممكن ولكن النتيجة غير مضمونة.
في باريس ممكن.. ولكن النتيجة غير مضمونة أيضًا..
في روما وميونيخ وواشنطن..

ويعود السؤال محبطًا، لكن إحباطه ما يلبث أن ينشرح؛ حين يدق أحد جراحي الوطن صدره ويقول: ممكن والنتيجة مضمونة، فقط نحتاج إلى متبرع من جيل الشباب، يرضى بأن تقتلع شتلة الكلية من أحشائه لتغرس في أحشائي. ذلك اليوم ابتهجت بشدة، تدحرجت من مرارة حاضري إلى مستقبل نضر توقعته.. لن يكون من الصعب الحصول على شتلة شابة والوطن كله يتمنى أن يختلط دمه بدم الإمبراطور أحمد ذهب. .إذن فليسألوا، وسيروا كم كلية سوف تأتي راكضة، وكم مصرانًا غليظًا سوف يرق، وكم مستشفى سوف يُغلق عنابره من شدة التدافع، تمامًا مثلما يحدث في حفلاتي التي أقيمها. .وقد يضطر منظمو حملة التبرع إلى طرد الكثيرين أو تأجيلهم بسبب ضغط العمل.

-٥-

لا أدري من الذي اقترح عنوان هذه الحملة المكثفة، التي انطلقت من أجل العثور على كلية شابة لغرسها في أحشائي، وجاءت بأكلها سريعًا إذا ما قورنت بتلك التي أطلقت من قبل في هذا الصدد، ولأشخاص أمثال (تايه) بائعة الكسرة الشهيرة في سوق (الرواكيب)،و(جلمبو) لاعب كرة القدم الذي فشل من جرعة مضاعفة من علاج الملاريا، والعدَّاء (تاتاي) الذي أصيب بتلف في أعضائه كلها في أثناء سهرة ماجنة، وكان في حاجة إلى كلية، وكبد، ومعنويات جديدة.

استثمر في الذهب.

ياله من اسم دعائي فخم، قد يجر مئات الآلاف ممن سمعوا بأحمد ذهب؛ وممن لم يسمعوا به، للاصطفاف طوابير شرسة لاستثمار أي شيء في الذهب.

استثمر في الذهب.

رددتها مكبرات الصوت من عربات متسخة في الشوارع، نشرتها اثنتا عشرة صحيفة محلية من أصل خمس عشرة صحيفة كذابة في البلاد؛ وترجمها بعض المراسلين العاملين في البلاد، لتنشر باللغات الحية في لندن وروما وباريس، وبعض عواصم إفريقيا السمراء، وأيضًا في الصين البعيدة.

استثمر في الذهب.

قطعت الفضائيات برامج مثل (ذاكرة الشعوب)، و ديوان القصيد) و(على الهوا سوا) و(هلا شو)، و(صحتك في مطبخك)، وجمدت دراما التلف واللوعان مشاهد ساخنة بتبريد عاجل؛ لتبث الحملة الدعائية. كانت الصور التي نشرت تمثلني جالسًا بإعياء أمام صالة أنيقة، حولي عشرات المصاغ والأساور، وقلائد العنق، وعدد من الفتيات الجميلات يلتهمنني بعيونهن، زاهدات عن التهام الذهب، ويشرن بأصابع الحناء و(المانيكير) إليَّ، لا إلى هذه الزينة الفريدة التي تتكوم حولي. لم يكن ـ في الحقيقة ـ مشهدًا قمت بأدائه،ولا هذه البذلة التي ظهرت بها كانت من بذلاتي التي أتذكرها، حتى الإعياء المنقوش في الوجه لم يكن إعيائي.. لكنني باركت،وسكت، أريد تلك الكلية ولا شيء آخر.

كان جزءًا من هذه الدعاية الكاسحة، سيناريو سخيف، وضعه مخرج شاب عاد لتوه من بعثة في (كازاخستان) ووجد السيناريو مباركة جليلة من زوجتي حياة الحسن راعية التشرد كما كنت أسميها.كان يقضي بإحياء أغنية المشردين القديمة تلك (يلا امسكني)، وتصويرها بطريقة (الفيديو كليب) الحديثة بعد إعادة توزيعها موسيقيًا، وبثها في شاشات ضخمة في الشوارع.قال مخرج كازاخستان حين داهمته علامات الاستياء على وجهي:

– لا تخف أستاذنا..لن آتيك بالدومة، وحنظل وولد المجاري أبدًا.. سأشرد لك عددًا من أولاد الأسر الكبيرة، وسيمسك بثيابك ويديك عيال أمثال سامر ومعتز، وريهام.

ثم أضاف:

– مشردو الشوارع أعداد لا يستهان بها، ويمكن أن يكون أحدهم هو صاحب الكلية التي ستعيدك إلى الحياة.

اقتنعت بقوله في تململ، وكان وقتًا شاقًا ذلك الذي أنفقته مشردًا وسط عيال أرستقراطيين، بذلوا مجهودًا خارقًا حتى يخرج الشريط شوارعيًا. يلا امسكني.. ومخرج كازاخستان يصرخ في عصبية تنفر لها عروق رقبته.. (استوب).. يلا امسكني وسامر الأرستقراطي يبدو متقززًا من قميص الدمور الممزق الذي يرتديه..يلا امسكني.. وأحس بعوارض (اليوريا) تنز من دمي وعقلي ووجداني.توقف المرور في عدد من الأزقة، واحتشدت الشوارع المغبرة بآلاف المشردين الذين كانوا يتفرجون في ذهول، ويتشنج بعضهم.. أريد أن أستثمر، ثم يسرع صوب أقرب مستشفى لتسجيل اسمه في قائمة المتبرعين.

الآن أستطيع أن أسرد بعضًا من تداعيات هذه الحملة التي انشرح لها صدري كثيرًا، وازددت يقينًا بأنني ما أزال الإمبراطور الذي لن يقضي عليه فشل ما دامت حنجرته متماسكة.

طلاب المدارس ومعلموها، طلاب الجامعات وأساتذتها، الأطباء، الممرضون، الحلاقون، سائقو حافلات القرف،وباصات التخلف العقلي، باعة اللحم والخضروات، نواب في مجلس الشعب، ورائدات في العمل النسائي، تجار وسماسرة، وعرب رحل، قبائل ومشاريع قبائل، لصوص وخمارون.وعابرون بالبلاد بغرض الصيد أو السياحة. وطلب قادة التمرد في جنوب البلاد إذنًا من الحكومة بالسماح لهم بإرسال جيش بلا سلاح ليشارك في استثمار الذهب ثم يعودإلى الحرب مرة أخرى، وحصلوا على الإذن بالفعل. الفصائل المتناحرة ببذاءة في الصومال، أوقفت بذاءتها،ووحدت قائمة من المتبرعين أرسلتها، وبعث عدد من رؤساء إفريقيا ببرقيات مؤازرة رقيقة لا تشبه جمودهم قالوا في متنها: إنهم مستعدون للمشاركة وإرسال متبرعين سمر لإنقاذ المغني الذي قال يوما:

So la do la me

Africans are me

و لم أكن أنا حقيقة من ردد تلك الأغنية، ولكن مغنيًا أسود من حي (هار لم)، كان يبكي بها جذوره التي طمستها ركاكة الأجداد.

كنت أتابع هذه التداعيات وأنتشي،أحس بطعم برتقال قديم، يعود مجددًا إلى الحلق طاردًا طعم الأملاح والنشادر، ألتفت إلى أسماء مثل (أحمدو يوسفو) و(فارح عبدي) و(أشول دينق) و(فطومة أكرع) وأحاول أن أتخيل حامليها بكل شغفهم ونزواتهم واحتمالات أن يمتزج دمي بدمهم.أقرأ في الصحف تحليلات حول ظاهرتي التي وحدت ثلث الكرة الأرضية، وتنبؤات أطلقها عرافون محليون ودوليون وأرتجف. قالت (حنينة) رامية الودع المخضرمة وذات الشهرة العريضة، إن الكلية التي يبحثون عنها موجودة في بطن مزارع فقير في أرض الجزيرة قد يعثرون عليه وقد لا يعثرون. قال (الأزري) رئيس رابطة الفلكيين العالميين في باريس، إن المغني المنكوب أحمد ذهب لن يأكل (الشاورما) بعد الآن أبدًا؛ لأن الكلية التي سيعثر عليها بعد عناء شديد، هي لشخص مصاب بحساسية الشاورما المفرطة.وكان تعليق الإسباني (دون جوان أنطونيو) الذي كان يتحدث في مؤتمر صحافي في مدريد، مختلفًا، لقد تحدث عن (إيدز) محتمل يقصر من عمري أكثر مما يطوله.

ظللت أتابع بشغف، أتسلق العناوين البارزة للصحف وأهبط إلى الأحرف الصغيرة المطموسة، وأيضًا تلك الصور التي التقطت لي في أماكن وأزمان متفرقة، وأنا تحت رحمة الغسيل الميكانيكي أشاهد دمي يستحم ويتجفف. أصدق المنجمين حينًا، وأكذبهم حينًا، وأحاول أن أعيش كإمبراطور حقيقي تعد له الموائد المترفة وتدلق. حساسية الشاورما.. لسوء الحظ كانت الشاورما طبقًا مفضلًا، لا أستطيع الاستغناء

عنه... إيدز محتمل ؟.. هل أخرج من فشل وظيفة واحدة إلى فشل كل الوظائف ؟ كنت أرد على سيل المكالمات التي ترد إلى هاتفي حين يكون المزاج رائقًا.. وأجند طاقمي المترف من سكرتيرين ومرافقين، ليشكر رئيسًا واسى، أو زعيمًا طافت بقلبه رقة مباغتة وسأل عن حالي وقد استغربت بشدة حين خطر ببالي فجأة أن تلك الكلية الشاردة ربما تكون في أحشاء صديقي القديم (أكوي شاويش) أو ربما كانت في جسد (دودة القز) وسافر بها إلى المجهول.

لابد أن شهورًا طويلة قد مرت ومصحات البلاد كلها مجندة لغربلة المستثمرين في الذهب، وكانت كثير من المفارقات قد حدثت، حيث اكتشف البعض عند خضوعهم للفحص لأول مرة في حياتهم، أنهم يعيشون أصلًا بكلية واحدة، والبعض الآخر وجدت أربع كليات متينة في أحشائه، وكان ثمة صومالي من أحد الفصائل المتناحرة اسمه (آدم تفاتف)،جاء في تلك اللائحة الموحدة، اكتشفوا في أحشائه ست كليات كاملة الوظائف، وكان محظوظًا؛ لأن موسوعة (جينيس) التي كانت تتابع أخبار حملتي بشغف وتدرس إمكان إدراجها كأكبر حملة للتبرع بالكلى في التاريخ، تلقفته، احتضنته، وأشبعته، وأخرجته من ذلك التناحر البذيء إلى الأبد.

في ذلك اليوم الذي لن أنساه أبدًا، أخبروني في زيارة مقتضبة، بنتائج الغربلة التي أجريت في البلاد والتي أجريت خارجها،وكانت نتيجة مخيبة حقيقة للآمال. لا أحد.. لا أحد يشبهك يا سلطان في عوامله الوراثية وجيناته، وحتى في عصبية قولونه إنْ تعصب.. لا أحد يا سلطان يملك نجاحًا يداوي فشلك، كلية صغيرة كبعر الإبل، تنغرس في أحشائك وتبقيك واقفًا مستندًا. بكيت بشدة لأن فشلي كان مميزًا وشهيرًا، وبكيت أكثر لأن حملة كهذه وبدلًا من أن تجر الفشل إلى النجاح، أغرقها هو.. ما العمل؟..

لكن في وسط ذلك الإحباط، كان لابد من وميض.. بل ضوء كهرباء غامر.. رن جرس الهاتف في منزلي، وتناولته في تثاقل، لن يكون المتصل أكثر من صوت ممل من ملايين الأصوات التي كانت تندلق إلى هاتفي، لا تحمل بشرى ولكن مواساة لا تسمن ولا تغني.لكن الأمر كان مختلفًا، إنه الجراح الوطني الذي دق صدره وقال ممكن والنتيجة مضمونة، بينما صدور أكثر شهرة من صدره بقيت بعيدة عن الدق..كان يصرخ في انفعال: تعال إلى المستشفى حالًا يا ذهب.. لقد عثرنا على (زيتون).

زيتون؟ وفي مثل هذه الظهيرة البائسة، ولإمبراطور ليس مهددًا بفقدان عرشه فقط بل حياته أيضًا..أعرف إن الجراحين جادون وصارمون، ويستطيعون أن يبقروا بطنك، و يقطعوا شريانك دون أن تزعجهم نوافير الدم التي قد تنبثق.. لكن ماذا حدث لجراحي العظيم.. ماذا حدث له؟.. قلت لا أفهم، وكنت صادقًا.

- صرخ الطبيب.. زيتون هو المتبرع الذي سيمنحك كليته..لقد تطابق نسيجك معه، تعالَ لأوضح لك... تعالَ الآن.

فر التثاقل من عيني مذعورًا، نشطت حركة الدماغ، ووجدت نفسي أنهض بمروءة فتي، أرتدي ثيابي ارتداء خائنة ضبطت متلبسة، وأقود سيارتي بنفسي في شوارع الزحمة والغبار قيادة الراليين أمثال (سينا) و(شوماخر).كانت الصحافة الشمامة قد شمت وسبقتني إلى هناك، ووجدت في مكتب الجراح سبعة ألسنة ثرثارة تحاصر شابًا هزيلاً داكن اللون، لابد أنه متبرعي العزيز «زيتون».نهض الجميع حين دخلت لكن زيتون لم ينهض،وخمنت في سري.. إنه لم يعرفني لكن حين قال الآخرون: مرحبا يا سلطان، قام نصف قومة، مد لي يدًا جافة متسخة الأظافر، سحبها بسرعة كأنه يخشى عليها من لسع.قال الجراح:

- أبو زيد زيتون.. الفارس الذي سيفدي الإمبراطور بعضو من أعضائه.لقد حضر منذ عدة أسابيع، وتطابقت تحاليله كلها معك... ابتسم.

ابتسمت، وابتسم الطبيب، تلقف مندوبو الصحف ابتسامتيْنا، ابتسموا بهما، وظل المتبرع بشفتيْن مضمومتيْن وقدميْن تهتزان في توتر. لم يبدُ لي كفارس يحمل روح مفتد أبدًا، كان هزيلًا بالفعل، وداكنًا جدًّا، له شاربان طفيفان، وعينان صغيرتان معكرتان ربما من بقايا رمد أو (تراكوما)، وأعلى ظهره بروز يلتحم بالكتفين معطيًا سمة صحراوية قاحلة. كان يرتدي السروال والصديري فوق قميص لم أعرف له لونًا، وعلى رأسه طاقية حمراء تخرج من نسيجها خيوط ممزقة.

- هل أنت من عرب البطانة؟

سألته وفي داخلي يقين أنه لابد أن يكون كذلك.

- لا.. من عرب الصويعة.

كان اسمًا غريبًا على سمعي وأسماع الحاضرين كلهم، لم يسمع أحد بالصويعة من قبل، لا من جار ولا صديق ولا رفيق عمل، ولا حتى عابر بالطريق... لكنه الوطن الممتد في مساحته وتنوعاته، ومثلما أوجد البطانة بعربها ونزواتها.. يمكن أن يوجد الصويعة وبعرب آخرين ونزوات أخرى.أردت أن أسترسل، لكن إشارة من الطبيب الذي لابد شم رائحة الأمونيا في تنفسي، أسكتتني..والتقطت الصحافة حبل الحوار الذي استمر زمنًا وانشددنا إليه جميعًا.

كان أبوزيد زيتون في التاسعة والعشرين من عمره، ولد في تلك المنطقة القاحلة وتعلم قليلًا في مدارس القرى الشحيحة لمنطقته المتاخمة لمدينة (القضارف) في شرق البلاد.مارس مهنة السقا، ثم اتجه إلى رعي الأغنام لوجهاء المنطقة لقاء قوت يومه، لم

يكن يعرف شيئًا عن الغناء إلا هذه الموسيقى الرثة التي تعزف محليًا في الصويعة في مناسبات الأعراس والأعياد ويصفق لها الأعراب ابتهاجًا، و لم يسمع أبدًا بمغن اسمه أحمد ذهب أو غيره، وما وصلته أخبار حملة الاستثمار في الذهب إلا بعد أشهر طويلة من اندلاعها، وكان ذلك عن طريق سائقي لواري السفر الذين يمرون بتلك الأصقاع من حين إلى آخر، يحملون التبغ والسكر والملح والمعلبات، ويأخذون وبر الغنم والجلود من أعراب تلك المناطق، وربما عثروا على بيت عامر قيلوا فيه، أو فتاة طائشة غازلوها أو عنزة شاردة جزوا عنقها.قالوا: يحدث في العاصمة ما يحدث، الدنيا مقلوبة بشدة، والناس طوابير لا تنتهي، وكل من يمد يده لتؤخذ منها عينة من الدم، يسلم ألف دينار وطني عدًا ونقدًا.ثم شمر أولئك السائقون عن سواعدهم، وشدوا نظرات مستمعيهم إلى آثار إبر غاصت في العروق ومصت الدم.التف شباب (الصويعاب) حولهم، سألوهم عن كلفة السفر إلى العاصمة، قالوا: مجانًا لوجه الله.. سألوهم عن تكلفة الرجوع.. إن أرادوا الرجوع.. قالوا: لا نعيد أحدا يذهب باختياره، سألوهم.. هل يمكن أن نعيش في العاصمة بعد أن نأخذ تلك ألف الدينار؟.. ردوا.. أنتم وحيلكم..الذي ينوي الحياة في العاصمة لابد أن يمتلك حيلته.

كان أبو زيد زيتون موجودًا في ذلك الالتفاف المدهش، وكان عريسًا خرج لتوه من شهر عسل صحراوي بعد أن تزوج من (عريفة)، إحدى بنات بيئته، والتي لم يوضح في حديثه إن كانت غادة هيفاء أم مجرد امرأة، لكن انطباعي الفني عن اسمها، أبعدها تمامًا عن أولئك الزهرات و(الكوثرات) اللائي أعرفهن أو ألتقيهن على هامش حياتي الفنية. انتظر زيتون حتى أكمل الشباب أسئلتهم، ثم تقدم بسؤاله الشخصي الأول إلى أولئك السائقين:

– هل يقبلني ذلك المطرب راعيًا لأغنامه؟

ضحكوا.. يا إعرابي.. يا ساذج.. ليس للمغنين أغنامٌ ولكن لهم أغنيات. ويرعونها بأنفسهم.

سؤاله الشخصي الثاني:

- هل يوجد في بيته لب القرع؟

قهقهوا. ولب الأسد والنمر إن أردت.

سؤاله الشخصي الثالث:

- إذا طابقت كليتي كليته.. فماذا سأكسب؟

قالوا: ثوابًا في الآخرة.

قال : أريد ذلك الثواب.

ودع (عريفته) التي بكت بحرقة غير مألوفة في نساء الأعراب اللائي يلتقين الزوج يومًا ويفتقدنه سنوات، ودع أهله الذين كانوا يشدون على ثيابه ويكادون أن يمزقوها، وقفز إلى واحد من تلك اللواري، محشورًا بين الوبر و الجلود.. يردد في كل لحظة.. الثواب.. الثواب. لم يطعمه السائقون طيلة أيام السفر إلا لقيمات ما أقمن أوده، لكن آذين ذلك الأود بالحموضة والغازات..وكانوا يسمحون له بقضاء حاجته فقط حين يودون هم قضاء تلك الحاجة.وحين وصلوا إلى العاصمة بعد أسبوع من التعب.. أنزلوه أمام أحد المستشفيات.. قالوا: هنا و لم يكملوا توضيحهم، وظلت تلك (الهنا) لغزًا في ذهن الأعرابي إلى أن حلها له بعض العابرين بالطريق.

توقف المتبرع عن سرد قصته، التفت إلى زجاجة من مشروب (الفانتا) العريق، كانت أمامه، تأملها كجوهرة، ثم تجرعها بتجرع الصحراء الذي يحدث صوتًا وقرقعة، ووضعها بعد أن فرغت، وضعًا أشد صحراوية، حيث كادت أن تتحطم.

سألته الصحافة بغتة:

- والآن بعد أن تطابقت مواصفاتك بمواصفات أستاذنا.. هل تريد ثمنًا لكليتك؟

بدت على وجهه علامات هيجان.. صرخ:

- بل لوجه الله.. أريد ثوابًا فقط.

لا أنكر أن ذلك الرد أبهجني بشدة.. وبرغم أنه انطلق من مبدأ آخر غير مبدأ الإعجاب وعشق الغناء الذي سار على نهجه معظم من أرادوا الاستثمار في الذهب، ولم ينجح استثمارهم. لكن فكرة أن أحمل في واحد من جانبي.. كلية راعٍ مهمش لا يعرف حتى عدد ساعات اليوم، أقلقتني.. بذلك الدم الصحراوي لا أستطيعُ أن أتذوق الفخامة، أن أعيش الترف.. مؤكد سوف يلسعني كلما شم فيَّ رائحة تحضر.. همست بتلك الهواجس لطبيبي الجراح، فأكد أنها مجرد هواجس.. سايكولوجية التلقي.. إحساس عدمي بلا معنى.. لا تفكر كثيرًا.. ابتسم.

ثم أضاف بأقل صوت ممكن:

- خذه إلى بيتك لتعديله.. أمامك حوالي ثلاثة أشهر حتى تكتمل التقارير، وهي - في رأيي - تكفي لتعديل جدة إلى فتاة هيفاء.

نعم، تكفي بالتأكيد، إذا كانت الجدة تملك روح الفتاة تلك.. لكن «زيتون» يبدو بعيدًا جدًا.. باختصار كنت محتاجًا إلى حيل الحضر كلها لإنزال الصحراء عن ظهره، وحيل السيكولوجيين كلها لتقبل دمه داخل دمي. وافقت على أخذه إلى بيتي ولمحت في عينيْه شرارة من فرح، اتقدت برهة وانطفأت.. عندي كل شيء يا زيتون.. عندي لب القرع والبطيخ ولب الفراولة أيضًا.. فقط كليتك بلا مشاكل.. بلا مشاكل.

وصلنا أنا وزيتون إلى منزلي في لحظة من لحظات القلق المميز التي تعصف بالبيت من حين إلى آخر، وتتركز في كل مرة على شخص أو شيء بعينه. قلق أشبه بالحملات العسكرية، كأنه يملك قادة صارمين يأمرون مشاعر البيت.. قلقي على أحد أفراد العائلة.. على جار.. على مسافر.. على كلب يعوي في البعيد. كان القلق هذه المرة على قطة أليفة ربتها زوجتي وأحبتها حب أم لطفلها. كانت قد علقت في السطح وسط أسلاك الكهرباء و لم يستطع أحد أن يصل إلى مكانها، رأينا القلق المسكوب في البيت كله، انزلي.. تعالي.. ها. من هنا.. وسمعنا المواء الضاري المستغيث، كان زيتون واقفًا بقربي.. يداه على جيب زيه الصحراوي، ووجهه أملس خالٍ من الطعم الذي يجب أن يكونه أي وجه وهو يدخل إلى حياة غرباء لا يعرفهم. فجأة بدأ وجهه يتخطط بانفعال ما، وبسرعة كبيرة، ربط ثوبه عند مستوى الركبتيْن، تسلق إلى السطح عبر مواسير المياه الخارجية، وعاد حاملاً القطة في يده.. لم تصرعه كهرباء الأسطح الصارعة، و لم تزلقه المواسير الزالقة. كان مشهدًا سينمائيًا مؤثرًا انتبه على إثره أهل البيت إلى ذلك الصحراوي الذي أتى بصحبتي.. تسلقوه وهبطوا، وتحولوا إلى مستفسرين بعيونهم عن تلك الصحبة التي جاءت معي في توقيت حرج لتنقذ القطة من الموت. أشرت إليهم بالانتظار، ودخلنا جميعًا إلى المنزل حيث اتخذ زيتون مجلسه على الأرض مغضبًا تلك المقاعد المخملية التي فتحت له أحضانها. قدمته لهم باسمه وسيرته وفدائية الروح التي جاءت به من موطن اسمه الصويعة، ترجو الثواب فقط. لا أستطيع أن أصف ما حدث بعد ذلك، لكن البيت الذي رمى بقلقه الآن، تحول إلى خدم متمرسين يزيحون عن زيتون عبء صحرائه، ويوطنونه عاصميًا في واحد من بيوت الطبقة المرفهة، جاءوا بقمصان وبناطيل وجلابيب مطرزة، وفرش للأسنان وصابون ناعم من ماركة (زست). جاءوا بمشاعر ثورية تمثلت في مناداة مثل ولدي.. أخي.. عمي.. سيدي.. وكان يمكن أن يجيئوا بمنادة مثل حفيدي، لولا أنه لم تكن ثمة جدة متاحة لواحد في عمره. ووجد متبرع الكلى الصحراوي نفسه في ظرف ساعتيْن فقط مغسولًا ومتأنقًا، وناعم الوجه، وجالسًا على واحدة من أرقى طاولات الطعام

في حي (روضة ذهب)، الحي الذي كنت أول من بنى فيه منزلًا سلسًا، تبعته منازل سلسة بعد ذلك، وجاءت لجنة الحي الشعبية حاملة اسمه من وحيي، ألصقته على لافتة في مدخل الطريق الذي يقود إليه.

بالطبع كنت ممنوعًا من كل تلك الأطايب التي رصت أمام الغريب.. لا بروتين، لا دهون..لا نشويات، لا طعام فيه رائحة ملح أو قوام سكر، وانشغلت في لحظة انشغال الجميع بالقضم والمضغ، بمراقبة متبرعي. رأيت يده تمتد إلى السمك المطبوخ بطريقة (رمزي) وترتد، إلى الإسباجيتي وسلطة النعناع، ودجاج (الفاهيتا) المكسيكي وترتد..إلى مقبلات التبولا، وترتد..ثم فجأة تحدث بصوته الصحراوي الذي لا يسمعك وحدك ولكن قد يسمع الحي كله:

- هل عندكم ضرابة يا عرب ؟

كان سؤالًا اهتزت له تلك الشريحة الراقية بشدة، فمهما كان طعم تلك المصيبة، ومهما كانت قيمتها الغذائية، فلن ترتضيها أية مائدة موقرة في ذلك المكان. الضرابة.. اسم خلوي صميم، أن تضرب بحجر..أن تضربك رمال محملة بالحصى..يضرب الراعي أغنامه..لكن ما مكونات تلك الوجبة الكارثة؟. باعتباري ريفيًا تحضر منذ أربعين سنة فقط، دخلت في شد وجذب ونقاش حاولت أن أجعله هامسًا مع زيتون، إلى أن توصلت إلى مكونات الضرابة، إنها أقراص القمح الخشن المضاف إليها السمن والسكر. لا بأس.. قالت حياة الحسن: لا بأس.. قالت طاهيتي: وجبة بلدية جدًا لكننا نملك خاماتها، وكانت سعادة المتبرع غامرة حين استطاع أن يشبع بضرابة حضرية الصنع وبعيدة عن ضرابات الصويعة الملونة بالغبار.

الغريب المغسول،المتعشي والمتجشئ، لا يريد أن ينعس، وأنا في نشوة حصولي المستقبلي على كليته، أبقيته ساهرًا بقربي..كنا في البداية نتحدث عن أشيائه؛ لأن أشياءنا كانت لا تزال بعيدة عن تخيله.نتحدث عن لقاح الغنم وساعة الحلب وجودة الكلأ الذي ينبت عقب مطر (الوسمي)، نتحدث عن (دجانة) سائق لواري السفر الذي هتك عرضًا في الصويعة حين قال لامرأة مرت أمامه: أعطني كوز ماء يا مشمشة. .فجاء ناظر المنطقة وشيوخها وأجبروه على الزواج من تلك البائسة التي خدش حياءها... ولن يتزوجها أحد بعد ذلك.نتحدث عن (عريفة) التي كانت تدهنه بلبخة نبات (الجرجرة) حين يؤلمه ظهره، وتسقيه من بلسم العطرون حتى يظل قويًا وقادرًا على الإنجاب.. قد تكون الآن حاملًا... كان يردد:حامل بالتأكيد.. كان يضيف..

- أين هي الكلية التي تريدها ؟ اليمنى أم اليسرى؟

يسألني زيتون بغتة وهو يمسك بكلتا خاصرتيه، لا أدري.. أية واحدة تفي بالغرض.. يضحك لأول مرة، أسنانه صفراء بلون رمل حجري، ولسانه لا يبدو (أنيميًا) تمامًا، ولكنّ فيه شحوبًا. أريد أن أغسله أكثر، أزيح عبء الصحراء عن ظهره، أحدثه عن شاشة بلورية تبث الأخبار والنزوات، ويمكن أن تبثه شخصيًا حين تسمع بخبره.. أقول: غدًا سيأتونك من كل صوب حِشري فكن مستعدًا.. يتلفزونك.. يذيعونك.. يكتبونك (ريبورتاج) فخمًا وربما غدوت مثلي، تمشي في الطريق فيتبعك المعجبون.. هي أيضًا فرصتك يا زيتون.. مثلما هي فرصتي..الآن أكرر ما قاله مندوبو الصحف للمتبرع، ما غرضك حقيقة من التبرع يا زيتون؟

- قلت مائة مرة ثوابًا من الله فقط.. صدقني ـ نحن أهل الصويعة ـ لا نأخذ أجرًا في الدنيا من خير نفعله.

أريد أن أطمئن إلى أخلاقه وقطعًا سأمنحه أشياء كثيرة دون أن يطلب.. فقط أتعود عليه.. أتعود على دمه الذي سيلتحم بدمي قريبًا.طافت بخاطري في تلك اللحظة تلك التنبؤات التي رافقت حملة الاستثمار في الذهب، رامية الودع المخضرمة كانت كاذبة بشدة، فزيتون ليس المزارع الذي وجب اقتلاعه من بطن الجزيرة، ما قاله الإسباني (دون جوان) أيضًا كذب، فلا يمكن لأي (إيدز) مهما كان بارعًا في اقتحام المجتمعات وتلويثها، أن يتسرب إلى قرية اسمها الصويعة لا يعرفها أحد، بقيت مسألة حساسية (الشاورما) التي ذكرها (الأزري) كبير الفلكيين العالميين.. وبرغم اقتناعي بأن «زيتون» لم يأكل شاورما في حياته، لكن سأجرب ذلك الطبق معه.. لا لن أحرمه.. ربما كانت نبوءة الأزري حقيقية، ويموت ذلك المتبرع الوحيد الذي يملك خواصي الوراثية..أول أمر سأصدره في الصباح لطاقم البيت.. هو الاستغناء عن طبق الشاورما.. لا أريد طبقًا متحسسًا أو قاتلاً في بيتي.

-٦-

اليوم التالي كان يومًا من أيام الغسيل الميكانيكي الذي أخضع له ثلاث مرات في الأسبوع، دون أمل في تخفيضها أو إلغائها، أحس بحاجتي لذلك الغسيل في الموعد تمامًا،أحس بانهيار الساقيْن، ودوار الرأس، وطعم النشادر في الحلق، ورائحة موت مجنون وغامض تأتي من بعيد.أعرف أن هذه (اليوريا) تفيض الآن سيولًا وحيرانًا في الدم، وأعرف أن ما أسميه بروتين التعب ولا أعرف خواصه بالضبط، يحلق الآن في القمة مثل نسر.دخلت في ثوبي وعمامتي،وضعت عطري حول الرقبة، ولبست نظارة الشمس التي لم أكن أحتاجها في ذلك الصباح، ولكني أحس بأنها تستر العينيْن، تخفي تلك النظرات التعيسة التي باتت تحملها منذ لحظة الانهيار الخيري تلك، وهبطت إلى الطابق الأسفل. كنت أتوقع أن أجد متبرعي الغريب نائمًا في تلك الغرفة الصغيرة التي فرشت له يوم أمس، وبطقم من الملاءات والوسائد الرملية اللون بناء على نصيحتي التي أخذتها من قراءتي للسيكولوجيين، لكني فوجئت به جالسًا على واحد من تلك المقاعد المخملية التي خاصمها يوم أمس وخاصمته.كان يشرب حليبًا صافيًا على كوب مشجر، ويمد يده إلى وعاء فخم من الخزف الملون محشو بلب القرع حتى حوافه، ولا أدري متى أعد له في هذا الصباح الباكر؛ حيث لا يد عاملة نشيطة يمكن العثور عليها.

- قلت: السلام عليكم يا زيتون.
- قال: عليكم بما قلتم.

الرد البلدي السمج لتحية المحيي، والذي لم أسمعه منذ قرابة الستين عامًا، كنا صغارًا وأشقياء، نحرف السلام ونتلقى ذلك الرد الذي لن يكون قطعًا ردًّا ودودًا. اقتربت منه، كانت قشور اللب مكومة على الطاولة العاجية أمامه، وزيتون لم يرفع عينه حتى لمطالعة باب الستر الذي يحاول جاهدًا أن يخفي جلافته وصحراءه، جاهدت حقًّا ألا أتوجس بشأنه، اعتبرته قرويًا لا يعرف الذوق لأنه ببساطة لم يلتق بالذوق أبدًا من قبل، لا يعرف تعاملنا؛ لأن تعاملنا ليس أخا لتعامله، ليس ابن عم له، ولا حتى قريبًا من بعيد. جلست بجواره، وفي ذهني عشرات اللغات التي ربما أسهمت في غسيله:

- هل نمت جيدًا يا زيتون ؟
- بين بين.
- أراك تحب لب القرع بشدة.

اتكأ على ظهر المقعد الوسيم واضعًا ساقا مشققة على ساق مشققة، ومهزهزًا لنعاله التي كانت عالقة بأصابعه فقط.

- عندي حكاية عجيبة مع هذا اللب.. لن تصدقها..
- إذن قلها.. أريد سماعها.

سوكت أذني حتى اللمعان، واتجهت بوجهي كله ناحيته.. هؤلاء البسطاء كما تعلمت من صحبتي لأكوي شاويش، ولأعضاء لائحة الأوائل، يملكون أحيانًا حكايات أشد تسلية من شريط سينمائي لـ(استيفن سبيلبيرج)..

- كنا أطفالًا في ذلك الوقت..وكان (طربنشي) السواق متزوجًا من خالتي (أم مساير)، كان يسافر إلى العاصمة باستمرار يحمل الوبر والجلود، وحين يأتي

يجلب معه لب القرع، يوزعه علينا، ونقوم بأكله.

انتظرت أن يستمر زيتون في القصة التي صنفها عجيبة ووجهت حواسي كلها لامتصاصها، لكنه كان قد انتهي؛ لأن لسانه توقف تمامًا عن حركة الكلام، واتجه إلى تقليب اللب في الفم.. أعدت سرد قصته في ذهني مرارًا. لكني للأسف الشديد لم أعثر على أية عجيبة في لب للقرع يجلبه (طربنشي) من العاصمة ليوزعه على الأطفال. ربما سيكملها يومًا آخر.. قلت في نفسي: قطعًا عثروا على خاتم ذهبي أو فص من الماس داخل كيس من أكياس طربنشي..قطعًا سقط زيتون على وجهه وهو يتلقى كيسه.. قطعًا كان اللب مسحورًا بتعاويذ ما.. لابد من وجود شيء...لابد.

ذهبت إلى غسيلي ساخطًا، وأنفقت تلك الساعات الثماني التي يستغرقها، أراقب شراهة الليف والصابون الميكانيكي، وأتحدث إلى عدد من (الكوثرات) كن يتسمن بالقرب مني محركات لآلام عدة.. ألم المرض.. ألم الشيخوخة، وألم القلب الذي يحمل هم زيتون من شجرة صحراوية قاحلة. جاء جراحي الوطني متأنقًا، تبادلنا حديثًا نضرًا، وأكد لي أن المسألة لن تطول.. عدة أشهر فقط وتعود إمبراطورنا الذي نعتبر حنجرته الآن في إجازة، لم يسألني عن أخبار زيتون ويبدو أنه اعتبر حديثه لي يوم أمس كافيًا.. تعديل الجدة إلى فتاة يانعة..

حين عدت إلى منزلي كنت نشيطًا، بمعنويات متناسقة،وفي ذهني لحن مؤجل منذ زمن، عاد يلح مرة أخرى..لكن كانت في البيت معضلة:

– زيتون غاضب يا أحمد.

قالت حياتي.. حياة الحسن.

– زيتون غاضب يا أبي.

قالت إحدى بناتي.

- زيتون غاضب يا سيدي..

قال الخدم كلهم.

- ما الذي أغضبه ؟.. سألت في توتر.

اسأله بنفسك..

- ردد الجميع.

وجدته منبطحًا على أرض الصالون المفروشة بسجاد (أكبر) و(وزيري) و(بهزاد) الذي جاء خصيصًا من فن فارس ليسهم في إرضاء ذوقي الإمبراطوري. كانت قدمه اليمنى تتأرجح في توتر، وصدره يعلو ويهبط بهيجان صحراوي.

- ماذا بك ؟.. سألته..
- عائلتك تزعجني يا ذهب.

ذهب حاف دون نعال من تلك الآلاف التي يرتديها اسمي أينما تردد، أيضًا قلة الذوق، أو لأقل ورطة الذوق الذي قد يموت قبل أن تخترق ذلك الكيان..ظننت أن ما يتحدث عنه إزعاجًا ربما نتج من صوت لراديو أو تلفزيون أو دردشة بصوت عالٍ أو ربما مرت بقربه مكنسة الكهرباء، ولعقت بعضًا من اتساخه.فكرت في تلك الفنادق المنتشرة في البلاد والتي ربما لاءمت ذوقه، وأسكنته دون إزعاج.

- هل تحب أن أنقلك إلى فندق يا زيتون؟
- وما الفندق؟
- مكان مريح لن يزعجك فيه أحد.. هناك كل الناس غرباء وكلهم يبحثون عن راحتهم.

- لآ.. أريد أن أسكن هنا.
- هذا بيتك.. لكن ما الذي أزعجك حقيقة؟

نهض من انبطاحه فجأة، قفز إلى أحد المقاعد قفزة بعير لسعته نحلة، سمعت خشب المقعد يئن، ورأيت الوسادة المبطنة للخشب تنبعج.

- إنهم يرفضون صعودي إلى أعلى لأتمنظر على البيت، ويرفضون دخول صديقي (التلب) لنجلس معًا.

مسألة الصعود إلى الطابق العلوي عزوتها إلى الفضول القروي المتوقع في مثل تلك الحالات، ويمكن معالجتها بإخفاء أسرار حميمة، وإبراز أسرار عامة، ومن ثم السماح له بالتجول كما يشاء، لكن مسألة (التلب) الذي كان خفيرًا لأحد البيوت المجاورة، هي ما أقلقني، كيف استدل عليه زيتون ؟ ومتى صادقه ؟ وما نوع الحوار الذي جرى بينهما ؟..كنت أعرف (التلب) جيدًا،وكذا تعرفه (حياتي)، ويعرفه سكان روضة ذهب كلهم..ولد في عمر زيتون تقريبًا، ليس صحراويًا، ولكن شماليًا يعيش في وسط الحي بصعلكة بدائية، وسيرة ذاتية كئيبة، اتهم في أول سطورها بمد يده إلى صدر خادمة، وفي آخر سطر، انكتب منذ عدة أشهر فقط، بالمشاركة في حادث سطو على أحد البيوت.لكن أرباب عمله لا يهتمون، ويرفضون حتى مجرد قرصه قرصة خفيفة على أذنه.

- لن يدخل التلب إلى بيتي أبدًا.. صرخت في انفعال ممنوع، أحسست بآثاره ثقلًا على جانبي صدري الأيسر.
- بل سيدخل.

ردد المتبرع وساقه المشققة على ساقه المشققة.

طبعًا سيدخل ما دامت تلك الكلية اللعينة لا تزال في أحشاء زيتون.. سيدخل.. وقد يسكن أيضًا إذا ما أرادت (الكلية) ذلك.. أخذت أتخيل المحبطات العالمية كلها، يوم واحد برفقة الصحراوي، وسيدخل صعلوك الخفراء بيتي، من سيدخل فيما تبقى من أشهر.. من؟ أسرعت إلى هاتف صديقي الجراح أستنطقه، ماذا أفعل يا مستر؟.. اعثروا لي على متبرع آخر فيه حد أدنى من رقي السلوك، لا يوجد آخرون.. يردد.. لقد توقفت حملة الاستثمار في الذهب منذ مدة بعد أن غربلت ثلثي الكرة الأرضية، لا تملك الخيار يا سلطان، هذه ليست أغنية لشاعر لا تحب قصائده لترفض تلحينها، ولكن أغنيتك التي يجب أن تلحنها وتغنيها شئت أم أبيت.

في المساء كانت كاميرات التلفزيون تدخل بيتي؛ لتشم حقيقة الغريب الذي جاء يفتديني، وكان زيتون والتلب جالسيْن أمام ثرثرة المذيعات، واحد يحكي تفاصيل ثوابه، والآخر يؤيده بهزة من رأسه، بينما عيناه تجوسان في امتداد البيت باحثة عن ثروة أو عري. لم أنطق بحرف واحد طيلة ساعتي الحوار، وتركت قارب الريفيين يبحر في تأزمي دون أن أوقفه.

كم يومًا مضى؟.. سبعة.. عشرة.. عشرون..لا أستطيع أن أعد، بل لا أريد أن أعد، أطالع نتيجة الحائط التي أمامي كما أطالع نجمة ليلية لا تصل عيناي إلى قلبها، أبحث عن معنى جمالي واحد أزيل به قبح ساعة أو لحظة، ولا أجده، أتذكر دودة القز ميتًا يدفنونه، أكثر مما أتذكره عابثًا ولاهيًا، يتعقب الجمال، ويأتي بقصائد حراقة كالجمر. أبكي على أكوي الذي أبى حتى أن يجلس باتساع المقعد حين جاء، وهو الذي كان يملك مفتاح الزمرد الذي صيرني سلطانًا.أقول لحياة الحسن: سألغي المسألة برمتها وأظل مغسولًا بتلك الآلات إلى أن ينضب الدم. وترفض بشدة.. علينا تعديل أيامنا بما يناسب شفاءك، علينا الاستغناء عن أنفسنا من أجل أنفسنا أيضًا. لم تعد (حياتي) تعشق المشردين كما كانت في السابق، واعتذرت لي عن أي خلل ربما أحدثته

في تذوقي من جراء ضغطي وإجباري على الإمساك بأياد لا أحب أظافرها. تواسيني وأواسيها، وننزاح كلنا إلى أضيق ركن في البيت حتى نفسح مجالًا للتداعيات الوافدة أن تتداعى على راحتها.

زيتون الآن يقيم في غرفتي (الماستر)، التي جهزتها بجميع ما يمكن أن يعد ضروريًا أو كماليًا، يستخدم سيشوار الشعر، وعطر (أوبن)، ويستطيع أن يرتدي رباط العنق إن كانت ثمة ضرورة لارتدائه.. وضعت الضرابة وكسرة الخلاء، ومديدة الدخن بالتمر على لائحة طعامه لفترة، ثم حذفت بعد أن استطاع اختراق النظم الغذائية لشعوب صادقها عبر التلفزيون، وصارت له برامجه المفضلة أيضًا.. (اكتشف الطبيعة).. (خواطر سهر).. و(رولا على الهواء) الذي تبثه إحدى الفضائيات. وسمعته في أحد الأيام يتحدث إلى أحد زواره قائلًا:

- رولا هي عريفة زوجتي بالضبط، فقط لو سمروا رولا بلون عريفة، أو بيضوا عريفة بلون رولا، لما كان هناك فرق.. كان الزائر يقهقه بفداحة بينما رحت أتحسر على زيتون أكثر من تحسري على حياتي التي ضاعت، أعرابي كان يلحس النار الآن يترك غرباء تافهين يتذوقون مذيعة يعتقد أنها زوجته.

كان ثمة اقتراح قد قدم من أحد أصدقاء الأسرة، جاء في أحد الأيام للزيارة، وعثر على عدد من أرباب السوابق وسائقي لواري السفر جاء بهم زيتون من حي (التخنة) القريب من حينا نسبيًا، بعد أن عرف طريقه. كانوا جالسين في الصالة الرئيسة يدخنون الشيشة ويلعبون (الكنكان)، وتخرج من صدورهم ضحكات صاخبة.. اقترح الصديق أن ننقل حياتنا إلى بيت آخر تاركين المنبرع يعيش على هواه برفقة بعض الخدم؛ حتى تنتهي تلك المعضلة التي لم يبق منها الكثير، ثم نعود إلى بيتنا بعد ذلك. أيده أبنائي كلهم، ومرافقي كلهم.. لكنني أبيت.. وكذلك أبت زوجتي.. هناك أخطار

جسيمة في الأمر.. ماذا لو أضر الأعرابي نفسه بكثير من الضرر في غيبة المراقبة ؟ ماذا لو مات من مخدر أو طعنة سكين؟.. لا.. لا لم يبقَ سوى شهر واحد أو أكثر قليلًا.. وتنتهي براجمه المخربة في بيتي..

في أحد الصباحات وكنت معذب المزاج إثر نوم متقطع كله كوابيس، طرق زيتون على تلك الغرفة الضيقة التي نقلت إليها خصوصيتي بعد أن التهم هو (ماستري) المجهزة.. كان يحمل في يده ورقة بيضاء من أوراق كراسات التلاميذ ومكتوب عليها بخط مكسر لابد أنه خطه الأمي، كلام لم أستطع فك رموزه من الوهلة الأولى.. قال: أحضر عودك والحق بي. التزمت بكلامه ليس عن رغبة، ولكن عن فضول وتبعته إلى الصالون حيث جلس يقرأ وبصوته الذي لم يتغير أبدًا.

في ساعة العصير
مرقت عريفه حلاتا.
مابتشبه عيال النوبة والفلاتة
قلبي وقف وكت ضحكت
مع رفقاتا.
مابتشبه سوى الناقة
الملت ضرعاتا.
جاها الوسمي خلاها
ام ضرع مليانه
رتعت في الحشيش
لامن بقت شبعانه
ليكم يا عرب
مني الرسالة أمانة

تدوها ام ضروع
بالانبساط رويانه
كركر كري لامن
كركرتبي العيشه
وعريفة البنات فوق
العيون مافيشه
يارب يا كريم
خلي الضهاري حشيشة
شان ترتع غزالتي
الفي الصويعة دفيشه.

قصيدة تشبه (مسادير) الأعراب بشدة،تلك الغزليات المستلفة من بيئاتهم، والتي اندثرت تمامًا في عصرنا الحاضر، ولا يمكن العثور عليها حتى في أذهان جدات مخرفات، لكن ما هذا يا زيتون؟

- إنها الأغنية التي ستغنيها من كلماتي، ونستقبل بها عريفة حين تأتي.

محبوبة تحمل ضروعًا ممتلئة باللبن،وترتع كأية بهيمة في صحراء يجلدها مطر (الوسمي)، محبوبة ناقة.. تصوروا، أن يقف إمبراطور الغناء، وحامل مجده في مدرج جامعي يغص بالجمال والثقافة ليغني تلك الأغنية، يقف في عرس من أعراس الطبقة الراقية،فيه وزراء ورجال أعمال، وغيد مدرعات بالحلم والدهشة، أو يسافر بهذا الهرج إلى دولة عربية وأوروبية...هذا ما كان ينقص حنجرتي، أن تتحول إلى نفير صحراوي في زمن التقنية.. هذا بالتحديد لن يكون.. بيتي الذي تركت تجهيزاته وخصوصياته لزيتون من أجل كليته، كنت أملكه، لكن حنجرتي حقيقة لا أملكها.. إنها حنجرة

شعب.. الآن فقط اكتشفت غفلتي، غفلتي التي سمحت بكل تلك الفوضى.. من أجل عمر ممتد.. وللأسف يمتد لينسى الناس (إعمار شعب).. وما سبقها أو تلاها من أغنيات راقية، ويتذكرون أغنية الصحراء..لن يحدث هذا أيها المتبرع.. خذ كليتك واخرج من حياتي.. رددتها في سري أولًا، ثم صدحت بها عالية أمام تلك القدم المشققة الموضوعة على القدم المشققة.اخرج من بيتي الآن حالاً.. اخرج..

أمسكت بزيتون من بروز كتفيْه، جررته في حنق ثم فتحت الباب، ألقيت به في الطريق.إذا كان معجبو فني يريدونني حقا، فليشعلوا حملة أخرى، ربما أظهرت متبرعًا جديدًا يعرف قيمة الذهب، وإلا فليتركوني ألحق بدودة القز..هذا الشاعر العظيم حقًّا، والذي عرف كيف يموت دون أن يحتاج إلى مساندة واحد مثل زيتون.. أعرف أن أسرتي كلها ستنهار حين تعرف بالخبر، أعرف طبيبي الذي قد يصاب بصدمة، وأعرف الصحف التي ستسلقني وتتهمني بالتكبر و برفس النعمة.. لكن كان هذا قراري.

في نهار اليوم ذاته جاءني الجراح لاويًا حنكه بعد أن زاره المطرود ليخبره بما حدث، كان برفقة عدد من أصدقائي من ملحنين ومغنين، ومسؤولين عن حملة الاستثمار في الذهب، وعرفت أنهم قضوا عدة ساعات يحاولون أن يقنعوا الصحراوي بتحديد ثمنٍ لكليته والبقاء بعيدًا في أي سكن آخر أو فندق، إلى أن يحين موعد العملية، ومن ثم يذهب في سبيله.. لكن المتبرع رفض تمامًا.. قال: أريد الثواب فقط.. لا شيء غير ثواب الآخرة، ولن أقيم في أي مكان غير بيت ذهب.. ولن أتبرع بكليتي وقصيدتي عن عريفة تعامل هكذا.. خاطبني الجراح محاولًا أن يستعين بمرح لم يكن حقيقة موجودًا في صوته ولا قسمات وجهه التي كانت ممتلئة بالهم:

– لابد أنك فقدت روح الدعابة يا سلطان.. يا رجل.. أي لحن لهذه الضروع الممتلئة سيرضيه.. فقط أشعره أمام زوجته أنه كتب فيها شيئًا ذا قيمة.. لم

تبقَ سوى أيام وتنتهي منه.. أرجوك لا تمت من حماقة..نحن في حاجة إلى حنجرتك.

وعقب مسؤول حملة الذهب:

- إذا أردت فسنطلق حملة أخرى، ولكن ماذا لو لم يظهر متبرع آخر ؟.. لا تقل إنك تريد أن تموت.. فلن نسمح لك أبدًا بذلك.
- عندئذ سأقبل بزيتون.
- اقبل به الآن واخلص من هذه المسألة.

قال الجراح الذي بدا لي مهتمًا بشهرة مستقبلية قد ينالها من هذه البذرة الصحراوية التي سيبذرها في أحشائي..

- لا.. أضيفوا إلى الحملة بعض المغريات.. ربما خرج أشخاص جدد هذه المرة.

قلتها بحلقي كله، واسترخيت في مقعدي.. كنت في حاجة إلى بقية النهار لأظل مسترخيًا هكذا، إلى ليل طويل أنام فيه بلا زيتون، وأيضًا إلى عودي المهمل لأنقش عليه لحنًا. في ذهني قصيدة كتبتها شاعرة رقيقة اسمها (أسماء) وكانت مرثية راقية لزوجها الطيار الذي مات في الحرب، سلمتني إياها منذ عام مضى وأهملتها..سأبدأ في نقشها فورًا.. ربما كانت أغنيتي الأخيرة، أو ربما كانت مرثيتي لنفسي.. موت الحرب بالتأكيد أفضل من الشعور بأنك قد تعيش بكلية لا تحبها.. تكرهها.

-٧-

انطلقت الحملة الجديدة للبحث عن كلية بديلة لنكبة (زيتون)، بشعار جديد وتقنيات مختلفة، أبعدتها إلى حد ما، عن أي تلف قروي ربما يحدث ويفسدها . كان الشعار هذه المرة ليس «استثمر في الذهب»،كما كان سابقًا، ولكن (امتلك الذهب من ملك الذهب) .وفسر هذا الامتلاك الذي دعمته الحكومة بروح وطنية أو سلطوية، لا أدري، بأن المتبرع الذي تتطابق خواصه مع خواص المطرب الكبير أحمد ذهب، سوف يمنح ترقية فورية إن كان موظفًا، وإذنًا من وزارة التجارة لاستيراد البضائع التي تلائم نشاطه، إن كان تاجرًا .وفي حالة أولئك الفقراء من مزارعين وعربجية، وغسالين وكناسين، ومن هو في فئتهم، سوف تخصص حصة من المال اسمها (ماء السبيل)، وتكفي لبداية حياة جديدة ليست بعيدة عن خط الفقر، ولكن في حدوده. كان عدد كبير من المتطوعين قد بدأوا في تسجيل الحشود المتبرعة،وإلغاء أي اسم ثبت عدم جدوى دمه في الحملة السابقة. أيضًا كانت تقنية (الإنترنت) حاضرة بكل خوادمها ودردشاتها، وخيوطها العنكبوتية؛ حيث خصص بريد إليكتروني مدفوع الاشتراك، لتلقي طلبات التبرع والرد على مرسليها فورًا، وأنشئت صفحة راقية بتقنية (الفلاش) اسمها (ذهب دوت كوم)، يتسنى لمستخدمي هذه التقنية الدخول إليها، والاطلاع على موادها من سيرة ذاتية معدلة بأيدي عدد من (الديكوريين)، إلى صور عائلية بهيجة، وبورتريه يمثلني ممتلئا بالشحوب من أعمال العراقي (إسماعيل عزام)، وأيضًا ألحان مؤثرة، وأخرى يرقص لها حتى مؤشر الحاسوب .

كان لابد من تبرير مقنع تتناقله الصحافة النمامة، داخل الوطن وخارجه بخصوص «زيتون» الذي عرف العالم كله بأنه متبرعي الوحيد. لم يكن بالاستطاعة الادعاء بأن

كليته لم تلائم جسدي؛ لأن حجم ملاءمتها قد كتب ورسم ونشر في كل ركن .ولم يكن بالإمكان الادعاء بأنه رفض التبرع؛ لأنه لم يرفض حقيقة ..

جلس المنظمون ساعات طويلة ينحتون أذهانهم، يستعرضون المبررات القاسية واللينة،الطيبة والخبيثة، المهضومة، والمدرة لعسر الهضم. وخلصوا إلى أمر واحد: السكوت كأن «زيتون» ذلك لم يكن أصلًا .. السكوت حتى لو هاجت الصحافة وماجت، ونشرت على صفحاتها الأولى صورة أعرابية مبتسمة أو عابسة الأسارير .. فهو لم يكن.

أظنني استرحت إلى هذه التطورات كثيرًا، التفت إلى بيتي المهدم معنويًا، رفعت من معنوياته، بل بنيتها أعلى مما كانت من قبل .. إلى بؤس ترتيبه، وأعدته البيت القديم الشامخ، البيت المفروش بسجاد (أكبر) و(بهزاد)، والمزين بلوحات موقرة من أعمال (راشد دياب) و(سلمان المالك) و(العزاوي) و(سنان المسلماني). عثرنا على أحد أحواض سمك الزينة مشروخًا في قعره، رممناه، عثرنا على طاولة العاج الكبيرة الموضوعة في صالة البيت عليها آثار تبغ محروق وبصاق لزج، أزلناه، عثرنا على بقايا (سعوط) و زجاجات بيرة، وحبوب (أنتي - فاتيكان)، وسبع صور عارية للمطربة (شاكيرا) وعدد من مجلة (دنياك يا جميلة) .. نظفنا ذلك كله.وعثرنا في النهاية على إحدى الخادمات تمشي بدلع وتتحدث بتأوه وتضع مكياجًا ثقيلًا على وجهها، عرفنا أنها سقطت في حب (التلب) الخفير، اقتلعنا الحب من فؤادها بعد أن هددنا بإلقائها إلى الطريق إن بقيت عاشقة.

أغنية (أسماء) لزوجها مجاهد الطيار، الذي ضاع في حرب الجنوب، الآن جاهزة للغناء وبلحن قوي مستمد من عظم مأساتي ذاتها.. لعلها أغنيتي الأخيرة، أو لعلها مرثيتي التي أبكي بها على نفسي. لم أسمع عن «زيتون» شيئًا في تلك الأيام العشرة

التي أعدت فيها ترتيب نفسي، وقرأت تحقيقًا في إحدى الصحف يتهمني بالهلوسة، وآخر ينصفني ويسميني سلطان السلاطين صاحب الكرامة، وسمعت أن إحدى المجلات التي كانت بلا قراء، وتطبع بتقنية (الأوفست) القديمة، قد رشحته رجل العام المحلي متقدمًا على منافسه (مبارك مبروك) الذي كان عاملًا للسكة الحديد في إحدى المحطات الخلوية،وعين وزيرًا للأشغال العامة.

في ذلك اليوم الذي اقتلعت فيه «زيتون» من منزلي، جاء عدد من سائقي السفر ومساعدوهم،وأرباب السوابق، من حي (التخنة)،أسماء مثل (عفرتة) و(ترللي) و(كلب الحر) .. كانوا يحملون إدمان سكر، ونظرات معاتبة دقوها في فناء بيتي الخارجي، سمعتهم يصرخون، فخرجت:

- لدينا دور في الكنكان لم نكمله .. أين المعلم «زيتون»؟

ووقف الخفير التلب أمام الباب في الساعة التاسعة مساء ..كان يصيح في جنون:

- اليوم الحلقة الأخيرة من مسلسل (للعدالة وجوه كثيرة) .. من هو جابر نصار في الحقيقة ؟..وما ذلك السر الذي يخفيه؟ .. ما مصيره مع زوجته؟ .. افتحوا الباب .. افتحوا ..الحلقة الأخيرة.

جلسنا أنا والشاعرة (أسماء) وعدد من معارفي ومعارفها في أحد المساءات خاشعين، كنا نستمع إلى لحن (مرثية مجاهد)، الذي خرج أخيرًا من خبرتي الفنية . ارتوت منه حنجرتي، تلقفه العود الحزين فأغرقه دمعًا، وقمت بتسجيله على شريط كاسيت لأسمعه لهذه الكوكبة .فجأة اقتحم علينا ذلك الخشوع المرمري جسد مارد لكمساري اسمه (سفّة) .. كنت قد رأيته مرارًا في تلك الجلسات البغيضة التي كان

يقيمها «زيتون» في بيتي. ويبدو أنه دخل بمفتاح كان يحمله «زيتون» ونسيت أن آخذه.

- «زيتون» يريد حاجياته كلها.

في الواقع لم يكن «زيتون» يملك حاجيات في بيتي، ذلك ببساطة؛ لأنه كان يعيش فيه بحاجياتنا، ملابسنا ... أحذيتنا .. وحتى معنوياتنا الشخصية . فقط تلك الهلاهيل الصحراوية التي جاء بها، والتي انتهت غالبًا في إحدى سلال المهملات.

- «زيتون» لا يملك شيئًا هنا.
- بل يملك.
- قلت لا يملك.
- قلت يملك.

دق سفة على طاولة فاخرة بقربه حتى اهتزت، وسرى اهتزازها إلى اللحن المناسب من آلة التسجيل، وجرحه . نهضت من جلستي، ونهضت الكوكبة كلها؛ كنا مستعدين لإراقة الدم إن دعا الأمر، لكن في اللحظة المناسبة جاءت إحدى الخادمات تركض، كانت تحمل حقيبة جلدية صغيرة يبدو أن حياتي «حياة الحسن» ملأتها بأي شيء، سلمتها الخادمة لسفة الذي أخذها وانصرف، بعد أن أمسك أحد الحضور بيده التي تؤرجح المفتاح وأخذه.

عاد الخشوع إلى بدايته حين أعدت الأغنية من جديد، وفي ذلك المساء ألح عليَّ الحاضرون بشدة، أن أستعيد بعضًا من بريقي الذي دفنه المرض، أو كله، وذلك بأن أغني في حفل كبير ينظمونه خصيصًا بتذاكر غالية، ويكون جزءًا من حملة امتلاك الذهب .كنت قد بدأت أكتسب سخاء لم أكن أمتلكه في السابق؛ حيث كنت أغني

حتى للطلاب وفقراء الأرض بأسعار ربما يسلخونها من لحم قوتهم، لا يهمني ..ما داموا يريدون السلطان، فليدفعوا فدية الرؤية ..قلت :

- فليكن الحفل في مدرج الجامعة الرئيس، ومجانًا بلا تذاكر.

صفق الحاضرون بشهية واضحة في اليدين، قالوا: سلمت يا سلطان .. سلمت.

ابتدأت بمرثية (مجاهد) في حفل هائل، وفي مدرج سعته ألفا شخص كان معظمهم من المتعلمين الذين أعتبرهم سماد مسيرتي الفنية، والأكتاف القوية التي تسلقت عليها أغنياتي إلى أن وصلت إلى السطح. لم أكن خائفًا من انهيار هذه المرة، وكانت كليتي قد غسلت في النهار بذلك الليف والصابون، سكر الدم في معدل مقبول، ضغط الدم في معدل شبابي، ومعنويَّات قلبي أيضًا اغتسلت حين وعدتني (كوثرات) المستشفى كلهن بالحضور والمشاركة . ابتدأت:

يوم سافرت من عينيْ.
سفر عتمة ومحاقة ليل.
ما اتخيلت ترحالك.
يطول طول النهار والليل.
كأنك قلت ليْ برجع.
أجيك شمعة ولهب قنديل.
كأنك قلت ليْ زادك.
حملتو معاك لي فد ميل.
واليوم العيون تبكيك.
خلاص ما عدت ليها دليل.
مجاهد يا إسم وافعال.

شيال التقيل وتقيل.
أحبك يا حبيب وانزف.
على التربة البقيتا نزيل.
على الخيل الوقع سيدها.
يا فارس ركوب الخيل.
يجوني من الجنوب شايلين.
تقاسيم الألم منديل.
يقولوا مجاهد البهواك.
دواك المافي متلو مثيل.
سكن أرض الخلود وبعيد.
عن السكة ونواح السيل.

أحدثت مرثية الطيار مجاهد فعلها لدى حضور الحفل، انتبهوا فجأة إلى تلك الحرب الشهوانية المجنونة، التي اغتصبت نضارة عيالهم ولا تزال، بكوا حقيقة، وبكيت معهم وتحول المسرح إلى جوقة من البكاء المحموم، يحيط بي . لم أر «زيتون» في البداية وسط تلك الحشود، إلى أن لامس كتفي، بل هتك كتفي بطريقة الصحراء ذاتها،كان يرتدي قميصًا أخضر مفتوح الصدر، وبنطلونًا من الجينز الرخيص يبدو مقشرا عند الوركين، ابتسم سارقًا حزنًا جليلًا من ألفي شخص كانوا يتذكرون (مجاهدين) آخرين ضاعوا منهم في حرب الوباء تلك. قال:

- سجلت اسمي في قوائم المتبرعين لإنقاذك يا ذهب .. أُريد الثواب .. الثواب فقط .. سلام.
- ثم تدهور إلى الوراء في حركة سريعة، واختفى في لجة الحفل.

أكملت ما تبقى من أغنيات بعناء شديد، برغم الهتافات، والزغاريد، وعيون (الكوثرات) اللائي صعدن إلى المسرح لتحيتي .شعرت ببوادر الانهيار ذاتها .. دوار الرأس، ارتعاش الساقيْن، طعم الأمونيا في الحلق، لكنني لم أسقط . أردت أن أظل كما أنا، باكيًا على مجاهد بدموع أسماء، ومغنيًا للشعب الذي يعشقني، وساخطًا على كل دكتاتور يتورم بمسكنة ذلك الشعب .وكما توقعت كانت مرثية مجاهد وما تلاها من أغنيات مهيجة أخرى، بمثابة الطلقات التي كان ينتظرها الغضب ليشتعل محلقًا .. حملتني الجماهير على أكتافها، يتبادلني الشباب والطاعنون، إلى أن أوصلوني إلى باب القاعة .. كان هتافًا معاديًا للحرب، ذلك الذي انطلق، صياحًا مطالبًا بالسلام، ذلك الذي انكتب . كان «زيتون» هناك عند باب القاعة،كان يتحدث إلى فتاة ضاحكة ومبعثرة الشعر، في وجهه ملامح منتصر، وفي فمه علكة يمضغها .توقف عن حديثه حين خرجت، اقترب مني بحيث لم أعد أستطيع تمييز وجهي عن وجهه، ودخل في أكثر من عشرين صورة نشرت لي بعد ذلك في الصحف المختلفة .. ليس دخول معجب يزاحم ليقترب من فنانه، ولا دخول رجل أمن يحاول تفريق الزحام، ولكن دخول صديق عزيز التقطت له صور تذكارية.

في هذه الليلة ، لم أستطع النوم إلا بالقدر الذي سمح لكابوسيْن محترميْن أن يدغدغاني.. يسدان شهية الحياة في نفسي ..كان الأول عن دودة القز الذي مضت أعوام طويلة على موته بالطبع، رأيته ملفعًا بشال وعمامة مبتليْن بسائل أسود اللون خمنت أنه دمه، وكان يخرج من إحدى ماكينات الغسيل الكلوي ويدخل إليها، ناديته مرارًا فلم يلتفت، وحين فعل.. صرخت رعبًا .. كان يحمل وجه ثعلب ميت .استيقظت ألهث، وجدت نفسي مغموسًا في عرق لزج، وأطرافي كلها باردة برودة الصقيع، لململت نومًا جديدًا بصعوبة بالغة، لكن كابوسًا آخر دحره وأوقدني مستيقظًا هذه المرة حتى طلعت الشمس .. كان كابوس «زيتون» اللاشعوري ..والذي كان يجب أن أتوقعه .. رأيت (أبو زيد زيتون) يخرج أمامي فجأة من ثقب في حائط

الصالون .. كان بهيئته الأولى التي جاء بها من الصويعة، وقف بقربي .. أدخل يده في أحد جانبي واقتلع كليتي، ألقى بها بعيدًا.

لا أذكر كم يومًا بالتحديد، استغرقت حملة الغربلة الجديدة، لكن أعضاء اللجنة المنظمة جاءوني في أحد الأيام يحملون البشرى، كان برفقتهم جراحي الذي اضطربت حياته المهنية منذ أن دق صدره، وصدورًا أكثر اتساعًا من صدره بقيت بعيدة عن الدق .جلسوا وجلست، وقال رئيس اللجنة وفي صوته فرح خيل إلي إنه يجاهد كي يكون فرحًا:

- فحصنا مائة ألف متطوع، واستلمنا أكثر من مائتي ألف بريد إليكتروني، زار موقع (ذهب دوت كم) عدد من الزوار لا أستطيع حصره .وأخيرًا عثرنا على المتبرع المطلوب يا سلطان.

قفزت من مقعدي واحتضنته، بتلك التقنية التي استحدثت، وذلك (الفلاش) الذي ابتعد عن جفاف الصحارى، وبدائية القرى المروية بالذباب والملاريا،لابد أنهم عثروا على (مستر) أو (مسز)، أو على أقل تقدير، على مواطن يرتدي القميص والبنطال في تناغم .مضيت إلى بقية أعضاء اللجنة، احتضنتهم كلهم، وخصصت الجراح العظيم باحتضان خاص ..قولوا: من أين جاء؟ .. وما اسمه؟ .. وهل طلب ثمنًا محددًا لكليته؟

شملني الجراح بنظرة كبيرة خيل إليَّ أنها تحمل مخدرًا رشته في جميع أجزاء جسدي، فتخدر ..ثم نطق:

- جاء من الصويعة يا سلطان .. إنه أبو زيد زيتون.

انهياري هذه المرة لم يكن من أمونيا أو من بروتين مهلك يفيض في الدم، لم يكن من تسمم في حويصلات الرئة، أو إعاقة في وظيفة القلب والكبد، ولكن من عصب جريح بسكين حادة الحواف .سكين الصويعة وزيتونها . كنت في حالة سيئة حين نقلوني إلى المستشفى .. أفكر ألف مرة في تلك الهبة الوراثية غريبة الأطوار، التي صيرت أعرابيا مثل «زيتون»،شبيهًا بإمبراطور مثل أحمد ذهب .

-٨-

يوجد مائة داع لأصف عودة الركاكة مرة أخرى إلى بيتي الذي جاهدت أسرتي كلها في إعادة خامات الحياة السلسة إليه بعد معركة زيتون الأولى. على أثاث الصالون المميز، ركدت أشرطة الكاسيت التي تتجاهل تراثنا كله، وسمعتنا كلها، وتمجد مغنين أمثال (دردم نعامة) و(عثمان هيصة) و(جلود مجلود)، هؤلاء العربجية ومتسولو لقمة العيش الذين لا يعرف أحد كيف تحولوا إلى مغنيين، وكيف راجت أغنياتهم والواحد منهم لا يملك حتى صوت هرة تموء؛ أذكر في أحد الأيام، أن جاءني واحد اسمه (عزو جمباز) كان ـ في الأصل ـ حاويًا يطوف بمدارس الأساس، يعرض تلك المسخرات التي تجعل التلاميذ ينحلبون انبهارًا. .اختفاء طاقية كانت على رأس.. خروج عدد من البيض من قعر علبة مربى فارغة، تحول المنديل ذي اللون الأزرق إلى دجاجة، وفتاة ممشوقة القد تنشق إلى نصفين دون أن تغير ابتسامتها. لا أدري هل بارت تجارة الحواة، أم أن عزو جمباز أراد أن يغير جلده؟.. كان منتفخًا وواثقًا من مستقبل الأيام حين قال: هاك هذه الأغنية واحكم بنفسك، كانت أغنية مستوحاة من غروب كلاسيكي أمام نهر كلاسيكي، وبرفقة حبيبة كلاسيكية، تبكي بدمع كلاسيكي. كانت هذه هي الكلمات، وكان اللحن أكثر بذاءة حين اكتشفت أنه صوت نباح منغم اشتهرت به الكلاب التي تقيم في الحي الذي يسكنه. طردته من بيتي، وحذرته من محاولة الاقتراب من عالم هو بعيد عنه.. لكن بعد مرور عدة أشهر من ذلك.. حققت هذه الأغنية النابحة ذاتها لعزو جمباز أعلى مبيعات للكاسيت في البلاد؛ ليصبح الحاوي فنانًا على الرغم من أنف الإبداع. بجانب تلك الأشرطة في الصالون، كانت تركد أواني (التمطير) كما يسمونها.. تلك التي يحول التمباك الخام داخلها بعد إضافة مادة (العطرون) إليه، إلى ذلك الذي يمكن سفُّه. في الممرات المتبلة بزهور النرجس والغردينيا، ركضت

ضحكات السفه والخلاعة، وسرى الكلام الذي كان كله روايات كاذبة في شموخها، لأناس لا يعرفون في الشموخ حتى اسمه. وجدتهم قد أضافوا وشمًا للبورتريه العظيم الذي رسمه العراقي (إسماعيل عزام)، وأضافوا إلى لوحة (الخيول) لسنان المسلماني، التي كانت إهداء خالصًا منه حين التقيته مرة خارج البلاد، نساء عاريات لا يشبهن العري الإبداعي في أي شيء.في المطبخ ذي الرفوف المذهبة، ثمة حلل تطبخ عليها أكلات (القطار قام)، و(الضرابة)، والعدس المجروح بالكبدة.تلك الوجبات الشهيرة لسائقي السفر. واستخدمت مقلاة البطاطس في قلي عدد من الضفادع، جاءوا بها من إحدى البرك.كان التلب يردد: إنها وجبة فرنسية.

طرح السؤال القديم مجددًا.. طرحته أنا، وطرحه منظمو حملة امتلاك الذهب، وطرحه الجراح الذي بدا متبرمًا، أو متعجلًا للشهرة لا أدري؛ لأن إجراءات منح الكلية لابد أن تبدأ من جديد، ملغية كل خطوة تمت في هذا الشأن من قبل.تقارير تسافر.. تقارير ترجع.. خطابات تطير.. خطابات تحط، ونخل سامق من الانتظار ينغرس في تربة الحس.. السؤال:

- ما ثمن كليتك يا زيتون؟

الجواب:

- لثواب.. لا أريد شيئًا..الثواب.. الثواب فقط.

أصبحت هذه الجملة محل تداول واسع في جميع أنحاء البلاد، كتبتها الشقاوة على الحيطان، وعلى الطلاء المقشر للباصات وحافلات النقل العام، ظهرت أغنية لترقيص العرايس في الأفراح، اسمها أغنية (الثواب) وطرحت في الأسواق كمية كبيرة من ثوب (الثواب) النسائي المزخرف. تقف في صف السينما، فينشلك أحدهم ويقول لك: الثواب.. الثواب، تشتري حفنة من الليمون بثمن مرتفع، فيرفع البائع

يده في وجهك مرددًا: الثواب.. الثواب، ويعتقلك أفراد الأمن الوطني، يضربونك ويرفسونك، ويقتلعون عينيْك، وهم يصرخون: الثواب.. الثواب. وبإيحاء من تلك الجملة أيضًا، بثت قناة الجزيرة الفضائية تقريرًا واسعًا بالصوت الفخم لمعلقها (فوزي بشرى)، كان يتحدث عن فدائية غير مسبوقة للصحراوي (أبو زيد زيتون)، نسبه إلى فدائيين كبار فجروا لغمًا أو فخخوا شاحنة، أو وثبوا على الأعداء في غرف نومهم. وقال التقرير:

(هذا الصحراوي الشهم برغم طرده من قبل المغني المعروف أحمد ذهب، فأنه عاد لينضم إلى الحملة الجديدة التي انطلقت لإنقاذه.. لا يريد سوى الثواب.ألمح الآن ضوءًا يتركز على قرية (الصويعة) الخلوية على تخوم القضارف، أرى عمدتها (عاكف نقوش) يضع حجر الأساس لمدرسة ابتدائية، أرى الحاجة (كثيرة) تستعد لصنع عشاء أحفادها الصغار، وأرى الشابة المليحة (عريفة زعَّال) تستعد للسفر لمؤازرة زوجها في بحثه عن الثواب). واستطلعت القناة أيضًا آراء عدد من الأعراب زودوها بسيرة فذة لابن الصويعة (أبو زيد زيتون)، كان أبرزهم الحجام (موسى) الذي قال إنه تنبأ بتلك الفروسية منذ سنوات طويلة، حين فصد الصبي زيتون و لم يسمع صوته يبكي.

في رأيي لو كان زيتون يريد الثواب حقًّا، لظل (صويعيًا) في هذه البلدة المنسية، يرعى بهائمه، ويتغزل في (عريفته) دون ضرر أو ضرار، لو كان يريده لقبع ساكنًا في أي جحر توفره له حملة التبرع؛ حتى يتم اقتلاع كليته وزرعها في جسدي. ترى في ماذا يفكر ذلك الزيتون؟.. ولأي هدف يخطط؟

من يصدق أن عبقرية تنسيق الأنغام التي ارتقيت بها السلالم الخماسية والسباعية طيلة أربعين عامًا أو تزيد، مسلحًا بأزهار (دودة القز)، وعطوره الفواحة، الآن باركة تعمل على أغنية الضروع التي كتبها زيتون في عريفة ؟. كنت أنادي على زيتون من

حين إلى آخر، أسأله عن معاني الوسمي، والدفيشة، ومفردات البيئة التي أجرمت حين منحته هذه القصيدة الكارثة، أحاول أن أستقي جماليات ربما كانت مخبأة في عريفته؛ حتى تعينني على التلحين. كنت مجروحًا ومرغمًا، وأنتظر قدرًا مجهولًا، أتذكر كلمات الجراح حين قال عن زيتون وتداعياته: ليست أغنية لشاعر لا تحبه، ولكن أغنيتك التي يجب أن تغنيها شئت أم أبيت. أحس بسخط على حماقتي التي أضافت عدة أشهر أخرى، كانت ـ في الواقع ـ محذوفة لولا تلك الحماقة. حين فرغت من ذلك اللحن الذي سميته لحن (إهانتي) أو لحن (عزلتي)، استشرت أحد أصدقائي الشعراء، إنه (ثابت صلاح) الذي كتب لي أغنية (نار الوجد) التي فازت بجائزة عربية، كنت أريد أن أعرف متى أغني تلك الأغنية، بأي وجه وأي زي، ولأي فئة من جماهيري المتعددة الأمزجة ؟. كان الشاعر من مجايلي دودة القز، وكانت له حكمة الشعر، وحكمة إبداء النصائح، يعرف السلاسة ويعرف النشاز، ويستطيع أن يصرخ في أي وجه مهما كان لامعًا: (استوب). قال الشاعر في جدية كبيرة:

- هذه ليست أغنيتك المعاصرة يا سلطان، ولا تستطيع أن تسميها تراثًا من كنوز البدو؛ لأنها ليست كذلك. لكننا نستطيع أن نجعلها أغنيتك.
- كيف؟

صحت منفعلًا..

نلوي ذراعها يا أخي.

كان كلامًا شاعريًا كبيرًا لم أستطع الولوج إلى معناه حقيقة، تلوي ذراع صبي، ذراع نشال وجدتها في جيبك، ذراع امرأة سليطة اللسان، ولكن كيف ذراع أغنية؟ سألته:

- وكيف ذلك؟

أمسك الشاعر بجسد القصيدة، حذف بقعة دهن وأضاف عطرًا، أمسك بجسد اللحن أيضًا، كسره في مواضع، ورتقه في مواضع أخرى، ثم سلمني أغنية زيتون مغسولة بعض الشيء. بالطبع كان لابد من موافقة كاتبها العشوائي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وافق دون حتى أن يسأل لماذا.

سألت الشاعر مرة أخرى:

- وأين أغني تلك الأغنية؟

كان في ذهني في ذلك الوقت عرس لأحد عازفي فرقتي، وكان يسكن في أحد الأحياء التي يمكن لسكانها أن يتذوقوا الفحم لو جاءهم ملحنًا. وأعتقد أنهم أنفسهم الذين أسهموا في انتشار تلك الركاكة التي جاء بها (جلود مجلود) ورفاقه. قلت للشاعر: ما رأيك في حي السلاليب؟

صفق بيده ابتهاجًا:

- رائع يا سلطان.. لقد وصلت.. ولتكن نقطة البداية.

كعادتي منذ أن فشلت كلويًا، لم أكن أعطي موعدًا لحفل أو حوار أو حتى دردشة عادية بين أصدقاء، إلا بعد أن أغتسل بالليف والصابون الميكانيكي؛ أحس بصعود في المعنويات، وإمكان أن أظل مسنودًا حتى ينتهي الارتباط. وفي يوم العرس ذلك بدوت ملهوفًا أكثر مما ينبغي، كنت أريد أن أدفن تلك الركاكة لدى السلاليب وأعود ظافرًا إلى بيتي.. ولن يهمني بعد ذلك لو قامت الأغنية من قبرها أو تفتتت. لن أرددها مرة أخرى، وكان اقتناعي بأن فشلي اللعين هو الذي لحنها ولست أنا على الإطلاق.

ذهب زيتون معي بالطبع، وذهب (التلب) أيضًا، وذهبت تلك الخادمة التي اقتلعنا الحب من قلبها أو هكذا ظننا؛ لأنه يبدو أن جذوره مازالت باقية، ونمت إلى حب كامل بعد عودة الركاكة. كان جمهور السلاليب محتشدًا منذ العصر كما قيل لي، رجال متأنقون في حدود إمكاناتهم، ونساء متأنقات في حدود إمكاناتهن، وإمكانات أخرى ربما استلفنها من أحياء أخرى. حتى المراهقين والرضع كانوا متوفرين، ووحدة من عساكر مكافحة الشغب كانت ترابط عند مدخل الحي ومخرجه، وأزقته المعتمة، بعكاكيزها، وخوذاتها، وغازها المسيل للدموع. أيضًا كان صديقي الشاعر الذي لوى ذراع الأغنية، موجودًا.. ليس ضيفًا عاديًا يأكل ويشرب ويطرب، ولكن مقدمًا لفقرات ذلك الحفل غير العادي:

- سيداتي وسادتي.. ما زال الليل طفلًا يحبو.

جملة السهر المملة التي أجزم بأنني سمعتها حتى الآن أكثر من ثمانين ألف مرة، واحدة من الجمل التي لا أحبها، تمامًا مثل جملة (الرعيل الأول) التي تلصق أحيانًا باسمي، و(الراحل المقيم) التي ستلحق أيضًا باسمي ولكن بعد أن أرحل... رددها الشاعر ليس إيمانًا بها، ولكن لأنها الجملة التي ينتظرها جمهور السلاليب لينتعشوا، ويحسوا بأن حفلهم مكتمل.

- سيداتي سادتي.. إليكم الذهب.. ولكن المفاجأة.. هذا الشاعر الجديد والمجيد.. النجم الذي سوف يسطع قريبًا في سماء الشعر الغنائي، لن أقدمه لكم أكثر.. ولكن دعوا أغنية (عريفة) تقدمه لكم... أبو زيد زيتون.

وعزفت الموسيقى..
في ساعة العصير.

مرقت عريفة حلاتا.

مابتشبه سوى الغيمه.

السقت شتلاتا.

بالطبع قام الشاعر بحذف عيال النوبة، والفلاتة من ذلك البيت، استبدله بغيم حقيقي، وشتل حقيقي، لم نكن نريد إشعال عنصرية لا مبرر لها، خاصة أن أولئك وإن تخلفوا عن هجين العرب الذي أنتج مواطني الشمال، إلا أن لهم جمالهم ونكهتهم المميزيْن.

لم تكن استجابة عادية تلك التي حصدتها الأغنية، بل استجابة مدمرة.فوجئت بطوفان من الراقصين والراقصات، طوفان من الزغاريد والهياج يرج مسرح الغناء كله، يشدني إلى الوسط، ويطوح بي إلى الأطراف.. أعد.. أعد..ينتصف الليل.. تبدأ إرهاصات صبح قادم، وزيتون في وسط ذلك كله..قميصه أخضر مفتوح الأزرار، وبنطاله من جينز رخيص مجرح عند الوركين.. تشده فتاة.. يحييه رجل.. تزغرد أمامه جدة متآكلة الأسنان.

كانت المرارة تنتشر في كل شبر من جسدي وأنا أقرأ الصحف التي تناولت حفل (السلاليب) ذلك..

- عريفة.. انطلاقة المغني العملاق بعد طول تشاؤم.
- المتبرع شاعر أيضًا يمتلك حسًا دافئًا.
- ذهب يغوص في التراث البدوي، ويستخرج سبيكة يزين بها تاريخه.

الآن فقط أدركت ماذا يعني أن تكون مشهورًا، ولكن أخرق في بعض الأحيان.. لن يلتفت أحد إلى ابتذالك، وإذا التفت فسيجد ألف مبرر له.. كنت متأكدًا أن تلك الأقلام التي تمتدح أغنية الضروع، لم تكن تمتدحها هي، ولكن تمتدح التاريخ الطويل الذي كان مكتوبًا.

لكن هل هذا كل شيء؟

بالطبع لا..هنالك تلك الأيام المؤلمة، التي سميتها (أيام الصويعة) ولن تكون إلا بذلك الاسم. أيام القحط والصحراء ونجوم السماء في عز الظهر.. أيام لوحات لن يرسمها أي مستشرق مهما كبر، وأيام موت كان أهون منها موت الكلى الفاشلة.لا أحتاج إلى باب أدخل به إلى تلك الأيام.. ذلك ببساطة أنها اقتلعت الباب والحوائط الصلدة قبل أن تكون. وحين كانت..

-٩-

كان صباحًا صيفيًا ماطرًا من صباحات أغسطس العاصمة؛ حيث يتغلغل المطر في مكونات الصيف، ويحيله ربيعًا شهيًا. لم نكن مسؤولين عن خفارة بيتنا منذ أن استلم زيتون مقاليده، واستلم التلب خفارته. كنا مجرد سكان منزعجين أو مزعجين، نزوي في غرف ضيقة، غير منسقة الأثاث، تاركين الرفاهية تضيع في فوضى الصحراويين والريفيين، وسائقي لواري السفر من سكان حي (التخنة) المريض.سمعنا ضوضاء مرعبة في الطابق الأسفل ونزلنا راكضين. كنت ألهث من تصلب عروق العمر، وفيضان الأمونيا في دمي وأيضًا من إحباط لن يذهب عني أبدًا كما أتصور. وكانت حياتي أيضًا تلهث.. كانت تعاني من نقص في الدم وعصبية في القولون وأيضًا من إحباطها الخاص الذي فرخه إحباطي في نفسها...كانت الصالة الخارجية ممتلئة عن آخرها.. رجال ونساء وأطفال، متسخون وملوثون، وأجلاف حتى في تلمس البيت بنظراتهم، لم يكونوا يجيلونها في لطف ولكن يرمونها رميًا. إنهم عرب (الصويعة) بلا شك..أهل زيتون وأقاربه. الزي ذاته الذي كان يرتديه حين جاء.. البروز ذاته الذي يرفع الكتفين إلى أعلى، وتشقق الساقيْن ذاته الذي لا تستطيع أية تربة أخرى إنتاجه سوى هذه التربة القاحلة.كانوا قد افترشوا الأرض، وتسلقوا المقاعد والطاولات، كشفوا عورات ألسنتهم وبصقوا على كل ركن.وكانت أسماؤهم التي سمعتهم يتداولونها، صلدة وقاسية، وتكاد تشقق اللسان الذي ينطقها... أسماء مثل (باطون) و(الداعك)، و(حرقلي) و(سمالة) و(ستربة)، و(العارجة) و(أم خزق)، وكان بينهم رضيع يزحف على سيل كثيف من ريالته، اسمه (ذهب) عرفت فيما بعد أنه ولد بعد خروج زيتون من الصويعة وورود الأخبار عن ملاءمة كليته لجسدي.لأنهم أجلسوني بالقوة، التقطوه من سيل الريالة وأجلسوه على حجري. قالوا: قَبِّل سميك يا رجل..

قبلته بمشقة، وكانت قبلة سامة استفرغت بعدها أطنانًا من الأمونيا.

في وسط تلك الصويعة التي انتقلت إلى روضة ذهب، كانت عريفة، زوجة متبرعي الناري، وموحية الأغنية التي أوقفت حي السلاليب على قدم واحدة، ولم تقعده حتى الآن. وحركت أقلام الركود في الصحافة الفنية.. وبدأ يرددها المغنون الشباب باعتبارها أغنية خالدة أو قد تخلد ذات يوم. سأقول ماذا كانت عريفة، وباختصار شديد أذهلني أنا نفسي حين توصلت إليه بلا عناء: ليست (رولا) التي على الهواء كما قال زيتون.. ليست (رانيا) مذيعة الربط في تلك القناة المعروفة بضخ الجمال، ولا (شيري) ممثلة أدوار الأنوثة في السينما المزاجية، لكنها باختصار مرة أخرى.. النسخة المتسخة من (بروك شيلدز)، صاحبة الجينز والعطر والغيبوبة.

تناسيت طعم الأمونيا في الحلق لدقائق، أخذت أتأمل فيها فتاة الصحراء وهي تنزع عن وجهها الحياء شيئًا فشيئًا، وتندفع إلى زيتونها الذي عاد صحراويًا مرة أخرى بلباسه القديم المتسخ، وحدبة الكتفين التي ترفعهما إلى أعلى، واستخراج جمل سريعة لا أكاد أفهم شيئًا منها. أخذت أفكر وأنا ما أزال أتأمل دون وعي: ماذا لو ألقي ذلك الجسد المرمري على ماء ساخن؟.. ماذا لو دلك بصابون (فا) أو (زست)، وليف الاستحمام الطري؟، لو غسل الشعر بشامبو البانتين، ومشط بدهان (داكس)، لو دلقت قارورة من قوارير (عبد الصمد القرشي).. ملك العود والعنبر والعطور على الصدر والردفين، لو سرحت عدة قطع من إكسسوار بهيج على العنق والأذنيْن، لو جاءها خياط النساء المتغطرس (مستر عادل) كما يلقب نفسه، أخذ قياساتها، ثم كساها بفستان إبداعي مطرز؟..بلا شك لن تكون عريفة الصحراوية.. شكلًا على الأقل، ولكن عريفة أخرى نبعت من عطر حالم.

أسرفت في التأمل، بل تماديت..تصورتها تأخذ دروسًا في محو أميتها، تنجح، تنطلق، تتعلم اللغة الفرنسية، تطير إلى منتديات (الفاشون) في باريس، تتهادى بين الحاضرين كأجمل عارضة لأزياء ذلك الموسم.لعنك الله يا زيتون.. أين تلك الضروع الممتلئة باللبن التي كتبتها؟.. أين برسيم البهائم الذي وصفته ؟. حين أشفى بعد أن آخذ كليتي من ذلك الغشيم، قد أمول حملة كبيرة ويكون شعارها.. (نظفوا عريفة).. نظفوا عريفات الصحراء كلهن.

انتزعتني حياتي من التأمل بصعوبة، ظنتني أفكر في مضاعفات تلك الحملة (الصويعية) المباغتة و لم يدر بخلدها أبدًا أنني كنت أعدل من ترتيب إحدى النساء المشاركات في الحملة، وعدلته جدًا.

- لا تبتئس يا حبيبي.. عدة أيام فقط ونتحرر.. لقد تحملنا الكثير و لم يبق شيء.. الآن ابتسم.

ابتسمت.. مددت يدي لهم جميعًا مصافحًا، كنت آليًا.. أتحرك ببطء، أتلقى اللغة التي تكلمني دون أن أدقق في مفرداتها، و لم أستغرب أبدًا حين قالت امرأة عجوز منهم اسمها (حجوجة أرضي):

- يابيك.. سبابيك.. ربي يحميك.

لم تستوقفني تلك (اليبابيك) وأختها (السبابيك) أبدًا، واعتبرتها تحية عادية وسلسة.

كان التلب ورفاقه الصعاليك قد جاءوا بخروفيْن شرسيْن نحروهما في فناء البيت، بعد أن أخذوا مني مبلغًا فذًا من المال؛ بدعوى ضيافة الصحراويين.طبخوا الخروفيْن بأنفسهم، وبمساعدة عدد من نساء الحملة، وامتلأ البيت بعشرات (الضرابات) وأطباق (القطار قام). كان الرضيع ذهب قد استساغني كما يبدو، وبالقدر الذي لم أستسغه به.وجدته يكثف من الريالة ويزحف في اتجاهي، يشب على ركبتيه ثم يمسك بقميصي وهو يهز رأسه ويبتسم.يأخذونه ويعود، يأخذونه ويعود، حتى اضطرت حياة الحسن إلى تنظيفه بنفسها، وقدمته لي ذهبًا مغسولًا عليه رائحة مسك.

جاء المساء كئيبًا ومخنوقًا، ثمة رائحة مدرة للغثيان انتشرت بشدة، ثمة عادات قبيحة اكتمل رصفها، وفصول من قلة الذوق أخذت ترعى.. اختفى زيتون وعريفته في مكان سري، خمنت أنه أحد الأركان في غرفتي (الماستر) العريضة التي حرمت من الحياة حتى على بابها منذ طابقت مواصفات زيتون، مواصفاتي. لم أكن خائفًا من ضياع شيء؛ لأنني نقلت مقتنياتي كلها قبل بدء الركاكة، ولكن كنت خائفًا من أن ينتج ذلك اللقاء السري (ذهبا) آخر لا أستطيع الفكاك من ريالته مدى الحياة .اقترب مني رجل كثيف العمر كان اسمه (صلحاب) كما عرفت بعد ذلك، وكان عما لزيتون جاء في تلك الحملة لمؤازرته؛ حين يأتي اليوم الذي تنتزع منه الكلية..جلس الرجل أمامي على الأرض.. قال:

- هل قصر ولدنا أبو زيد في شيء يا كبير ؟

قلت: لا.

- إذن لماذا تعاملون ضيوفكم بهذه المعاملة؟

اندهشت فعلًا وأنا أرى الصحراويين ينتهكون حتى مسام عرقي، يتنزهون بين آهاتي التي كنت أطلقها.. اندهشت لأنهم أفطروا وتغدوا وتعشوا، وتهيأ بعضهم

للشخير، وبعضهم زحف بعينيه باحثًا عن ركن بعيد لقضاء لذة، قدمنا الحليب والضرابات.. وقدمنا حتى دماءنا.. اندهشت و(ذهبهم) الملوث لم يفارق حجري حتى نام وتبول عليه، والمرأة صاحبة (اليبابيك) و (السبابيك) أخرجت صرة من (الودع) وتحلق حولها القوم تقرأ لهم بختهم.كانت في العجوز رائحة إبل ونعاج، وكنت متعجلًا أن أريح اندهاشي..

- كيف لم نعاملكم يا عم؟
- لم تقدموا لنا (الدكراك)، ولم تفطونا (بالجقجي)، وأزعجتنا (سنداستكم).. حرمت علينا النوم.

طيبت خاطر العجوز بما استطعت من لغة حاولت أن أجعلها كلغة الصم والبكم، مدعومة بإشارات واهتزازات رأس،وأصوات مغمغمة.. وأمضيت باقي الليل أفكر بضراوة في الدكراك والجقجي والسنداسة.. أسماء غريبة تشبه أسماء المحاريث أو الشهور القبطية..ولا أظن أن متحضرًا مثلي سمع بمثلها من قبل..لابد أن الدكراك هذا شيء يقدم للضيوف.. طبق حلوى أو بخة عطر أو دواء لقتل صداع الرأس.. أو شيء مثل السعوط ينعش المزاج.. أو ربما نوع من العملة يستخدم في الصويعة وما حولها.. الجقجي الذي يتغطى به الناس هو لحاف بلا شك.. بطانية من الصوف.. هذا سهل، ولكن ما السنداسة التي تزعجهم وتحرم عليهم النوم ؟.. أرخيت أذني أتلمس صوتًا غريبًا لعله السنداسة.. فلم أعثر على شيء.. لا نقيق ضفادع ولا مواء قطط..ولا عواء كلاب ضالة.. ولا حتى طنين بعوض في ذلك الحي الذي تتعهد السلطة برشه بمبيدات الحشرات مرتين في اليوم.. روضة ذهب ليس أي حي. ولكن الحي الذي تخرج منه الرؤوس التي تتلاعب بالجاه والمال..تأرقت فعلًا وأنا أفكر.. ونهضت باكرًا أبحث عن زيتون، أستخرجه من عسله الجديد لأسأله..وجدته مبعثرًا ومنتفخ الجفون.. يجلس على أحد المقاعد، بعيدًا عن عريفته التي يبدو أنه ملَّها بعد ليلة حافلة.. سألته مباشرة

عن هذه الألغاز التي وردت في لغة عمه.. فأجاب دون أي تفكير:

- الدكراك هو الدكراك.. والجقجي هو الجقجي.. والسنداسة هي السنداسة..هذا سهل.

اغتظت من غباء متبرع كان يجدر به أن يتحضر قليلًا قبل أن يقف في تلك الطوابير التي جاءت لتعيد أحمد ذهب إلى الحياة.. آخذ كلية من غبي.. ما هذا القدر؟.. وماذا لو كانت كليته أيضًا بهذا الغباء.. لكن كيف تكون الكلية غبية.. وهي عضو مسخر لتنقية الدم وبآلية مطلقة. تركت زيتون لفوضاه وأخذت أبحث عن رقم هاتف صديقي البروفيسور (مدثر) الذي كان متخصصًا في عادات القبائل، يعرفها كلها ويطوف العالم معرفًا بها.. هذا هو الرجل الذي سيخرجني من حيرتي.. ليس لأنني أريد أن أكرم العجوز وقومه، ولكن لإرواء عطش الفضول الذي يخنقني. وبرد غريب لم أكن أتوقعه قال البروفيسور: إن تلك الألفاظ لا تمت لأية لغة، بدوية كانت أم حضرية، قديمة أو حديثة..لا عند عرب ولا عند زنج. ناقشته منفعلًا، فأغلق النقاش منفعلًا أيضًا.. لا تجادل في عالمي يا سلطان.. هذه اللغة غير موجودة.بالطبع لم أكن راضيًا عن ذلك الرد، وخلت الصديق يحاول إبعادي عن طلبات ربما إذا عرفتها ونفذتها قد تضر بسمعتي.. سألت آخرين كان فيهم عرب تربوا في نواح أشبه بالصويعة، فأكدوا بأنها لغة يسمعونها لأول مرة.. بحثت عن العجوز حتى وجدته.. كان يشرب شاي الحليب في تلذذ، لكنه صرخ حالما لمحني:

- أرجوك يا كبير.. أوقف إزعاج تلك السنداسة.

السنداسة مرة أخرى.. ما هذا اللغز يا ربي؟.. جلست أمامه على الأرض وبجلسته ذاتها.. لويت شفتي ويدي ورسمت له على البساط بإصبعي رسومًا كروكية، حوت

آفات الأرض كلها من نمل وقوارض وذئاب ضارية.. هل هذه هي السنداسة ؟..لا رد.. هل هذه.. لا رد.. لم يبق أمل إذن في معرفة لغة العجوز الخاصة.. وربما كانت مثل تلك اللغة التي كنا نستعملها أيام شقاوة الصغر.. نقول للحمار: محار.. وللعنزة.. زنعة، وحين نضبط ونحن نسرق المانجو من بساتين الغير، نصيح في بعضنا (أرجوا) ونعني بها.. اجروا..سأحاول أن أنسى تلك اللغة وأحاول أن أتفادى اللقاء بالعجوز ما استطعت، لن ينال مني (دكراكًا) ولا (جقجيًا) ولتزعجه سنداستي حتى يفرَ من بيتي.

نسيت أن أقول إنني كنت قد منحت طاقم رفاهيتي من سكرتيرين ومرافقين، إجازة منذ بدأت الركاكة التي أعقبت الحملة الأولى، وأبقيت فقط على سائقي الذي لم يكن بالإمكان الاستغناء عنه. أيضًا أنذرت جميع أصدقائي أن يسألوا هاتفيًا فقط، وألا يحاولوا الاقتراب من روضة ذهب أبدًا إلا إذا طالبتهم بالحضور.. كنت أريد أن أندفن في مستنقعي وحدي، الذين صادقوني أنيقًا ومرفهًا، لن يفهموا أبدًا دوافعي لإبقاء تلك الركاكة التي تتزايد في بيتي أو على الأقل الابتعاد عنها في بيت جديد..أيضًا عقدت عشرات الاجتماعات بأفراد أسرتي. طالبتهم بإبداء الرأي في وضعنا المتأزم وكانت آراؤهم كلها متفقة علي.. رأي واحد فقط.. ألا نترك بيتنا وأن نحتمل حتى تنقشع تلك السحابة السوداء.

كان قد برز في هذه الحملة (الصويعية) نجم ملأ فناء بيتي والبيوت المجاورة ضجة، إضافة إلى عجوز (اليبابيك) و (السبابيك)، رامية الودع، إنه (هزاز)، أعرابي قاحل أيضًا، لكنه يملك موهبة التمثيل، ليس تمثيل (موسى الأمير) ولا (نعيم سعد)، ولا (السني دفع الله)، ولكنه تمثيل الغجر الذين مصتهم البيئة ومصوها، منحتهم حليبًا مختلف الطعم وأجادوا حلبه.كان يتحول إلى ناقة كاملة المواصفات في دقائق، الطول ذاته.. العرض ذاته.. استواء الظهر أو اعوجاجه ذاتهما. يتحول إلى عنزة تأكل الخرق،

وتدر حليبًا متسخًا لا أدري من أين كان يخرجه، إلى خروف شقي، وواحدة من نعاج الصحراء التي تنطح الحوائط حتى يتقشر الطلاء.كان هزاز يحتل مسرحه وسط الصالة الكبيرة، يتحلق الأعراب حوله وهم ينكفئون ضحكًا،ويضربون على وجوههم وأفخاذهم، وتسيل الدموع على خدودهم المقشرة.وشد صخبه ذلك أصدقاء زيتون السائقين والعربجية من سكان حي (التخنة)، بدأوا يأتون أكثر كثافة، يضحكون ضحكاتهم الملوثة بالبصاق، والتمباك، ويمدون أيديهم إلى جيوبهم، يخرجون عملة مجرحة الحواف، يلقونها أمامه.ولا شك أن عددًا من البيوت المجاورة حيث يعيش كثيرًا من الترفع وقليلًا من التوادد، قد سمعت بذلك المسرح القبلي؛ لأن بيوتًا كثيرة أرسلت تطلبه، وعربات مذهبة أطلقت نداءاتها تسأل.

جلست في إحدى المرات أتأمل غرابة (هزاز)، أحاول تذوقه، ومن ثم الضحك كما يضحك الآخرون، كنت قد عدت من فحص روتيني أخير خضعت له، وكان زيتون قد ذهب وحده وعاد لينفرد بعريفته كعادته منذ أن قدمت الركاكة الكاملة إلى البيت، وكانت قد مضت على ضيافتي أو ضيافة زيتون لأهل الصويعة خمسة أيام وددت لو استطعت حذفها من سيرة البيت الذاتية.. البيت الذي يحمل شهادة في التصميم، في تنسيق محتوياته، في ضخامته، في فنه ورهافة حسه . واجهني العجوز الروتيني برائحة الإبل والنعاج، وألقى في وجهي استفساره اليومي عن الدكراك والجقجي والسنداسة التي تسرق من عينه لذة النوم.هذا العجوز حالة فريدة من حالات الصويعة، ليس لغرابة لغته ولا هيئته، ولكن لإصراره على وجود سنداسة تزعجه وهو الذي كان ينام في أي ركن وأي وقت، إلى درجة أنني عثرت عليه في إحدى المرات نائمًا في الحمام المواجه للصالة والناس يدخلون، يقضون حوائجهم ويخرجون دون أن يحس بخواصهم أو روائحهم.جلست أتأمل هزاز، أتأمل الناقة التي صارها، والعنزة التي صارها، وجرادة الرمال التي قلدها حتى في لحسها لوسخ الأرض. لم أجد بوابة واحدة تدخلني إلى عالم الضحك والقهقهة الذي ينتشر حولي،

وتمنيت في تلك اللحظة لو امتلكت عصًا سميكة هويت بها على ظهر ذلك الهزاز.
لا أدري حقيقة لكنني امتعضت بشدة من تلك المشاهد البهائمية، نهضت وفي حلقي طعم الأمونيا الفاسد، في رئتي تنفس غباري، وفي أنفي رائحة نوق ونعاج، أردت الخروج قليلًا لأتنفس، أغير الطعم واللون، وأزيح بوصة من ذلك الجدار المحبط.
كان بالقرب من بيتي متنزه عائلي صممت على إضافته إلى حي روضتي، حين بدأ المرفهون يدقون قصورهم، وبدأت السلطة في إجراءات بيع الأراضي ورصف الشوارع. في هذا المتنزهكنت ألتقي بأناس يعرفونني وأعرفهم، وأناس يعرفونني ولا أعرفهم.. أصادف وزيرًا أو سفيرًا أو حلاقًا سابقًا ارتفع من مال غامض، أو حتى بائعة شاي انفتحت لها طاقة القدر حين التصقت باتحاد اشتراكي أو اتحاد ماجن من تلك الاتحادات التي دأبت الحكومات على دلقها في المجتمع.كان أولئك الذين ألتقيهم يتحدثون عن فني، عن مجدي، عن سفارتي التي تفوق السفارات السلطوية، وكنت أجاملهم، أحدثهم عن مشاريع فنية في الطريق ربما كانت حقيقة أو مجرد كلام أؤلفه لأشدهم أكثر.وبعد ذلك الانهيار الخيري الكبير انقطعت عن ذلك المتنزه، لم أرد أن يكلمني أحد عن فشل الكلى أو الطحال، أو عن متبرع اسمه زيتون جاء من بلد اسمه (الصويعة) ليقيم في معدتي؛.. نعم في معدتي لأنني كنت أحس بحرقان كثيف كلما صادفته بارزًا وقاحلًا ولا يريد سوى الثواب.كان برفقتي سائقي الذي أبقيته، وكان في الواقع سندًا قليلًا؛ لأن لا أحد يمكنه الوقوف أمام مضاعفات زيتون ما عداي طبعا، ولكن في حالة واحدة..أن أكون راغبًا في الموت، ولكن هل يرغب إمبراطور في الموت حقًا ؟..وهل تأتي على سلطان متربع على عرش.. أي عرش، لحظات يفكر فيها في التراب ؟. حين ارتكبت حماقتي الأولى وطردت «زيتون»، كنت أدافع عن فني العريق، وحين أعدته، دافعت عن حياتي التي أراها تستحق الدفاع.وغنيت أغنية الضروع التي لم تخفض أي وزن من عراقة فني.. سوى ذلك الوزن الداخلي الذي أحمله وحدي.. ولا يعرف ثقله الناس.

كان المتنزه صاخبًا في تلك الأمسية، ثمة عائلات تتسلى، وعائلات تشتري، وعائلات ترقد مسطحة على النجيل، ثمة باعة للحلوى، وباعة للمرطبات وخيمة تراثية احتشدت بالمئات الذين جاءوا يستنشقون روائح التراث.في هذا المتنزه بالذات وفي أيام إنشائه الأولى، لحنت أغنيات عديدة.. أذكر منها أغنية (مبروك) التي قدمتها هدية لواحدة من أخوات زوجتي في يوم عرسها، كانت أغنية راقصة تحكي عن زفاف أميرة بأمير، حفظتها كلمات، وظللت حائرًا بعودي في كل ركن من أركان بيتي العريض؛ باحثًا عن جنية اللحن التي لم تأتِ..ولدرجة فكرت فيها أن أسند مهمة تلحينها إلى واحد غيري، ثم دخلت المتنزه في إحدى الأمسيات، وقبل أن أستقر تمامًا بداخله، جاء اللحن يتماوج، و لم يكن عودي معي. نبهني سائقي إلى الرجل الذي كان ينادي علينا من الخلف و لم أنتبه إلى ندائه، التفت وكان حياط النساء المغرور (مستر عادل).كان في زيه الوردي الذي لم يغير لونه منذ أن رأيته لأول مرة، ولا ينوي تغييره أبدًا.في يده اليسرى حقيبة الجاه التي تحوي تلك العدة المعانقة لأجساد نساء الطبقة الراقية كلهن.وعلى قدميه حذاء أسود فاخر قد يكون من صنع (لونغ)، ذلك الذي اتهمتني الصحافة بارتداء أحذيته، يوم انهياري الكبير.اعترف بأنني فوجئت برؤية ذلك المستر المغرور، فهو ليس من سكان روضة ذهب، ولا أظنه جاء متنزهًا، وفي ذلك المتنزه بالذات الذي يبعد عن مستقره مئات الكيلومترات..كنت قد سمعت بأنه عاد لتوه من رحلة طويلة في فرنسا، حصل فيها على درجة الماجستير في الخياطة، وكانت رسالته بعنوان: (ثياب السهرة في العالم الثالث - ثياب نورة نموذجًا).. وكانت نورة تلك واحدة من بنات الهوى المرفهات والشهيرات، اعتادت تصميم فساتين للسهر من مواد غريبة.وقفت ولحق بي.. صافحته وهنأته بالدرجة العلمية الجديدة..وأنا أشم رائحة عطر نسائي لعله عطر (كوكو) الحالم، يشب من تحت قميصه.

- لماذا لم تحدثنا بتحفتك يا سلطان ؟

سأل في بطء..ولكن مدعمًا بنظرات كبيرة:

- أية تحفة تقصد ؟

رددت وكان ذهني خاليًا تمامًا من التحف في أيام الصويعة الجرداء.. لا تذوق لفن، ولا رغبة في التذوق أصلًا.

- عريفة الصحراوية يا رجل.

قالها وخبط على كتفي تلك الخبطة التي أكرهها بشدة، أعتبرها إضافة غير ضرورية لأي طرح جاد كان أم هازلًا، أعتبرها صعلكة حتى لو صدرت من رجل شهير كمستر عادل.أعترف للمرة الثانية أنني دهشت، وما زلت مندهشًا إلى الآن بالطريقة التي عرف بها الخياط وجود صحراوية فاتنة في بيتي. فمنذ جاءت حملة الصويعة أو منذ بدأت حملة الركاكة الأولى بدخول زيتون وصعاليكه حياتي، وبيتي مغلق في وجه الزيارات.. إضافة إلى ذلك المزلاج المزاجي الذي وضعه زيتون على وجود عريفة في بيتي، في ذلك المكان السري البعيد.لا الصحافة رأتها، ولا شاشات الفضائيات المتلصصة، وحتى تقرير (فوزي بشرى) الذي بثته قناة الجزيرة عن الصويعة وسكانها، رصد جوانب من حياة تلك البلدة، ووردت فيه سيرة عريفة، دون أن يكون لها وجه مصور.أيضًا لم يأتِ مستر عادل ولا أحد معاونيه إلى بيتي منذ أن فشلت، وهجرت زوجتي موضات التطريز والتكسير لتقف إلى جانبي زوجة أصيلة ورفيقة درب طويل، دون اكسسوارات.هل يمكن أن يكون تأملي الكثيف لعريفة في ذلك اليوم الذي أتت فيه الحملة الصحراوية، هو الذي جاء بالخياط ؟.. هل يمكن؟.. إذا كان هذا ما حدث، فهو معجزة.. نعم.. معجزة غريبة. سألته:

- ولكن كيف عرفت بوجودها؟
- بوجودها ووجود الكثيرين، حتى السنداسة التي تطير النوم من عيني أحد

الأعراب.

السنداسة مرة أخرى.. هذه الغرابة التي تتبعني حتى وأنا أحاول استنشاق أكسجين نظيف.. السنداسة.. السنداسة.. أكاد أجن.

انطلقت عائدًا إلى البيت يسندني سائقي، ويتبعني صائد القياسات وهو يصفر بنشوة، كان (هزاز) الآن خنفسة تتحرك ببطء جالبة ضحكات مجلجلة، وكان زيتون وعريفته ما يزالان مختفييْن في الأعلى. السنداسة. فاجأني العجوز، فلم أحفل به وأرسلت من ينادي على المطلوبة؛ حتى أتخلص من ذلك المستر الفضولي، لكن المطلوبة لم تأت، وفوجئت بزيتون يقفز السلالم منفعلًا، كان صحراويًا قاحلًا بشدة، ملابسه مضمخة بالعرق، وشعيرات طويلة، تطل من ثقوب طاقيته..صرخ في وجهي لأول مرة منذ تشابك مصيرانا وامتدت صرخته لتشمل الخياط أيضًا:

- زوجتي ليست للعرض.. هل تفهم؟
- لكنها الآن أغنية يرددها المطربون.. هل تفهم أنت؟

بادله مستر عادل الصراخ. وكان صراخًا راقيًا لم تقفز فيه من حلقه قطعة بصاق واحدة بعكس زيتون الذي كان صراخه مطرًا من البصاق.

- لا أفهم.. أصمت.
- عندي دراسة في قياسات جسدها..لا تخف، لن آخذ منه جرامًا واحدًا.. هل تفهم؟
- وأنا عندي دراسة في رأسك بعد أن أنطحه.. هل تفهم؟

وكانت دراسة سريعة تلك التي طبقها زيتون على غريمه، أمسكه من كتفيْه الورديتيْن، نطحه على رأسه واحدة من نطحات الماعز الضارة، ثم حمله على ظهره وأُلقى به في الطريق. كان هزاز قد توقف عن التكون وهو نصف نملة صحراوية، ترك الأعراب أماكن تشتتهم في البيت والتموا عند مصدر الصراخ، وبدأت أنا نوبة عاتية من ضحك كنت أختزنه منذ أكثر من عام، ولم تستطع تفاهات هزاز انتزاعه من حبالي الصوتية.. لقد شفى زيتون بعضًا من غليلي من مستر عادل الذي كان يعتبر أناقته وشهرته شيئًا مقدسًا، فوق النطح البهائمي..ويعتبر غطرسته مربى نعناع سلسة من الواجب على كل شخص أن يتذوقها، حتى لو كان أميًّا قادمًا من الصويعة. كنت أرقبه من فتحة الباب ينهض متعثرًا، ويتجه إلى سيارته، كانت أناقته الوردية الآن بلون الأرض الرمادية التي أُلقي عليها، وكان ثمة جرح نازف على جبهته.

لكن هل انتهت أيام الصويعة، وقد تبقت الآن ثلاثة أيام فقط على موعد الجراحة؟..لا.. لم تنته، إنها أيام ممتدة انساقت معي طويلًا.. وحتى بعد أن تمت تلك الجراحة المعقدة. أذكر حين جاءني زيتون يسحب فتاة وشابًا من الحملة.. قال: هذا فارس.. وهذه (عنجهية). فارس هو الشاب، وعنجهية هي الفتاة التي برفقته، وكانا قد تحابا في أثناء اشتراكهما في الحملة، تبادلا نظرات العيون السرية، وتفاهما على الزواج حالما وجدا بيتًا واسعًا يُؤوي غرامهما الوليد.طالبني زيتون برعاية حبهما، وتزويجهما على نفقتي..هذا أيضًا ثواب.. كان يردد.. ثواب لك ولي.. يضرب على كتفي تلك الضربات التي تزعجني وتقتل بوُر إبداع كثيرة داخلي. حسنًا.. لن أكون ضد حب يولد في الطريق إلى بيتي، يكتمل نضجه في البيت، وأيضًا لن أكون عقبة في الطريق بيني وبين كلية زيتون وقد أضحت الآن قريبة جدًّا. زوجنا العاشقين زواجًا سلسًا كان كله صحراويًّا، من أكله (الضرابي)، إلى حضوره المتسخ، إلى عازف الربابة الذي تصادف وجوده في الحملة، وإلى مأذونه الذي عقد القران وكان أيضًا أعرابيًّا ينحدر من منطقة شبيهة بالصويعة، جاء به (التلب) من أحد الأحياء البعيدة. كنت

خائفًا أن يطالبني زيتون بالمشاركة بحنجرتي في ذلك الحفل وغناء أغنية رفيعة أمامها، وأمام أولئك القوم، لكن «زيتون» لم يقل شيئًا، اكتفى بأن أسمع عريفته أغنيتها في مخبئهما، من شريط للكاسيت كنت قد أعددته من قبل.

-١٠-

اليوم الأخير لنا أنا وزيتون في البيت، قبل انطلاقنا غدًا للمبيت في المستشفى؛ حيث ستجرى لنا تلك العملية الكبيرة، مبهمة النتائج. بالنسبة إليَّ كنت أسعى إليها بخطوات فيها الكثير من النشاط، والقليل من الوهن، بالرغم من أنها المرة الأولى التي تجرى لي فيها مثل تلك العمليات. فطوال سنوات حياتي التي قضيت بعضها ريفيًّا مغمورًا، وأغلبها عاصميًا ذائع الصيت، لم تلتهب لي زائدة دودية، و لم تسد لوز متضخمة حلقي، ولا انقلب مصران أعور على آخر صحيح العينيْن. أصاب بالرشح والزكام أحيانًا، تتعب عندي الحنجرة من جراء ركض الصوت صاعدًا وهابطًا، أصاب بالملاريا التي تصيب حتى رئيس مجلس الوزراء، وبالنزلة المعوية التي ليست مقصورة على مواطن الفقر فقط، ولكنها سهم نافذ من سهام البلاد تصيب الجميع حين تنطلق. وكان داء السكري اللعين، هو الصياد الذي رمى بشبكته، وجرني في النهاية جريحًا ينتظر أن يضمد بشاش قاتم من أرض بور.

بالنسبة إلى زيتون، هي مرته الأولى أيضًا، المرة التي يسعى فيها صحيحًا ومغامرًا، يريد الثواب كما يقول، وشيئًا آخر غير الثواب كما أفكر أنا. جلست معه هذه الليلة الأخيرة في غرفة مغلقة، جاهدنا أن نرخي ستائرها، ونضع مزلاجًا متينًا على بابها؛ حتى لا تتسرب فوضى الصويعة الخارجية إلى نقاشنا، ولا يتسرب نقاشنا إلى تلك الفوضى الخارجية، لا أريد سماع الصحراء تضحك على سماجة هزاز، لا أريد سماع استفسار بخصوص سنداسة تزعج أحدهم، ولا أريد أن ينهار البدو، يشدون زيتونهم من رقبته، ويعودون به إلى الصويعة بعد أن استهلكوا بيتي ومالي وحياتي كلها.

كان الجراح العظيم موجودًا، وكان متوترًا كما لاحظت من حكة في أنفه تتكرر باستمرار، ومن سيجارة خامدة توقد من سيجارة مشتعلة. أيضًا كان أعضاء حملة امتلاك الذهب موجودين، وجاء لأول مرة إلى بيتي، ومن دون دعوة من أحد كما أتصور، (حامد ولد ساكنة)،أحد شيوخ الزار المشاهير في البلاد، الرجل الذي تنسب إلى قواه وطقوسه نجاحات خارقة، ولكن في مجالات أخرى غير الميدان الذي نلعب فيه أنا وأبو زيد زيتون. كنت أعرف تمامًا لماذا جاء الجراح العظيم في ذلك اليوم، إنها زيارة تفقدية، وزيارة لرفع المعنويات..ولماذا جاء منظمو الحملة.. إنها أيضًا زيارة تفقدية، أو زيارة عمل، يتأملون فيها إنجازهم الكبير، توفير كلية لإمبراطور الطرب الذي لن يتركه شعبه يموت؛ لأن كليتيه فشلتا.لكن ما حيرني تمامًا، كان وجود (الزاري) ولد ساكنة، لقد كنت أعرفه منذ زمن طويل، لكنني لم أسمح لتلك المعرفة أن تنمو إلى صداقة أبدًا.. لا أعرف بيته، ولا يعرف بيتي، ولا أغني في عرس يهمه إلا بأجري الكامل.

توقفت عن خواطري حين سمعت الجراح يسأل زيتون سؤالًا عاديًا، لكنه أخافني:

- هل أنت مستعد يا زيتون ؟.. ستجرى عملية نقل الكلية من جسدك إلى جسد السلطان بعد غد.. ويمكنك الانسحاب فورًا إذا كنت خائفًا.

وجفت.. كيف يسأل سؤالًا كهذا في وقت كهذا؟.. ينسحب بعد أن تلفت حتى لوحة (بائعة العناكب) للمستشرق (لواني) التي كلفتني إيراد عام غنائي كامل؟.. وتحول أرقى بيوت روضة ذهب إلى مسرح صحراوي، ووكر للصوص، ومقهى لسائقي السفر المساطيل، ومفرمة لقراءة البخت، وأيضًا حفرة آثارعميقة ممتلئة (بالدكراك) و(الجقجي) و تلك (السنداسة) المزعجة... لكن رد زيتون خفف قليلًا من ارتجافي..

- طبعًا مستعد، ولست خائفًا.. أريد الثواب.. الثواب فقط.
- من فضلك يا زيتون.. إذا كانت لديك أية استشارات أو طلبات، فنحن مقبلون على المرحلة الأخيرة.. هل تفهمني ؟

قال رئيس اللجنة المنظمة بصوته الصافي العميق، وهو يتأمل الصحراوي بنظراته الكاملة: أحس أن رئيس اللجنة المنظمة، وهو (مخابراتي) سابق،نبع من ريف شمالي أيضًا،و يحبني بجنون، يشم في زيتون رائحة عطر مدسوس.. رائحة اهتزاز أو رائحة خيانة تعيش في الدم، وقد قال لي مرة ونحن في مكتبه أيام أن كان لا يزال في الخدمة، إن خبرته في الناس لا تتوقف عند لمسة أيديهم أو مواجهة عبوسهم وابتساماتهم، ولكن تمتد حتى الأنوف.. تنبش في المخاط.. هل تذكر مجبرة الكسور (بنت توماس).. كانوا يعاملونها كمجبرة كسور.. وحدي عاملتها كزعيمة لخلية عنصرية.. وقد كنت محقًا.. هل تذكر المتسول (جميل)؟.. وكم مرة أعطيته قرشًا؟. أنا لم أعطه أي قرش واقتدته فورًا إلى نهايته.. لقد كان يهدد لقلب نظام الحكم.. وقبل أن يرد زيتون، جاء صوت ولد ساكنة أنثويًا، ومعطرًا، كأنه ينبع من زجاجة (جابور):

- حبيبي.. وعريفة.. هل استشرت عريفة؟

إذن فقد كان شيخ الزار يسعى وراء جنية صحراوية.. هؤلاء (الزاريون) لا يستطيعون العيش بلا نساء أبدًا، تمامًا مثل المغنيين والشعراء، فقط مع الفرق أن نساءهم دائمًا (مهسترات) ويحملن في دمائهن خللًا نفسيًا..لكن لن تجدي حيله مع زيتون ولن يستطيع أن يحتك بامرأته التي لا أظنها تعرف شيئًا عن الزار الحبشي والأفرنجي، وزار الزنوج المرابطين في (بتسوانا).. لمحت زيتون يتململ قليلًا.. لكنه نطق بالرد كاملا.. الرد على المخابراتي الجاد، والرد على رجل الزار الأنثوي:

- ليست لدي أية استفسارات ولا طلبات.. وعريفة راضية تمامًا..هي أيضًا تريد الثواب.

تلملم الضيوف وانسحبوا بعد أن تمنوا لنا ليلة ناجحة خالية من الأفكار الفاشلة.. في مثل تلك الظروف، قال الجراح: يجب التحلي بالثبات.. كلما كان المرء ثابتًا، قلت هرمونات مغصه. قد يكون محقًّا لأنه لن يرقد على طاولة معتوهة في غرفة يتحرك فيها الناس كالأشباح، لن تشق أحشاؤه ولن يزرع بشتلة صحراوية.. هذه أفكاري.. وقد تكون أفكار زيتون مشابهة؛ لأنه الصحيح الذي قد يمرض، وصاحب الكليتين الذي سيفقد واحدة، وأيضًا صاحب الدم الذي سيسري فيه المخدر، ويفسده..تركت زيتون يودع عشيرته.. يضحك قليلًا على هزاز.. يقرأ بخته في حصى العجوز الذابلة.. أو يحاول أن يحتفي بعريفته في ليلة أخيرة.. لقد كنت الآن أحس تجاهه بالمقت أكثر من إحساسي بالعرفان بالجميل..وتمنيت لو لم يأتِ أبدًا من بلدته البعيدة كمتبرع وحيد فشلت كل التقنيات في العثور على غيره. كنت سأعيش ما تبقى من العمر، نظيفًا بترتيبي ذاته الذي رتبته على الأقل..خاليًا من تلوث البيئة، ومضاعفات الثواب..

كان الصحراويون، كما يبدو، يعدون وداعًا آخر لزيتونهم المر، غير الذي تصورته. رأيتهم وأنا أعبر بالصالة الضاجة، متجهًا إلى الجحر الذي أقيم فيه مع أسرتي، يقفون كلهم حين أقبل زيتون، يمسك به أحدهم، يضربه على صدره بقبضة يده ضربة ناعمة لا تشبه الحصى الصحراوي، ثم يمسكه من كتفيْه، يلقي به إلى آخر يكرر الأمر نفسه معه، ثم يلقي به إلى ثالث.كان يستوي في ذلك الرجال والنساء، والمراهقون الذين شبوا قليلًا، ونبتت لهم قبضات يد تقوى على الضرب.وبقي الأطفال أمثال (ذهب) الصغير، يبحلقون في المشهد كأنهم ينحتونه في ذاكرات حتما ستستعيده في يوم من الأيام.استوقفني ذلك الطقس الفريد، ولم أكن بحاجة إلى مفسر لأنه ـ فيما يبدو ـ وداع صحراوي، أو تمنيات صحراوية، أو حتى بكاء صحراوي على واحد ربما لن

يعود أبدًا. كانت عريفة قد ظهرت من المخبأ السري، وكانت لدهشتي الشديدة، مزينة بأساور لماعة لا أدري هل هي من ذهب حر.. أم مجرد قصدير خادع للبصر ؟..هي الوحيدة التي لم يُلقِ إليها أحد بزيتون، بعد ضربه على الصدر، ويبدو أنهم تركوا لها خيار ضربه أو شنقه حين ينفردان معًا في غرفتي الماستر. بعد ذلك جلس الجميع على الأرض مكونين دائرة حول متبرعي، اقتربت منه عجوز اليبابيك والسبابيك، أمسكت بيده، دقت بصرها فيها لعدة دقائق، ثم أطلقت زغرودة لم أسمع في حياتي أطول منها. كانت بطول الحي كله، وربما امتد طولها إلى أحياء أخرى مجاورة. وقف الأعراب دفعة واحدة، مدوا أيديهم المشققة مصافحين لزيتون وهم يرددون:

مبروك.. مبروك أبوزيد.

كانت قراءة ناجحة للطالع كما استنتجت، وإن زيتون المغامر سيعود من تلك المغامرة ظافرًا. أخذت أفكر في ذلك الظفر القادم..وكيف سيعيش به صاحبه، هل سيعود إلى الصويعة كما كان.. راعيًا لأغنام الوجهاء، ومنتظرًا لسائقي السفر المساطيل حين يأتون حاملين لب القرع، وأنباء الثورات والانقلابات ؟ أم سيبقى في العاصمة بعد أن أضاءت خلايا معتمة في عقله.. عبر الفضائيات والستلايت، وتعرف إلى (ريما) التي بلون الثلج، و(ماغي) التي تلبس الميني – جيب، وررولا التي تتكسر على الهواء. بعد أن حاور الصحف، وتذوق (اللازانيا)، والأهم من ذلك كله، نومه في غرفة ماستر لا تتوفر خصائصها وإمكانات نومها إلا لعدد قليل من سكان الوطن؟ سأدعه في تفكيري، يظل في العاصمة، ولكن أين سيعيش؟.. من ناحية التواصل، لن أصله أبدًا..من ناحية الدعم المادي، قد أدعمه من حين إلى آخر ولكن أن يعيش معي مرة أخرى، وحده أو برفقة حسنائه المتسخة أو تلك الصويعة المصغرة، هذا لن يكون. كنت أفكر ناسيًا حظي الذي لم يقرأه أحد منذ تلك التنبؤات الخائبة (للأزري) و(دونجوان أنطونيو)، الحظ الذي لا أعرف إن كان حسنًا أم تعيسًا، غالبًا أم مغلوبًا.. سرت في جسدي رعدة وأنا اقترب من عجوز اليبابيك. غرست في يدها رزمة من

المال، وجلست أمامها على الأرض مادًّا يدي. لم أكن أحمد ذهب إمبراطور الغناء في تلك اللحظة، لم أكن ذلك العلم الذي رفرف خفاقًا في شتى البلاد متحديًا السفارات السلطوية، لم أكن علكة الشعب التي يمضغها ويبتلع سكرها أو الاسم الذي يرد أولًا على قوائم التكريم، ولكنْ رجلًا فقيرًا ومعدمًا وخائفًا. رجلًا بلا ثروة معنوية. أمسكت العجوز بيدي، انحنت عليها بشدة، وغرست بصرها.. كانت الزغرودة التي أطلقتها بعد ذلك طويلة أيضًا.. أطول من تلك التي انطلقت خلف القراءة السابقة لحظ زيتون. كانت قراءة مثمرة لحظي وسأعود للحياة الحافلة مرة أخرى. عضضت على تلك ال(سأعود) في ذهني حتى أدميتها، وظللت عاضًّا عليها وهي تنزف حتى وأنا مشوش في طريقي إلى غرفة العمليات بعد ذلك. حين دخلت حجرتي وجدت احتفالًا مصغرًا لي أنا أيضًا، احتفالًا عاصميًّا زينته (تورتة) المانجو التي كنت أحبها، وحرم على داء السكر اللعين مجرد لمسها..أو شم عطرها..وعددًا من الشموع بلغ المائة.. عانقت أسرتي كلها وعانقتني.. كانت ثمة دموع، ولكنَّ أيضًا ثمة أملًا. لم أخبر أحدًا بقراءة العجوز لحظي، ولا حتى زوجتي حياة الحسن، هي لا تؤمن بقراءة الطالع، أو تخاف من قراءته على الأرجح، تحب أن تمضي الحياة حلوة أو مرة، وتنتهي حين تنتهي دون أن يقرر منجم صادق أو كاذب ذلك، أغبطها على تلك النفحة الإيمانية التي لم تكن عندها واكتسبتها مؤخرًا، على الثوب الطويل، ممتد الأكمام الذي أصبحت ترتديه، والشعر الذي توقفت عن صبغه بمستحضرات (ويلا) و(رويال)، وغطته بقماش سميك. أنا أيضًا كنت مؤمنًا برغم تلك النواقص التي تأبى أن تكتمل في حياتي.. من حب للسهر وتوابعه، و(الكوثرات) النضرات أينما كن، واليوم بالذات أحس أن بؤرًا جديدة من الإيمان قد بدأت تضيء في داخلي. أتمنى ألا تكون بؤر خوف ولكن بؤر إيمان حقيقي. رقدنا وكل يحمل هواجسه، وكانت هواجسي قد تركزت في جنبيَّ، أتحسسهما بعنف مرير، ترى في أي واحد منهما سوف ترقد الشتلة الصحراوية؟

-١١-

انتقلنا أنا وزيتون إلى مستشفى خاص في حي (الشروق)الراقي في وسط العاصمة. كان لا يشبه مستشفيات البلاد إلا في كونه قد شيد على قطعة من أرضها،كانت حدائقه وارفة، بواباته سلسة وخالية من جلافة الخفراء المعروفة في مستشفيات الحكومة، أرضياته من رخام صرف،غرفه دافئة ومنعشة، وفيها كماليات غرف النوم المرفهة.. وكانت (كوثراته) مختلفات عن أولئك اللائي عرفتهن في مرة الانهيار الأول والمرات التي تلتها وأنا أسير التحاليل والفحص.كوثرات شقر وسمر، وخضر العيون،من لندن ومن روما، ومانيلا البعيدة في الشرق.وكانت فيهن واحدة اسمها (ماريانا استراد)، يبدو أنها امتلكت الثقافة التي عرفتها بالمريض الذي يرقد أمام رعاية جمالها.كانت تجس النبض وهي تردد.. يا سلطان، تقيس الضغط.. يا سلطان، والسكر اللعين، يا سلطان، وفي مرة رفعت صوتها قليلًا، وكانت لدهشتي الشديدة تغني مقطعًا من أغنية الضروع، يتيمة زيتون من سائل لقاح عكر، لن ينجب أبدًا غيرها.أنا أيضًا أعجبتني ماريانا.. الوجه الآسيوي الذي يحمل شحنة أوروبية، بدت في العينيْن واتساق الأنف.الصوت الصغير في نبراته، الغني في تعابيره، والجسد الذي يحمل التفاصيل وهو منتشٍ.وددت أن أسألها عن أشياء عدة، عن حبيب تحبه أو زوج ينتظر عودتها أو أي شيء ينسيني كآبة الظروف واحتمال ضياعي غدًا حين يشق الجراح بطني.كان أفراد عائلتي وأصدقائي قد غادروا باكرًا بأوامر من الأطباء.. لم يكن هؤلاء يريدون شحنات عاطفية زائدة قد تهبط من المعنويات، وأرفض زراعة الشتلة التي كلف العثور عليها الكثير أو ربما يريدونني وحيدًا كي لا يرى أحد كيف يحتضر السلطان إذا كتب عليه أن يحتضر.كان رئيس حملة امتلاك الذهب (المخابراتي)، هو آخر من استطاعوا إقناعه بالمغادرة.كان في البداية مصرًّا على المبيت بقربي حتى الصباح،ثم تراجع إصراره

إلى البقاء حتى منتصف الليل، وأخيرًا انصرف لكنه وقف عند الباب لدقائق يتأملني بنظراته الكبيرة، ثم أخرج من جيبه شريطًا للكاسيت، أسود اللون، رفعه إلى مستوى عيني، ثم قال:

- هل تذكر هذا الشريط يا سلطان ؟.. إنه يحوي أغنيات نادرة لم ترددها أمام الجمهور..هذا الشريط سيحدث ضجة.

أحسست بالضياع في تلك اللحظة،ما معنى أن يزورني الرجل حاملاً في جيبه شريطًا لأغنيات ربما لحنتها، ولكن لم أغنها أمام أحد غيره؟ لابد أنه يشم عطرًا غامضًا، يشم رائحة موت تهب من غرفة العمليات، اضطربت بشدة، ناديت على (الكوثرة) الآسيوية بدق الجرس الذي يقود إلى مكانها، جاءت مسرعة، أرقدتني على السرير بصعوبة بعد أن تصلبت في وضع الجلوس الهستيري، تأملت وظائفي الحيوية تركض على الشاشة الخضراء أمامها، ثم قالت:

- أنت خائف.. خائف فقط.. السلاطين لا يخافون.

من قال إن السلاطين لا يخافون ؟ الذي يملك كل شيء، يخاف من أي شيء، بعكس الذي لا يملك..في أيام الغسيل الأتوماتيكي،زاملت فقراء كانوا يأتون راجلين، ومتعلقين في باصات النقل العام،لكنهم كانوا أكثرنا بشاشة، وأكثرنا تقبلًا لأمر الفشل..من قال إن السلاطين لا يخافون ؟.. من قال ؟.. صرخت بالجملة في وجه (الكوثرة).. أرعبت جمالها للحظة، لكنها استعادت وعي التمريض، حقنتني بسائل عكر رأيته يركض مسرعًا ليذوب في الدم، قالت: هذا يبقيك هادئًا حتى موعد العملية، وقد تصحو لتجد كل شيء قد انتهى، وكلية زيتون مزروعة في جسدك.لكن عقارها العكر لم يكن مقنعًا، كان ماء شربته العروق و لم ترتو. في الثانية عشرة منتصف

الليل تقريبًا، زارني زيتون، كان يقيم في حجرة مجاورة، ويبدو أنه أيضًا يعاني على طريقته، كان أسود كفحمة، وحين جلس بقربي ووضع يده على يدي، سرت برودة صقيع إلى جسدي، زيتون خائف.. زيتون ضد نظرية الخوف التي أومن بها، راعي الأغنام (الصويعي) الذي لا يملك سوى تلك الأيام المرفهة التي عاشها في بيتي، يبدو أن لديه ما يخاف عليه..عريفة بلا شك، آخ من عريفة.. لو تنظفت قليلًا، لو حملت اسمًا آخر غير ذلك الاسم الهمجي..عفاف مثلًا.. أو سلمى، لو محت أميتها، لو تفرنجت إلى عارضة أزياء متبخترة، كلنا سنخاف عليها بلا شك.سألته:

- ما بك يا زيتون؟
- لا شيء يا عم.. فقط أطمئن عليك.

قالها وخبط على كتفي خبطة الهمج التي لا أدري هل هي جينات مورثة لدمنا نحن فقط .. أم إجراء سيادي يمنح لنا مع المواطنة ؟..في رحلاتي المطولة إلى شتى بقاع العالم، لم أرَ شعبًا يخبط على كتف بعضه أبدًا.. لم أرَ طائفة تستخدم ذلك التكنيك، و لم أسمع عن لغة اطمئنان تستخدم فيها راحة اليد الخشنة..حتى المصافحة باليد، لم تعد تستخدم كثيرًا، بينما نحن نحتفظ بها قوية، ونطورها إلى احتضان بالكتف، يستغرق زمنًا طويلًا.أيضًا مناداته لي بالعم لم تعجبني، أنا لست عمًّا لصويعي، حتى لو كان يملك دوائي، والواقع إنني لست عمًّا لأحد، أنا إمبراطور الغناء.. سلطان الطرب.. السبعيني الذي تموت من أجل رؤيته (الكوثرات)، حتى لو كن في السابعة عشرة من العمر.. لم تعجبني عينا زيتون حين دقهما على صدر (جنيفر لوبيز) الذي كان يطل من شاشة التلفزيون المفتوح، لم يعجبني التفاته، حين التفت بعيدًا عن ذلك الصدر، و لم ارتح لأصابع يديه التي كانت تهتز من حين إلى آخر.

- يوجد شيء يا زيتون.
- لآ.. لآ..يا عم.. لا يوجد شيء.

نهض واقفًا واتجه نحو الباب، كانت مشيته غريبة بعض الشيء، ليست مشية الناقة التي ألفتها طوال الأشهر الستة الأخيرة.

أمسكت بجهاز (الريموت كونترول)، ألغيت الصدر الشهي للاتينية (جنيفر لوبيز)، حين انقلبت إلى وحش منتقم فجأة في شريط سينمائي بدا ركيكًا في تناوله لمصائر الشخوص.. فكرت أنها لامعة حقًا، ومثيرة حقًا، وأنها قد تنهار فجأة في حفل (أوسكاري) أو حفل خيري لضحايا نكبة (الإيدز) وساعتها قد تجد زيتونا آخر، من (صويعة) أمريكية أو لاتينية، يطفئ بريقها.كفى.. لن أحسد المرأة الفاتنة في فتنتها، أغمضت عيني لا لأنام، ولكن لأنغرس في الأرق أكثر..من ينام في يوم كهذا؟.. أراهن إنني لن أنام لحظة، وزيتون أيضًا لن ينام لحظة. وهناك شخص ثالث لن ينام هو الآخر، إنها حياتي.. حياة الحسن.. سمعت جرس الهاتف يرن خافتًا، أسرعت بيدي إليه.. صحت.. نعم يا حياة..وبكينا.. بكينا كما لم نبكِ أبدًا من قبل.

جاء الصباح بطيئًا وقاتمًا، ليجدني مفتوح العينين وواجف القلب، أبحلق في صورة ضخمة بإطار مذهب كانت معلقة على الحائط أمامي، وكانت تمثل الرئيس كاملًا بزيه الأخضر، وصقوره على الكتف،وابتسامته أيضًا، يضع حجر الأساس لامتداد جديد لمستشفى يزمع إنشاؤه قريبًا. وصورة أخرى أقل فخامة تجسد مجموعة من أهل العمائم والثياب البيضاء يصفقون في حماسة. خلتهم يحتفون بي في حفل ساهر أحييه على مدرج جامعي أو مسرح مزركش، وكدت أرفع يدي لتحيتهم بتلك التحية المتناغمة التي اشتهرت بها، عندما انفتح باب الغرفة فجأة، ودخل الجراح ومساعدوه، وعدد من الممرضات، وكان برفقتهم الصديق (المخابراتي). التفوا حول سريري وهم يرسمون

ابتسامات متباينة.. بعضها واسع جدًا، وبعضها ضيق، وبعضها مجرد التواء طفيف في الشفتين. إذن حانت لحظة الذبح التي ينتظرها الجميع، داخل الوطن وخارجه، وكما أخبروني، فقد امتلأ البريد الملحق بموقع (ذهب دوت كوم) بمئات الآلاف من رسائل التمنيات. كان عليَّ أن أتجلد.. وكانت (صباح النور) التي نطقت بها ردًّا على (صباح خيرهم)، هي أثبت صباح نور أنطق بها حتى الآن.

- هل نمت جيدًا يا سلطان ؟

يسأل الجراح وهو يمعن النظر في عيني المتورمتيْن، وبقايا الوجه المبعثر الذي كنت أواجههم به.

- لم أنم.. قلت.. وأيضًا وممتلئ بالثبات.
- في ماذا تفكر ؟

سأل المخابراتي وهو يعلم يقينًا في ماذا أفكر.. بالتأكيد لن تكون (كوثرة) نافرة في أرض الحجاز، ولا جلسة رملية على شاطئ بحر أزرق، أو سهرة من سهرات المغنين التي يرتوون فيها من الأدران. قلت.. في ما سيفعله بي (المستر)..ونظرت إلى الجراح نصف نظرة. سكتوا وسكت.. لكن السكوت لم يستمر طويلًا، إذ تنحنح الجراح:

- توجد مشكلة صغيرة يا سلطان.. أردنا إطلاعك عليها.
- مشكلة ؟

صرخت وأنا أفكر في ألف مشكلة في الوقت ذاته.. بدءًا من خلل فني في آلات الجراحة، وضخ الأكسجين، إلى موت مفاجئ لزيتون وهو في غرفته. مشكلة ؟..

صرخت.. كانت شاشة (المونيتور) الخضراء تهتز بجنون، وأسرعت الكوثرة ماريانا إلى نبضي وضغطي، بينما جلس الطبيب بجانبي وهو يقول:

- اهدأ.. اهدأ يا سلطان.

هدأت لكن ليس تمامًا.. قال الجراح:

- كنا عند (أبو زيد زيتون).. ووجدناه متوترًا، قال إن زوجته طلبت الطلاق، وخيرته بينها وبين العملية، وقد اختار زوجته.

الوغد.. بعد كل ما فعلته من أجله.. بعد كل تلك التنازلات ؟أين الثواب الذي كان يتشدق به إذن؟

- ماذا أيضًا ؟
- يقول إن عريفة قد تغير رأيها إذا أسكتناها بشيء.
- اسكتوها.. أعطوها ألف دولار.. ألفين.. ثلاثة.. لا مشكلة.
- حدد زيتون مبلغ السكوت.. إنه عشرون ألف دولار، إضافة إلى طلبات أخرى. وهاهي الورقة التي كتبها.

مددت يدي إلى الورقة وأنا أرتجف، عشرون ألف دولار لكلية نبتت بين الصبار والعشر، وعملت لثلاثين عامًا في فلترة ماء السيول والخيران، ولراعٍ لم يسمع بتلك العملة الخضراء إلا منذ عدة أشهر وللأسف الشديد من تلك القناة الحضارية التي وفرتها له، حين رضيت بأخذه إلى بيتي وهو لا يزال بملابس صحرائه وقرفها. طالب الثواب، يطلبه في الوقت الحرج.. ليس ثواب الآخرة الذي نادى به، وانكتب في

الحوائط وعلى ظهور الحافلات، وثياب النساء، ثواب اللؤم الذي شممته دومًا، وشمه المخابراتي أيضًا كما أعتقد. ثم ماذا بعد ؟.. مددت بصري المتورم إلى الورقة التي كانت صفراء، مشققة الحواف، وعليها كتابة بخط بدائي.. من نوع تلك الكتابة التي تجر المرفوع إلى هلاك محقق، وتؤذي الفاعل بنصبه عاريًا في شمس حارقة..

- أريد مزرعة في (وادي صفوان) القريب من العاصمة.
- حافلة نقل ستة وعشرون راكبًا، وتكون جديدة ومن ماركة (روزا) القوية.
- منزل من ثلاث غرف.. وثلاث برندات.. في حي (التخنة) قرب أصدقائي.

ثم أخيرًا جملة لا أدري لماذا كتبت، ولمن؛ لأنها لم تكن تعني شيئًا وهي ترد خلف ذلك الطوفان الغريب من لغة الابتزاز:

(العفو والعافية).

العفو من ماذا ولماذا ؟.. والعافية لمن؟.. لي أم له؟.. أم لكلينا؟ لو امتلكت العافية لكان لي شأن آخر.

- هل توافق على تلك الطلبات يا سلطان ؟

سأل أحدهم ولم أعرف من هو، في لحظة تشوش الذهن، قد لا تستطيع أن تعرف حتى شفيتك من أنفك، وفي لحظة الاحتياج الأعظم قد توافق على بتر لسانك حتى تعيش.. سأوافق بالرغم من ثقتي التامة بأنني قد لا أستطيع أن أوفي بكل ما طلب.. العشرون ألف دولار يمكن إيجادها لو غربلت أرصدتي التي هنا وهناك، منزل (التخنة) العشوائي يمكن شراؤه أو استئجاره مدى الحياة، لكن حافلة النقل من ماركة (روزا)، ومزرعة (أولاد صفوان) لا أظنني أستطيع تدبيرها في المستقبل القريب وأنا بهذه الحنجرة المتوعكة، ولا أستطيع أن أستلف من أحد؛ لأن السلاطين لا يستلفون.

وحتى لو اضطررت إلى ذلك، فلن أجد من يقرضني مئات الآلاف وهو لا يدري متي تستطيع حنجرتي الوقوف من جديد.. أو إلى متى ستستمر الكلية الصحراوية تعمل بكفاءة في دمي. موافق.. سأوقع تلك الورقة الصفراء، أمسكت بقلم أزرق سلموه لي، وقعت على ثواب زيتون دون أن يهتز القلم في يدي.

بعد ذلك هدأت شحنة التوتر تمامًا، حملوا الورقة الكنز إلى زيتون، ثم عادوا. كانت ابتساماتهم هذه المرة حقيقية، الذي يريد أن ينجز ما خاف غيره من إنجازه، والذي يريد أن يستريح بعد أشهر طويلة من التنقيب في مناجم البطون بحثًا عن كلية الذهب، والكوثرات أيضًا، لابد يردن التخلص من ذلك ال(في.آي.بي) الذي يرهقهن بالأعباء.

سمحوا الحياة الحسن وبقية أفراد أسرتي بالدخول، وكانت حياة وقورة، ومتماسكة ودست في أذني كلمتيْن ناعمتيْن،أردت أن أرى «زيتون» لا لأعاتبه ةلا لأكسر عظامه، ولكن لأطيل النظر في وجه الرجل الذي اشتريت منه كلية بثمن كان يمكن به أن أشترى كلية من (آلتن جون) أو (ناعومي كامبل).كنت في محفة أنيقة لا تشبه تلك التي رقدت عليها في طريقي إلى عنبر الحوادث الرث، منذ نصف قرن، تدفعني النعومة المنبثقة من أيدي الكوثرات، لتدخلني في غرفة مضيئة ومكتظة بالذعر الأبيض.تنفس.. تنفس بعمق يا سلطان..والسائل العكر يشق طريقه في العروق.

-١٢-

فتحت عيني على مهل وأجلتهما في المكان، كنت في غرفة ضيقة مسورة بالزجاج،شبيهة بتلك التي رقدت فيها في المرة الأولى، لكنها تختلف في جدة التأثيث، واللمعان، وأيضًا في الكوثرات اللائي انتشرن في زي أخضر بهيج.على يدي اليمنى محلول وريدي يلهث ببطء، وعلى اليسرى دم صافٍ يلهث ببطء أيضًا.كان الجراح العظيم هو أول من طالعته، وكان مبتسمًا وناعم النظَرات، وقال دون أن يعطي عيني فرصة الالتقاط أكثر، أو أذني فرصة الارتخاء لامتصاص ما يدور:

- مبروك يا سلطان.. لقد نجحت العملية، وستكون بخير.

عندها انقشع التشوش الذهني كاملًا، تذكرت وعكة العامين الماضيين كلها، تذكرت الصويعة وأهلها المرابطين في روضة ذهب، تذكرت آخر صباح مغسول، وآخر صباح متورم، وتذكرت الثواب الزيتوني الذي وافقت على بنوده حين أضحت واقعًا لابد من الموافقة عليه.ترى هل نجا الصويعي من تلك المعمعة، ليعود فيما بعد يطاردني بمضاعفات ثوابه ؟..أردت أن أسأل عنه، وحاولت أن أخمن في أي جنب ترقد كليته المغبرة..مددت يدي لأتحسس، لكن الأسلاك والمتاريس العلاجية، كانت تشل حركتي.مددت عيني إلى ما وراء الزجاج الذي يسور الغرفة، كانت أسرتي كلها هناك، زوجتي وأبنائي، وصديقي المخابراتي، وأيضًا لدهشتي وعجبي الشديدين، كان يوجد (حامد ولد ساكنة)..شيخ الزار الأنثوي.كان متأنقًا بغرابة، في ثوب أزرق واسع الأكمام، وعمامة رمادية تندلق أطرافها حتى بطنه، ومسبحة مصقولة من ثمر اللالوب، كانت تحيط برقبته.إذن فقد دخل ولد ساكنة حياتي المعقدة بعد أكثر من

عشرين عامًا من محاولاته المضنية.دخلها من باب المرض والعناية المكثفة، ولا أدري ماذا يريد بالضبط.ليس في بيتي امرأة (مهسترة)، ولا تذوقت في حياتي طقسًا من طقوسه الغريبة.ابتسمت لأسرتي التي لوح لي أفرادها بأيديهم، وأخذت أتأمل الزاري محاولًا استبداله في خيالي بأعزاء كنت أتمنى لو كانوا يقفون مكانه..دودة القز مثلًا.. أكوي شاويش مثلًا..

تحدث الجراح مرة أخرى لينتشلني من أفكاري المبعثرة:

– ستمكث هنا لأربعة أيام، ثم ننقلك إلى غرفة عادية، وبعدها تذهب في سبيلك.

كانت ابتسامته مشرقة حقيقة،وخيل إلي أن وسامًا رفيعًا ينتظره في مكان ما، وربما درجة علمية يطلقون عليها (دكتوراه ذهب).بعد ذلك سمحوا لزوجتي بالدخول لكن دون قبلة أو حتى مصافحة باليد، وسمحوا العيالي بالوقوف مؤججي المشاعر عند قدمي، يضعون أقنعة معقمة على وجوههم.لا يقترب أحد.. لا يصافح أحد.وحين أراد ولد ساكنة الدخول معتمدًا على شهرته المحلية، وأنه يستطيع حتى الدخول على رئيس البلاد في غرفة نومه، أوقفته (كوثرة) شقراء لم تسمع بأباليسه من قبل:

– not allowed please.

الآن كان من اللياقة أن أسأل عن متبرعي، أو بائعي كما اتضح لي بعد ذلك.لن أسميه واهبًا؛ لأنه لم يكن كذلك.

– ماذا عن «أبو زيد زيتون» ؟

إنه بخير وسينقل غدًا إلى أحد العنابر في المستشفى..لقد أزعجنا أهله بشدة، وهم يخيمون الآن خارج المستشفى في انتظار السماح لهم برؤيته.

الحمد لله إذن؛ فبيتي صار خاليًا من الصويعة، وسأجاهد بعد أن أتعافى،في أن أجعله خاليًا إلى الأبد.سأغير الأقفال كلها، أدهن الأبواب والنوافذ، وقد أرتكب حماقة هدمه، وصياغته من جديد.لا أعرف حجم القمل الذي أفرخ هناك، لا أعرف حجم فيروسات الكبد وخامات التخلف العقلي، ولا عدد (السنداسات) التي ربما ينتقل إزعاجها إلي.حين بنيت ذلك البيت، كنت فتيًّا ما أزال، وكنت قادرًا على ملاحظة حتى نقاط عرق البنائين التي قد تلوث صبغة الحوائط.استوردت حجرًا خاصًا، وصبغة خاصة، وأبوابًا من خشب فاخر، نجرت في أماكن بعيدة. وأحضرت التركي (أوزال) من مقر شهرته في (أنقرة) كأفضل مصمم معماري، خصيصًا ليرسم لي خريطته..الآن لا طاقة لي على ذلك، ومضاعفات الثواب في انتظاري، ولكن مجرد هواجس تنتابني.أخيرًا عثر ولد ساكنة على ثغرة تركتها إحدى الكوثرات مفتوحة؛ حتى يمر جهاز متحرك جاء يتفقد قلبي، وجدته عند رأسي فجأة، شممت رائحة بخور إبليسي، وكدت أتلقى عناقًا حارًا، لولا أن عشرات الأيدي، أمسكت بالزاري وجرته إلى خارج الغرفة.الآن أشعر ببعض الاطمئنان، أحس بقطرات السم التي لم تكن تخرج إلا بواسطة تلك الآلات البكماء، تأخذ طريقها في ذلك الأنبوب الأصفر..

أيام العناية المكثفة الأربعة مضت ناعمة دون تأزم من أي نوع، كانت المحاليل تستبدل، وتزداد أو تخفض إلى أن حذفت في اليوم الأخير.الدم شربت منه ما يكفي لإعالة الخلايا لسنوات طويلة،والأنبوب الأصفر الذي يسرب السم خارجيًّا،الآن ممتلئ حتى النهاية.كانت الشتلة الصحراوية مجتهدة بجنون، تعرفت على أنسجتي بسرعة فائقة، صادقت الحالب والمثانة وعملوا جميعًا بكفاءة لإنقاذي.كانت الكوثرات أيضًا يعملن بجهد، يقسن ويتحسسن ويتسمن، وأحيانًا يدلكن أصابع قدمي حين أفقد الإحساس فيها.سألتهن عن (ماريانا استراد)، كوثرتي المفضلة ذات الوجه المعبر، كنت أتمنى لو كانت هنا،لو نقلوها من العناية العادية إلى المكثفة،ثم من المكثفة إلى العادية، حين أصبح عاديًّا.. وما هي إلا دقائق، حتى جاءتني..كانت تضع قناعًا واقيًا على وجهها لم

يحجب ذلك الوجه عن لغة الخيال، لكنه شيده داخل تلك اللغة، فتنة غامضة. اعتذرت عن تأخرها في السؤال عني.. قالت: سوف نراك في قسمنا قريبًا وانصرفت.

لم يكن الجراح العظيم يغيب أكثر من ساعتين أبدًا بالرغم من وجود عدد من المساعدين يتفقدونني باستمرار. أحس بقوة جبارة تربطه إليّ، فقد كنت إنجازه الكبير.. إنجازه الذي بات يتغنى به الناس.

في اليوم الثالث حوالي منتصف النهار، وكنت أحتسي فنجان القهوة المر الوحيد الذي سمحوا لي به، زارني زيتون. كان واجمًا لكن عينيْه لم تكونا خجلتيْن، مشيته هي مشية الناقة القديمة، وبقعة من دهن كثيف تلون أعلى ثياب العنبر التي يرتديها. كانت الصحف المحلية قد لاكت سيرته في اليوميْن الماضييْن، وكتب المخابراتي اعتذارًا مطولًا لمحبي ذهب، أعلن فيه فشل حملته في جذب متبرع حقيقي، وإن المتبرع الوحيد الذي كان متاحًا، هو - في الواقع - تاجر كبير في ثياب أعرابي رث من قرية الصويعة.. لم يكتفِ بمال السبيل الذي أعلن عنه، ولكن قفز إلى مال آخر لا تعرف الحملة عنه شيئًا. انبرى عدد من الشعراء يهجون الصويعة وأهلها، وكتب المئات في دفتر الزوار الملحق بموقع ذهب على الإنترنت، عبارات قاسية وجهوها إلى صدر زيتون.

أمسك البائع بيدي التي كانت حرة من الأسلاك، قبلها في لزوجة، قال: العفو والعافية. العفو والعافية. وتطلع إلى وجهي ليقرأ أي رد فعل. والواقع أنه لم يكن هناك رد فعل، ولا أريده أن يكون.. قلت لزيتون في صوت عادي، خرج من حنجرتي العادية، و لم تلطخه أية هرمونات غاضبة:

- أنت بعت وأنا اشتريت.. لماذا العفو.. ولماذا العافية ؟
- لم أرد ذلك.. لكن عريفة أرادت.

الأمر سيان عندي سواء أراد هو، أم أرادت حسناؤه المتسخة..مع الفرق أن عريفة كانت بلا أفق يملكها مزرعة عند أولاد صفوان، أو حافلة من طراز (روزا) الغالي الثمن، أو يضع في يديها عملة خضراء قد تظنها ورقًا للكوتشينة إذا رأتها.هو زيتون الذي خطط وكان تخطيطه فذًّا، الذي باع وكان المشتري مشوشًا، والذي يطلب الآن العفو ولن يناله حتى لو مزق تلك الورقة الكنز، ولن يفعل بالطبع.. أنا أيضًا لن أطلب منه ذلك.. لن أكون مفضوحًا وسط شعبي؛ لأن فاضحًا رعويًا يحاول أن يشد إزار هيبتي.رفعت وجهه الذي انحنى على يدي مرة أخرى، قلت: عد إلى عنبرك يا زيتون.. عندي زوار مهمون سوف يأتون الآن، وقد يفتقون جرحك إذا وجدوك.

نهض واقفًا وقفة جمل استراح قليلًا في ظل، اتجه إلى الباب الزجاجي تاركًا ذكرى ملوثة، لم أتابعه وهو يخرج، وعدت لفنجاني المر، أحتسيه حتى القاع.

ظهر حامد ولد ساكنة مرة أخرى، ليس عندي في العناية المكثفة، ولكن في واحدة من الصحف المحلية التي دأبت على اللهاث خلفي، بمحررين لحوحين لا يفرقون بين الذهب والقصدير. كان ضيفًا على تلك الصحيفة، حاورته في مسائله الروتينية كـ(التلبش النفسي)، وهستريا العازبات، وملل الجسد الذي يصيب المرأة بعد الأربعين..ثم عرجت ناحيتي حين طرح السؤال:

- ماذا تقول للسلطان ذهب بعد أن نجحت عمليته الخطيرة ؟

كان الزاري كأنه ينتظر ذلك السؤال، اندلق في حديث طويل عن علاقة الصداقة التي تربطه بي منذ أكثر من عشرين عامًا.عن ليالٍ وهمية عشناها معًا، وخراف ترعى في خياله، أكلنا من لحمها..وكان موغلًا في الخيانة حين قال إن المطرب الكبير طلب رؤيتي بشدة، حالما أفاق من المخدر، و لم أخيب ظنه.

هذا الرجل يحيرني تمامًا..أكاد أجن من ظهوره الغريب، وتمسكه بمحبتي ولا أعرف السبب.في البداية ظننته يريد عريفة الصحراوية؛ ليزرع في نفسها خللًا فلكلوريًا، ثم يخرجه بطقوسه الغريبة، والآن لا أعرف ماذا يريد.

حين تهيأت لمغادرة العناية المكثفة، أحسست بنشاط غامر..بدا جسدي شابًا، وحنجرتي طرية، وحركت أصابع يدي اليمنى كما أحركها عندما أمسك بعودي، فتحركت.هناك في الغرفة العادية التي سأنقل إليها، سألتقي بأصدقائي كلهم، ألتقيهم بلا حواجز زجاجية، ولا أسلاك شائكة تعوق المصافحة والاحتضان.سلموني كشفًا بأسماء أشخاص مهمين سألوا عني هاتفيًا في أثناء رقدتي في العناية، كان فيهم أعضاء في مجلس الثورة ووزراء يتذوقون غنائي في السر، وتجار رأسماليون أمثال (التبر) و (ولد النل)، و (عبد الله الربع)، أيضًا عثرت على اسم غالٍ كان لامعًا فيما مضى وأطفأته الشيخوخة.إنه المغني الثمانيني (صالح جفون) الذي يعيش الآن هادئًا بلا حنجرة ضاجة.لكن سروري وصل إلى قمته حين عثرت على رسالة بخط اليد،تتمنى كامل الشفاء للحنجرة الذهبية، كانت من الشاعرة الرقيقة أسماء، أرملة الطيار الذي بكيته ذات يوم في مدرج جامعي محتشد، وتحول بكائي إلى ثورة غضب ضد الحرب حملها الناس في الشوارع.

الغرفة التي انتقلت إليها كانت جيدة، وملحق بها فراغ وردي مفروش بمقاعد مخملية، في تلك الغرفة قضيت أسبوعيْن حافليْن، تحركت وأكلت وشربت، وضحكت بطاقة سرور جبارة.كان زواري لا ينقطعون أبدًا..الجادون والهزليون، الذين يحبونني لشخصي والذين يحبونني لغنائي، الصحفيون والإعلاميون والأكاديميون الذين يحضرون رسائل علمية في فني. لم يأت أحد من أهل الصويعة لزيارتي، وعرفت أنهم امتلكوا الحجرة التي كان يقيم فيها زيتونهم بالكامل، ثم زفوه إلى بيتي حين تقرر خروجه.حسنًا لم يبقَ الكثير على وجود تلك القرية في حياتي.. أظنني أقترب من

الشفاء، ومن إعادة الترتيب التي افتقدتها كل تلك المدة.

كان أهل بيتي ينتظرون خروجي من شرنقة المرض بفارغ الصبر،وقد أعدت حياة الحسن حفلًا مغايرًا لاستقبالي، ليس الحفل الذي تصدح فيه حناجر الطرب، وتتمايل سيقان الرقص وسط أضواء ملونة، ولكن الحفل الذي تراق فيه الخراف، وتعد وجبات (الفتّة) الغنية، ويأتي الدراويش من شتى مخابئهم في العاصمة ليمدحوا (المصطفى) وسط طوفان اللحم والأرز، والنشوة الصوفية. قالت حياة: هذا هو المطلوب، وحكت لي كيف احتفل (الصويعيون) بزيتونهم المر، الذي خرج ظافرًا وثريًا. قالت: رشوا على جسده غبارًا أصفر، ثم غسلوه بماء خاص أخضر اللون، أخرجوه من قرب كانت بحوزتهم، ووقفت عجوز (اليبابيك) و (السبابيك) في وسطهم ، وهي تردد تعاويذ مبهمة اللغة. كانت المعضلة الآن في كيفية الاحتفاء بي، وأولئك الغرباء يحتلون بيتي، ينتشرون في كل بوصة فيه،وقد رفضت حياة فكرة طردهم وأنا ما أزال مكبلًا، ومدينًا لزيتونهم.. قالت: حين تتعافى افعل ما تشاء.

ودعني طاقم المستشفى وداعًا باذخًا، أوقفوا حركة التداوي ودخول العنابر، وغرف الجراحة لساعة اصطف فيها العاملون لتحيتي، حملوا الورد والمشاعل الخضراء، وكأنهم كانوا يقدرون إعجابي بماريانا الآسيوية، فوضوها في تقطيع كيكة الاحتفال التي لم أتذوقها بالطبع، وأيضًا في غناء أغنية، وكانت لحسن الحظ أغنية جاءت بها من موطنها، وتؤدى في مناسبات الأفراح، وليست أغنية الضروع التي لحنها احتياجي إلى الكلى وليس إبداعي الحقيقي، وكانت الممرضة تحفظها كلها. كانت السيارة التي أقلتني إلى البيت بقيادة المخابراتي شخصيًا، وقد تلفت في ذعر وأنا أدلف إليها.. كنت خائفًا أن أجد عفريتي الجديد (حامد ولد ساكنة) جالسًا بداخلها.

-١٣-

كربن كركب

يا زول كب كب.

في البوكسي الأبيض

قوم اركب.

دوِّر لي مكة

الفيها عجب.

بلدا مو نار

مو غابة شب

بلدا أبرار

وترابه ذهب.

كرجن.. كرجات

الموعد فات.

الحق دينك

سوي الصلوات

حافي من الزاد

ارمي الجمرات

غربل دنياك

خلي الراحات

يا ساكن الموت

اثبت ثبتات.

دردم دردوم

حي يا قيوم

الفتة ام توم

بتهش النوم.

الخاطر شارد

وسط القوم.

العام عد

وبرطع في العوم.

والنام مذنب

آثامه النوم.

حرَّم حرحيم

أرحم يا رحيم.

قلبي المشتاق

لأبو ابراهيم.

في الدغش البدري

وفي التظليم.

في ساعة السما

ترشح بالغيم

في ساعة الناس

سلموا تسليم.

طربت لذلك المديح الأخاذ بصوت (النور الضرير) الذي لا أدري من أين جاءت به حياة الحسن بالرغم من أنني لم أفهم افتتاحيات المقاطع في قصيدته، كان (ختمًا) أو (برهانيًا) أو تابعًا للطريقة (السمانية) لا أدري، رجل مسن ووقور، ويرتدي العمامة الخضراء التي كانت قصيرة، وتبرز جزءًا مخضبًا من شعره الثلجي.وكان جماعته أو (حيرانه)، الذين تباينت أعمارهم وأطوال عمائمهم، يرددون المديح خلفه وهم يتمايلون ويدقون على طارهم.

كنا في سرادق جبار أُقيم بطول البيت وعرضه، على أرض فضاء كنت أملكها، وكنت جالسًا في وسطه محاطًا بالأصدقاء والأحباب وأيضًا بعدد من علية القوم، حرصت حياة على دعوتهم.. كان منهم التاجر (التبر)،والسفير (مالك) الذي أعرفه من أيام رحلتي الأولى في إفريقيا.ولحسن الحظ لم يكن ولد ساكنة موجودًا،فقد كان في رحلة علاجية إلى إحدى المدن. هي الليلة التي تحتويني، تحتفي بي، الليلة الصافية البعيدة عن هرج المغنين وأدرانهم، يرفع الضرير طبقات حنجرته، يخفضها، يجعلها في الوسط، يحلق بنا في مكة.. في المدينة..في عبق المساء وصوفية التملص من جبروت الطمع.كانت الصويعة المصغرة لا تزال موجودة، لم أشأ إلغاءها في أول يوم عدت فيه إلى منزلي، التمت معنا في السرادق الجبار، التم رجالها وتمايلوا، التمت نساؤها وتمايلن، ورقص ذهب الصغير وأنداده، ظانين أنها موسيقى راقصة.كان زيتون وعريفته موجودَيْن أيضًا،ويجلسان في مواجهتي.. البائع نظيف في ثياب بيضاء وحذاء من جلد مدبوغ، وطاقية من طراز (عماني) ملون.وكانت عريفة لدهشتي نظيفة جدًا، ليست نظافة عارضات الأزياء التي أتصورها، ولكن غالبًا قد احتك بجلدها صابون ما، وتغير قميصها الصحراوي الممزق، بآخر لماع كان منتشرًا في أسواق الشوارع في العاصمة.هي الآن حرم لرجل ثري باعتبار ما سيكون، ولكن ماذا لو مت فجأة في هذه الجلسة الصوفية المحلقة ؟..ساعتها لن يكون زيتون إلا ذلك الراعي الفقير الذي لا يملك سوى تلك الأيام المرفهة التي وفرتها له.سيلم حسناءه ويعود إلى الصويعة وقد

لا يحصل حتى على مال السبيل الذي جمدته الحملة حين جاء بورقته الكنز، ووقعتها.
كنت أفكر بخبث والضرير يحلق:

يا حادي رف هناك.
في غابة الأراك.
من طيبة المختار
جيب مسبحة ومسواك.
يا حادي بي هنا
وهنا.. وهنا.. وهناك.
احطنا بالأنسام
وازرعنا في خطاك.
نقوم متوكلين
تاركين عيال وعوين.
ما همنا السفر
ولا غباش العين.
قاصدين قبر الرسول
الهادي الأمين.
وصحبه الهناك رقود
بالجنة موعودين.
يا ربي يا جبار
يا قادر يا معين
تسهل الوصول
لي أرض المرسلين.

مضى الوقت دون إحساس مضجر، أو تعجل لانتهاء ذلك الحفل الفريد، وفي حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، أطفأ (الضرير) تحليقه وبعد أن بلغنا حدًّا من النشوة جعلنا نترنح، ولدرجة أنني فكرت في استئذان حنجرتي المذهبة لأحلق بها في مكة والمدينة وسكة السفر العذب إلى أرض المرسلين. حين كنت مغنيًا مبتدئًا في الريف، كنت مشبعًا ببعض تلك النفحات، كنت أشارك في الليالي التي تقام أيام الأعياد والموالد النبوية، وأيضًا حين يعود أحدهم من الحج غاسلًا وزره. نأكل من فتّة اللحم، وننقر على الطار، ونقلد (الماحي) شيخ المادحين الذي نبع من بيئة شبيهة ببيئتنا، وكانت قصائده منتشرة بشدة في ذلك الوقت.

انصرف الضيوف شاكرين، عاد (الصويعيون) إلى مقرهم في البعثرة،وعاد زيتون وعريفته أيضًا، لكنهما لم يذهبا إلى المخبأ السري في الغرفة الكبيرة كما كنت أتوقع، ولكن إلى ركن عادي رقدا فيه كصحراويين جافين، لا أدري هل ستداعب نومهما أحلام الثراء المرمرية، أم يخططان لوعكة أخرى تحت وطأة الأرق؟

أول ما فعلته في الصباح هو إجراء اتصالات عديدة،غربلة أرصدتي في البنوك التي أدع نها بحصاد الحنجرة، وتدعمني بالسيولة النقدية حين أحتاجها. كنت أرمي إلى توفر ر ثمن الثواب أولًا، ثم الاطمئنان على استمرار حياتي مرفهة دون أن تخدشها حاجة، ريثما يستعيد الذهب بريقه. عثرت على الثمن الأخضر للثواب، تلك العشرون ألف دولار، وسيولة عدة أشهر أقضيها راكدًا فنيًّا؛ لإعالتي وإعالة أسرتي، وعدة آلاف أخرى قد تجيء بمنزل مهلهل في حي (التخنة)، لكن لم يكن هناك ما يكفي لجر تلك الروزا ذات الستة وللعشرون راكبًا إلى أحلام زيتون، ولا زراعة بوصة واحدة عند أولاد صفوان.. الذين لا يقترب من مزارعهم إلا المقتدرون.. لم أفكر في الاقتراض.. كنت أعتقد يقينًا أن «زيتون» قد يتوعك أو يحس بالدوار حين يلامس الورق الأخضر، ومن ثم تسقط بقية الطلبات. ناديته من ركنه.. كنت مكتمل الهيبة وشرسًا، وأحس بهرمون

شبابي يتنفس في دمي.سألته عن اسمه الثلاثي وسلمته شيكًا يصرف لحامله.. كانت عريفة قد جاءت وراءه، ولمحت نظرات امرأة ملهمة تنط من عسل عينيها.مد يده واستلم دون رعشة أو إحساس بالفخامة،كما كنت أتوقع، ثم سألني في ثبات:

- ومتى أستلم بقية الأشياء يا عم ؟

في الواقع لم يكن في ذهني زمن محدد أستطيع أن أذكره،كنت في نقاهة قد تطول وقد تقصر، ومعتمدًا على العقاقير المضادة للرفض حتى تظل كلية الصحراء عاملة بجدية..كان من الأجدى لطالب الثواب أن ينتظر، أن يمنحني ضمانًا كتلك الضمانات التي تمنح حين شراء عربة أو جهاز إلكتروني، عامين.. ثلاثة.. خمسة أعوام.أريد ضمانًا ضد التلف، ضد تراكم الأملاح وضد الغرغرينا.لا يكفي أن تزرع الشتلة في الجسد، ثم يقرر الجراح أنها زراعة ناجحة، لابد من وقت.وقفت مستندًا على كتف زوجتي، وأنا أواجه البائع الحريص على قبض ثمن البضاعة عاجلًا، وأمد بصري بأقصى ما استطعت إلى حيث تلتم الصويعة أمام جهاز للتلفزيون، تتابع برنامجًا صباحيًا عن الصحة والجمال يبدو أنه كان غاصًا بالرموز الغذائية غير المهضومة لدى الصحراويين، لأنني لمحت بعضهم يتحرك في ملل، وسمعت بعضهم يطالب بتحويل القناة إلى أخرى تبث شيئا فيه طعم.وخمنت أن يكون ذلك الطعم أسدًا يفترس نعجة، أو مصارعًا رومانيًا يهد معبدًا من الحجر الصلد على رأسه.قلت:

- ستستلم كل شيء في وقته،حين تسمح ظروفي.. والآن لا أريد أحدًا من الصويعة في بيتي.. اخرجوا جميعًا.
- وإلى أين نذهب ؟

سأل دون أن تتغير قسمات وجهه.

- إلى حيث تشاءون..اذهبوا إلى الصويعة.. إلى حي التخنة..إلى أي مستنقع تجدوه يلائم حياتكم، وسأدفع الثمن.المهم ليس في بيتي.

تلك اللحظة قفز (ذهب) الصغير قفزة كبيرة على عمر الأطفال، أوصلته إلى رقبتي التي كانت مبتلة بخيوط من عرق، تعلق فيها قليلًا،ضخ فيها شيئًا من ريالته، وحاول اختراقها بأظافر هشة ومتسخة، وقبل أن أمسك به وأدليه إلى الأرض، وجدت الخفير (التلب) أمامي.كان غائبًا منذ شهرين تقريبًا قضاهما سجينًا بتهمة التحرش ببائعة للبن، من قبيلة (التكارنة)، اسمها (زليخة)، ظهرت مؤخرًا في الحي، وظنها الخفير من الطير الذي يؤكل لحمه.أمسكته من تكة سرواله، وجرجرته في الحي كله، وحينْ آخرينْ مجاورينْ، لتلقي به في وجه العدالة.كان التلب متحفزًا وهو يقف أمامي، بعينيه الوقحتينْ.. وبركاكة لسانه ذاتها..

- اعط الرجل حقوقه يا خيالي.

قالها وهو يضع يده اليمنى على كتفي، بينما يده اليسرى تتحرك داخل جيبه، يا خيالي.. لم أفهم ماذا كان يقصد بتلك الخيالي.. قطعًا لا يقصد الرومانسية التي هي بعيدة عن سلوكه، وقريبة من سلوك المغنين، ولعلها لغة شائمة من تلك التي تستخدم في طرق التشرد، ومواقف الباصات.. لم أدقق كثيرًا، أنزلت يده بهدوء من على كتفي، قلت:

- أنا وزيتون متفاهمان.
- وأنا أحب المشوي..والمدلك يا خيالي.

ضحك واحدة من ضحكات الشوارع الضحلة،تلك التي لم أسمعها منذ سنوات طويلة..وبالتحديد منذ أن مات (نعيم الضلالي) أحد متسكعي الحفلات الذي اشتهر بمثل تلك الضحكة، ودأب على مطاردتنا بها في الأعراس، يضحكها ويستل سكينًا يلوح به في وجوه المبتهجين.. لحسن الحظ خرجت يد التلب اليسرى من جيبه بلا سكين.

ذلك الصباح المتجدد، بعد ثلاثة أيام فقط من خروجي من المستشفى، عدنا للحياة، نتنفس من أكسجين انتزعناه بعد جهد. خرجت قرية الصويعة بأعرابها وباديتها.. بيبابيكها وسبابيكها، بالدكراك والجقجي، والسنداسة التي سوف تزعج الآن في حي التخنة الممتلئ إزعاجًا أصلًا. كانوا يحملون القرب والجرابات، يحيطون بزيتون كأنهم يحمون ثراءه من التبدد..ولم يلقوا أية نظرة وداعية على البيت الذي أتلفوه بإقامتهم البدائية. كنت قد عثرت لهم على بيت في المكان الذي أراده بائعي.. وبواسطة صديقي السمسار الإلكتروني (هيثم مختار)، صاحب الحواسيب والأراضي غالية الثمن والبريد الذي يربطه بمشترين في شتى بقاع الأرض، داخ هيثم يومًا كاملًا في حي لا يعرف تفاصيله، ولا يحتفي بعقاراته التي لا ترقى إلى المستوى كما يقول، ثم جاءني بالمطلوب.. بيت من الطوب الأحمر به غرفتان وصالتان، وحوش كبير يكفي لزرع خيام الصويعة كلها، لو جاءت خلف ثراء زيتون..وبالرغم من ثقتي في اختيار هيثم المنقذ، فإنني ذهبت لمعاينة ذلك البيت وكان بصحبتي الخفير (التلب) الذي يبدو أنه تغلغل في نواقص الصويعة، ليزداد بدائية، أو يرمي إلى امتصاص جزء من ثروة ذلك الغشيم. كان يقيني كبيرًا إن التلب وصعاليك آخرين من رفاق لعبة (الكنكان)، هم الذين حولوا الثواب إلى نقد، وحرضوا زيتون على كتابة أشياء لم تكن لترد إلى خياله الصحراوي بسهولة.

انتهيت من الصويعة في بيتي.. لكن هل انتهيت منها حقيقة ؟

بالطبع لا.. أنا الآن في نقاهة مؤلمة.. نقاهة ممتلئة بالفواتير المادية والمعنوية التي يجب عليَّ أن أدفعها.. أيضًا هي الغفلة، أو لهفة الاحتياج، تلك التي جعلتني أستضيف السوس وأرضة الخشب، وأيضًا المياه التي تجري من تحت التبن.هي مضاعفات الصويعة ما يبكي نقاهتي، ما يجعلني أضرب كفًّا بكف، أرفع الضغط والسكر، وهرمونات إفساد الكلى وقبل أن تستلم تلك الأخيرة وظائفها كاملة في إدارة الدم وغسيله.

-١٤-

أيام قليلة لم تتعد العشرين يومًا مضت في نقاهتي التي نصحوني بمدها إلى بضعة أشهر، حتى أستطيع العودة إلى شعبي بلمعاني القديم.قالوا لا تلحن إلا القصيدة التي تحسها ستخنقك أو تكتم أنفاسك، لا تغني إلا إذا كان غناؤك سينقذ أحدهم من حبل مشنقة، ولا تأكل إلا القليل؛ لأن الكثير قد يزعج كلية الصحراء، يفسدها وهي لا تزال شتلة.استمعت إلى النصيحة جيدًا، وهضمتها برغم شعوري بأنني في أفضل حال، وأنني أستطيع أن ألحن حتى لغة اليبابيك والسبابيك، والدكراك والجقجي.كان عدد من الشعراء الذين أتعامل معهم، قد اختفوا من حياتي حين ركدت فنيًا إثر المرض، نازحين بقصائدهم إلى مغنين آخرين كنت أغطيهم، وبدءوا يطلون من تحت الغطاء. هؤلاء الشعراء وجدتهم في حياتي مرة أخرى، جاءوا معتذرين ونادمين، ويحملون جمرًا عاشقًا قالوا إنه أوقد خصيصًا لحنجرة الذهب.قرأته وغرقت فيه، وجاءت بعض الألحان تتماوج لكنني لم أحفل بها، تركتها تذهب وأنا واثق بأن غيرها سيأتي حين أنتهي من تلك النقاهة الطويلة.أيضًا جاءني عقد لعرس راق قال صاحبه، وكان ابنًا لأحد التجار الكبار، إنه ظل يؤجله في أثناء وعكتي؛ اعتقادًا منه بأن صوتًا آخر غير صوتي لن يملأه، وبهجة أخرى غير البهجة التي سأنثرها، لن تكون.حاولت أن أعتذر، لكن الرجل أصر، رفع من الأجر حتى أوصله إلى رقم لا يمكن الالتفات بعيدًا عنه.. وكان إصراره ـ في حد ذاته ـ حافزًا لارتكاب خيانة صغيرة.تلك الليلة تسربت من رقابة الأسرة، وبمعاونة طاقمي المرفه الذي استعدته مرة أخرى، عرجت على مركز صحي قريب، تأكدت من سكري وضغط دمي، وكفاءة الحبال الصوتية التي ستضخ الغناء بعد غيبة.كان الطبيب متعاونًا، طمأنني على صحتي وإمكان أن أشدو بأغنيتين أو ثلاث من دون مشكلة.

كان العرس في حي الشروق البعيد، الحي ذاته الذي زرعت فيه بشتلة (أبو زيد زيتون)،والحي الذي سيظل منقوشًا في الذاكرة، يعود إلى الوعي كلما تذكرت موتي وحياتي.كان ثمة سرادق كبير لونته الكهارب، وجمهور كبير أيضًا، بعضه كان مدعوًا، والبعض الآخر جاء هكذا..ومجموعة من زملاء الغناء توافدوا تباعًا وكل يحمل آماله وحصاد فنه.طلبت من صاحب العرس أن أغني أولًا وأذهب، وكان يدخرني لختام المسك كما أعلن لمدعويه، وتحت إلحاحي، اضطر الرجل أن يستبدل المسك الحقيقي بآخر مغشوش،وترك أمر الختام لواحد من أمثال (عزو جمباز)،ذلك الحاوي الذي انقلب مغنيًا.

بدأت بأغنية هادئة وشجية الكلام، كانت من شعر مهاجر عراقي، كتبها تحت وطأة البرد والمطر في عاصمة أوروبية،وعثرت عليها صدفة في إحدى المجلات.كنت أريد جمهورًا يسمع، لا جمهورا يضج، يخنقني على المسرح وأنا في هذه الخيانة التي قد تنتهي بتلوث في الحلق أو التهاب رئوي،لكن ذلك لم يحدث مطلقًا، فما إن وصلت إلى منتصف المقطع الأول من الأغنية، حتى وجدت عشرات القمصان والسراويل المغبرة تقفز إلى المسرح وتحيطني ، كانوا أولئك القوم الصحراويين الذين أسكنتهم حي التخنة، معتقدًا أنني ألغيتهم من حياتي، كانوا يقتربون مني، الواحد تلو الآخر، يرددون غير عابئين بانسياب اللحن أو رقة الكلام، أو الخلل التقني الذي قد يحدثونه في صوت فنان أمام جمهور:

- أنا هزاز الممثل.. من الصويعة.. قريب زيتون الذي أعطاك كليته.. كنت ناقة وسخلة ونعجة كثيرة اللبن في بيتك.. هل تذكرني يا ذهب؟
- أنا دحرم ابن عم زيتون الذي أعطاك كليته..كنت أحب الممثلة (شيري) في تلفزيونك..هل تذكرتني ؟
- أنا كحلان ولد الدقير.. الذي أُلقب بالشولة.. من أهل الصويعة..هل تذكر يوم

غضبت مني لأنني بصقت على سجادة ؟

– أنا الجاهي حامر.. ابن خالة زيتون الذي أعطاك كليته..لابد أنك لم تنسني.

أنا كرار.. أنا حجيب.. أنا العثار.. أنا.. أنا.. تقافزت تلك التذكارات المرة بشراسة من عرب الصويعة حتى تشوش ذهني حقيقة، و لم أعد أذكر حتى العجوز صاحب السنداسة الذي توكأ على عكازه وصعد هو الآخر ليخنقني.وكان الختام الحقيقي للأزمة حين رأيت (أبو زيد زيتون) نفسه يتحرك باتجاهي.. ثم ليلتصق بي صارخًا:

– أنا أبو زيد زيتون الذي أعطيتك كليتي.. طبعًا لم تنس طلباتي يا عم.

وكان بالطبع شيئًا غريبًا أن يذكرني زيتون بنفسه.. شيئًا ما كنت أتوقع حدوثه.

تلعثمت حقيقة في أدائي، وبدرجة أربكت أسماع الجمهور الذي كان متلهفا ينتظرني بعد غيبة، وأخيرًا أوقفت الأغنية عند مقطعها الذي يقول:

كأني أستقي وطني
من النبع الذي تلدين.
أنت فرات أيامي
ودجلة روحها والعين.

أوقفتها وطلبت الحماية. لم يكن صعود الفوضى إلى مسارح الغناء ـ في حد ذاته ـ أمرًا يستوجب الحماية، فقد كان الفوضويون ـ في أغلبهم ـ جمهورًا عطشان يحس بارتواء ما حين يقترب من مغنٍ يشدو، وطوال تلك المدة التي سرت فيها في هذا الدرب لم أطلب حماية من أحد، حتى حين كان بعض السكارى يترنحون بابتذال

أمام صوتي، ويخرج بعضهم سكاكين مضطربة يلوحون بها.. كنت أواصل أدائي.. أواصل رسالتي، ودائمًا ما كان ينتهي الأمر على خير.. لكن هذه المرة كنت أحس بهاجس مجهول.. وحدة غريبة.. وأنني حقيقة في ورطة.

لم يستغرق الأمر كثيرًا، فقد تطوع العشرات من محبي غنائي، صعدوا إلى المسرح قساة وشرسين، كنسوا الأعراب من أمامي، ووقف عشرة منهم في شكل حائط بشري، يصد كل من أراد الصعود مرة أخرى.لكن بقيت علامة استفهام كبيرة، أحسست بها تتجول بين المقاعد والطاولات ، تخرج من فم إلى أذن، ومن أذن إلى فم..ماذا أصاب السلطان ذهب ؟

بالطبع لن يفهم أحد دافعي أبدًا؛ لأن لا أحد سقط بجدارة كما سقطت، لا أحد عاش في جحر، وبيته قصر، ولا أحد اشترى كلية من راعٍ مغبر، بسعر ناقلة نفط. واصلت الغناء بعد ذلك، لكنها مواصلة مهزوزة لا ترقى لمستواي الذي يعرفه الناس جيدًا، غنيت واحدة من أغنيات (البنات) الشهيرة، والتي كنت قد عدلت من كلماتها ولحنها ووزعتها موسيقيًا بواسطة أكاديمي كوري، غنيت (سوسن)، من قصائد (دودة القز) في إحدى السوسنات. وأوشكت أن أغني (بطاقة حب)، بناء على طلب كوثرة راقية من أهل العريس، أرسلته مكتوبًا، لولا أنني انتبهت إلى أن زيتون لا يزال مرابطًا في الحفل، يحتل موقعًا صداريًا، ويرفع يده ويبتسم، ويكتب بإبهامه على الهواء كلمة لم أستطع قراءتها، لكنني خمنت أنها سباب أو تهديد، أو شيء من هذا القبيل.وأخبرني بعض معارفي الذين كانوا موجودين واستطاعوا قراءة تلك الكلمة، أنها كانت (روزا) أو (روزانا) أو (روزاك)، وأضافوا: إنه كتب كلمة أخرى لكنه لم يكررها كثيرًا، وكانت صافي أو صفوة أو صفوان، لا يعرف أحد بالتحديد.

وصلت إلى بيتي في الثانية صباحًا..الموعد ذاته الذي اعتدت الوصول فيه بعد أي حفل ساهر، وجدته مشبعًا بالقلق الذي وصل فورانه إلى الطريق العام؛ حيث كان هناك بعض الخدم مرابطين يترقبونني..كنت غير مستعد لتلقي اللوم والعتاب و لم أرد أن يضيف أحد كلمة إلى تشوش الصويعة الذي يملؤني..وقبل أن أتملص تمامًا من تلك الواجبات المنزلية، رن جرس الهاتف، كانت رنة غريبة في ذلك الوقت من الليل، لكنها ليست نادرة، التقطت الهاتف، وهناك على الطرف الآخر سمعت الصوت الصحراوي يهدر.. صوت (أبو زيد زيتون):

- هل وصلت إلى بيتك يا عم ؟

صحت بأقصى ما استطاعته حنجرتي المعتادة على صعود سلالم الغناء والنزول منها حسب الحاجة:

- ماذا تريد مني يا زيتون ؟
- فقط أطمئن على وصولك.
- وماذا يعنيك لو وصلت أو لم أصل ؟
- يعني لي الكثير..أنت تحمل كليتي.. الثواب.. الثواب..

أغلق الهاتف لكن هدير الصوت لم ينغلق في رأسي وأذني، وحتى في حويصلات الرئة،كانت ثمة نبضات عملاقة تخرج من شريان إلى وريد، ومن وريد إلى شعيرة دموية، دم مؤكسد يصارع دمًا غير مؤكسد،وعباءة من العرق غطت جلدي. كان الواضح أنه لا فكاك من زيتون.. لا فكاك من الصويعة.وحتى لو استطعت أن أوفر كل ما طلبه البائع سأواجه بمفاجآت جديدة.أردت أن أشتم الكلية التي أحملها وأكرهها، أشتم غرف الجراحة وأدوات التعقيم، والتخدير، وحملات استثمار الذهب وامتلاكه،

وكل ما أدخل زيتون وصويعته في حياتي التي كنت أفخر بترتيبها،وسيرها على الخط الذي رسمته منذ أن ابتدأت أغني وابتدأ الناس يتذوقون غنائي.أردت أن يخرج هؤلاء ميتين.. ميتين من انهيار بيت مهلهل في حي التخنة، من هدير سيل جارف مر بالحي وأغرق سكانه، من سقوط طائرة ضالة على سقف، وانقلاب دموي لا يفرق بين بدو وعسكر.

في أحد انصباحات كنت جالسًا أفكر، وفي ذهني عدد من المشاريع أردتها أن تخرج برغم اليأس..أن أسهم في إنشاء مستشفى لغسيل الكلى وزراعته، خاصة لدى الأطفال أمثال (باكو) الذي لم أنسَ أبدًا معاناته.. أن أعدل من سيرتي وسلوكي، وأقنن من استهلاك حنجرتي المسنة حتى أظل ذلك الذهب الذي يعرفه الجميع، وأن أبدأ في دراسة ذلك الشاب الذي عرفته أيام حملة الذهب، وجاءني خاطبًا إحدى بناتي.جاءتني حياة الحسن تركض، كانت في يدها رزمة غزيرة الأوراق، وضعتها أمامي وهي لا تكاد تتنفس.توجست شرًّا، مددت يدي إلى الأوراق وقلبتها، كانت من شركة الاتصالات الوطنية، تطالبني بمئات الآلاف من الدنانير؛ لقاء الاستخدام المكثف لهاتفي في الأشهر الأخيرة. صعقت لأنني لا أذكر شيئًا من ذلك الذي دونته الشركة، لكنني ما لبثت أن اكتشفت أن (الصويعيين) الذين كنت أستضيفهم قد دخلوا تقنية الاتصالات ليس من أوسع أبوابها فقط، ولكن من تلك الأبواب التي لا يمكن أن تخطر على بال صحراوي مغبر أبدًا.اكتشفت أنهم تبرمجوا جزئيًا بما تبثه قنوات الفضاء من سموم تدعي أنها كنوز، شاركوا في انتخاب ملكات جمال عرضت أُجسادهن حارة على الهواء،شاركوا في طرح الأسئلة على مغنين ومفكرين وساسة استضافتهم برامج مثل (ساحة حوار) و (ضيفك في بيتك)، و (نبهني إذا أخطأت). في تعبئة قسائم الزواج لفتيات سجينات ومعزولات كن يعرضن ب(البلو جينز)، والبلوزات الوردية، وبمواهب ركيكة في الطبخ ورعاية العيال.في رفع أسهم شركة، وخفض أسهم أخرى،وتعويم أسهم ثالثة.أنشدوا أناشيد الحسرة والتبرك في احتفالات أعياد

كنسية، وهتفوا ضد غزو العولمة في برامج كانت تريد آراء شعبية نابعة من المعاناة. تعرفوا إلى (كيلي) مفتش الأسلحة من صورته، وخاطبوه بلغة اليبابيك والسبابيك، وعلى الدكتورة مريم خبيرة الأعشاب ودلوها على عشب نادر في صحراء الصويعة، استخدموه بالفعل في طرد الإمساك والبلغم والسعال الديكي، وفي خطوة متقدمة حتى في ذلك المجال، أرسل بعضهم بسير ذاتية ركيكة لفتيات مثل (سندس) و (ريتا) و (فرح)،آملين أن يدخلوا ذلك السباق المحموم للفوز بقلوب أولئك العذراوات. قفزت بين الأرقام المهولة باحثًا عن خطأ طباعي، أو مكالمات سجلت في غير مواعيد بث برنامج ما.. استعنت بمجلات تنشر دلائل موسعة لمواعيد البرامج وإعادتها، كان كل رقم صحيح، وكل مكالمة سجلت، هي مكالمة هدر بها صوت لئيم.لقد خدعني الصويعيون، خدعوني ببداوة تستطيع أن تتحضر حين تعثر على هاتف مجاني وفي صالة مبعثرة لا يراقب تفاعلاتها أحد.خدعوني باتساخ عريفة، و(بهائمية) هزاز، وإلحاح صاحب الدكراك والجقجي والسنداسة..تبعثرت في حيرة، طلبت قهوة بأقصى عدد ممكن من ملاعق السكر، وكدت أخنق خادمًا حاول منعي من التهام قالب كامل من حلوى (الجيلي).

في ذلك النهار اللزج بفضل غراء الصويعة الذي التصق بي، كنا أنا والسمسار (هيثم مختار)،والصديق المخابراتي السابق، نغربل العاصمة من نيلها إلى صحرئها؛ بحثًا عن الصحراوي (أبو زيد زيتون). لم يكن موجودًا في منزل حي التخنة المهلهل الذي استأجرته له، وعثرنا على عدد من (الصويعيين) استقبلونا ببداوة وودعونا ببداوة،كان فيهم (هزاز) الممثل، وجمعة السقا الذي قدم حديثًا لينضم إلى قائمة السياط التي تجلدني، أيضًا عثرنا على عريفة وكانت تولول من وسواس قهري أصابها أخيرًا، وهو أن «زيتون» قد تزوج بواحدة من نساء العاصمة، ويعد مسكنًا آخر لعروسه الجديدة.ومن غرائب الأمور التي وجدناها، أن الخفير التلب كان هناك، ليس زائرًا عاديًا لأصدقاء، ولكنْ مقيمًا في ذلك البيت مثله مثل أي صويعي آخر. حاولت

أن أتجنبه لكنه بادر بإغاظتي:

– أين حقوق الرجل يا خيالي ؟

أيضًا يا خيالي، التي لن أستطيع أبدًا العثور على مغزاها الشوارعي،لكن كان أفضل ما في الأمر، إن الخفير المتوعك السيرة، الآن خارج منطقتي النظيفة، خارج روضة ذهب.بحثنا في عدة أحياء مجاورة، وقصدنا أن نمر بمزارع كثيفة الأشجار،تغص بثمار المانجو والبرتقال والنارنج، ووكالات للسيارات تعرض حافلات (الروزا) وغيرها، وتعمدنا أيضًا أن نقف متخفين، أمام بوابات عدد من الجامعات أملًا في العثور عليه (يتمنظر) على الجامعيات أو يغازلهن،كعادة الريفيين الذي يغزون العاصمة..قال المخابراتي: إن «زيتون» غالبًا ما يكون واقعًا تحت صدمة الثراء الجديد. ومثل هؤلاء يقضون الأيام والشهور يقفزون من سوق إلى سوق، يشترون كل شيء بأعينهم فقط إلى أن تستقر أذهانهم.وغالبًا ما ينتهون من يومهم جائعين في مطعم (عفارم) الشعبي. كنت أريد زيتون لأحمله أربعة آلاف دولار هي نفقات مجون عائلته، وربما مجونه هو أيضًا، وكان المخابراتي ينحت رأسه الخالي من الشعر؛ بحثًا عن تهمة تمس السيادة، وتناسب الخيال القح لأعرابي من الصويعة، بينما كان هيثم مختار، مجرد سمسار ذائع الصيت، مل من المكاتب والحواسيب، ولغة البريد الإلكتروني،وجاء يرافقنا لكسر روتينه.

انتهى بنا المطاف في مطعم (عفارم) في الساعة التي حددها رجل المخابرات بالضبط، وكما توقع كان زيتون هناك، جائعًا وشرهًا يلتهم طبقًا من كبد الإبل النيء وآخر من الكوارع التي يتصاعد منها البخار. جلسنا على مائدته و لم يكن متفاجئًا، هذا المتبرع يحيرني ببرود لم أعرف له مثيلًا من قبل، لا يفاجأ.. لا ينفعل..و لم يخرج من طوره إلا مرة واحدة فقط، حين أراد الخياط المغرور مستر عادل أن يرى زوجته

ليرسمها في تصميم من تصاميمه الغريبة.

كان المخابراتي قد فرغ من نحت رأسه.. ومن ثم مال عليَّ هامسًا:

- أنا في غاية الأسف يا سلطان.. ليست هناك تهمة تمس السيادة يمكن أن تناسب هذا الرجل.

لم أهتم كثيرًا، وأخرجت فواتير الاتصالات المجنونة، وتولى السمسار قراءتها بصوته المنخفض.. قرأها حرفًا حرفًا.. ورقمًا رقمًا.. الجهة المتصلة والجهة التي انتهى عندها الاتصال..شيء في قبرص.. شيء في مصر.شيء في لبنان، وأشياء في أمريكا واستراليا.وكل مكان نبعت من أرضه نساء مشخلعات على الشاشة البلورية، أو رجل علم وسياسة، ليتحدث عن علمه وسياسته.

- لماذا تخرب حياتي هكذا يا زيتون ؟
- أنا لا أخرب حياتك.. لكنني أحافظ عليها.

لم يكلف نفسه حتى إيقاف لقمته التي كانت في طريقها من يده إلى حلقه، و لم يمسح ذلك الشره المخيف من عينيْه اللتيْن كانتا تشاركان أسنانه المضغ. لم ينهض.. لم يعتذر.. لم يبد أي كرم أو مروءة لتحمل ما أردته أن يتحمله، شعرت بقصر قامتي في ذلك اليوم، بكبر جرحي، وجرح فني وإبداعي، وأنني ما كان يجب أن أصبح سلطانًا حتى على ريفيين ساذجين يهزون رؤوسهم بلا معنى، حين أغني في حفل باهت للختان في ذلك الريف البعيد.لن يفعل زيتون شيئا في أي شيء.. لن يدافع عن جرحي، والأهم من ذلك أنه لن يتنازل عن حافلة الروزا اللعينة، أو شبر من تلك المزرعة التي يخلم بامتلاكها عند أولاد صفوان.وقد سمعت أن واحدًا من هؤلاء الأولاد يسعى لمقابلتي للتفاوض معي على السعر.كنت خائفًا من غربلة أرصدتي في

البنوك مرة أخرى، خائفًا أن أجدها قد جفت أو تدهورت إلى مستوى لا يسمح لي بالحياة المرفهة مرة أخرى، خاصة وإن السلطنة التي أتمسك بكرسيها حتى الآن، بدأت في زحزحة ذلك الكرسي، وقد تجلس عليه واحدًا آخر لا يغني بكلية اشتراها من (أبو زيد زيتون).

دفعت تكاليف المجون الصحراوي مرغمًا، وتكاليف خروفيْن فخميْن، وثور مكتمل الفحولة لذهب الصغير بمناسبة ختانه، وأرادت إحدى نساء الصويعة أن تتسول في منطقة يملك حق التسول فيها واحد اسمه (الغرباوي)، فتهشمت ساقاها، وكان لابد أن أدفع تكابف ترتيق تلكما الساقيْن. وقبل أن أدخل في الشهر الأخير لنقاهتي، أشعلت السلطة حملات شرسة للم النازحين من الريف، وإرجاعهم إلى ريفهم. وعثرت على أعداد مهولة من هؤلاء كانوا عالة على العاصمة، يزعجون نهارها، ويتلفون ليلها. كانت فرصتي للتبليغ عن أهل الصويعة الذين أصبح تعدادهم الآن أكثر من خمسمائة شخص بمنْ فيهم النساء والأطفال، يقيمون جميعهم في حي التخنة، داخل بيت زيتون وحوله. أخبرت صديقًا سلطويًا بما جال في خاطري وجلست أنتظر. بعد يوميْن هاتفني الصديق، منشرحًا.. قال: ابشر يا سلطان، لقد تم التخلص من الصويعة إلى الأبد، وإنه لا يوجد منها حاليًا في العاصمة سوى «أبو زيد زيتون» الذي يعمل رجل أعمال، وعريفة زعال التي هي زوجته، وموسى أبراك الذي يعمل بالحجامة والتفصيد، وهزاز علي.. الممثل الحر الذي لا ينضوي تحت أية نقابة ولا تجمع. وحجوجة رامية الودع، وقارئة الكف، وجمعة بائع الليمون في ميدان المحطة، وجابر خلف.. المدلك في النادي الرياضي لحي التخنة، وتماضر... المغنية الشعبية في أعراس الفقراء، وزكية حمدان.. بائعة (الضرابة)، الوجبة التي لا يستغنى عنها الكثيرون.. ونافع بروك.. حلاب الغنم في إحدى المزارع.. والجبيري ماسح الأحذية، وكاتم الطويل الذي يتولى أحد فرق الدرجة الأولى تدريبه ليصبح لاعب سلة محترفًا، ومريم سعيد التي ستتزوج بكاتم، والأسد همائم الذي استوعب قصاصًا للأثر في الشرطة، و..و.. وعندما وصل

إلى الاسم التسعين بعد المائة، أصبت بانهيار عصبي. كانت الصويعة لا تزال موجودة، وتعمل على قتلي بهذا السم الصحراوي.

-١٥-

مضى شهر كامل على انتهاء نقاهتي الإجبارية، و لم أصعد على أية خشبة للمسرح، لأغني، على عكس ما توقعت أيام وعكتي الطويلة. كنت أظن الملايين ينتظرونني، الكوثرات يترقبنني بجنون، وتحاصرني عقود الأعراس والحفلات العامة حتى لا أستطيع تلبيتها، وأيضًا أعود أولًا في قوائم السفر التي تعدها السلطة من حين إلى آخر؛ لتغطية نشاط ثقافي أو تراثي يقام للتعريف بالوطن في بلاد العرب أو أوروبا.

في أيام النقاهة الأخيرة، كان استعدادي كاملًا، جربت حنجرتي كاملة بجميع إمكاناتي في جلسات صغيرة أقمتها لأصدقاء، أو أقاموها على شرفي، وسجلت بمعاونة إحدى شركات الإنتاج الجديدة ألبومًا فاخرًا ضم الكثير من أغنياتي التي يعرفها الناس ويعشقونها، و لم أشأ ملأه بأغنيات جديدة؛ خوفًا من احتراقها قبل أن أشدو بها مباشرة أمام عشاق فني. قال المنتجون: إنه ألبوم قنبلة. .فجروه في أول يوم انتهت فيه نقاهتي، وجلسوا ينتظرون عائده بنفاد صبر. أيضًا جاءتني الرقيقة أسماء حاملة مرثية جديدة لصديقة لها، لم تمت من حرب ولكن من ملاريا، لحنتها على عجل، وأسمعتها للشاعرة ونفر من أصدقائها، أثنوا جميعًا على حنجرة الذهب التي تأبى أن تشيخ. لم تأت الصحافة الرسمية لتهنئتي بتمام الشفاء.. مبرزة صورة لي بحجم صفحة، وشائعات كثيرة عن مشاريع لم أذكرها، كما كان يحدث في السابق ولكل نجم في ضوء أحمد ذهب أو أقل. وكانت تنشر أخبارًا قصيرة عن فني تخلو - في الواقع - من أية إثارة، بعكس ما كانت نشره عن (أبو زيد زيتون) متبرعي وبائعي الذي افتتح كشكًا لبيع أشرطة الكاسيت، معتمدًا على مغنين جدد، يحملون ألقابًا مثل مطرب الشباب، وحنجرة النيل، وفنان النخبة. أيضًا افتتح مطعمًا شعبيًّا لبيع الضرابات والكوارع، وكبد

الإبل، على غرار مطعم (عفارم).

بدأت أشعر بالقلق من ذلك التجاهل، وأنا الذي لم يبقَ بوق إعلامي في الأرض لم يغط حملة التبرع لي بالكلى، اتصلت بعدد من الأقلام التي أراقت شبابها في مدحي والآن صامتة. كلمت مسؤولين في الإذاعة والتلفزيون الوطنيين، عاتبتهم جميعًا، وطالبتهم بحملة تذكيرية تعيد إلى الأذهان تلك الروائع التي شدوت بها.وكانت ثمة استجابات لم ترضني، أو لامست جوعي لكنها لم تطفئه.أخيرًا كان لابد من مؤتمر صحفي أخطط له جيدًا. في ذلك المؤتمر سيعرف الجميع أن أحمد ذهب ما زال الذهب الذي لا يصدأ.

التم الصحفيون في بيتي المرتب جيدًا، والخالي من زخم الصويعة ومضاعفاتها، كانوا يحملون وجوهًا متسائلة، وكاميرات خرجت من جراباتها لالتقاطي، قلت لهم ما استطعت قوله عن سيرتي بعد المرض، عن مشاريعي التي لم تتوقف، وأغنياتي التي كنت ألحنها حتى وأنا على محفة تحملني إلى غرفة العمليات. حدثتهم عن شعراء من خارج الوطن، كتبوا خصيصًا لحنجرتي، وآخرين من داخل الوطن مدوني بالنصوص ورفضتها؛ لأنها لا تليق.وفي ختام حديثي أبديت ملاحظة اعتبرها البعض مهمة، و لم يعرها البعض الآخر أي التفات.كانت عن تلك الأصوات الركيكة التي يروج لها الإعلام حاليًا، دون أن تجيزها لجنة أو يقيمها مقيم.هؤلاء ليسوا بمغنين حتى لو غنوا على سطح المريخ.. حتى لو ظهرت سحناتهم في أخبار (CNN). قلتها ثائرًا ولمحت رؤوسًا تهتز لا أدري: هل كانت تؤيد أم تستنكر ؟.أفسحت المجال للأسئلة ليأتني محرر من إحدى الصحف متسائلًا:

- حين غنيت أغنية عريفة التي هي أغنية دون المستوى، وامتحدها الإعلام..ألم يكن ذلك نفاقا أيضًا ؟

- لآ.. لا نفاق ألبتة.. عريفة مثلها مثل أي أغنية أخرى، لها طعم مميز ورائحة مميزة.

صرخت برغم اقتناعي التام بركاكة أغنية الضروع تلك، وأنني ما غنيتها إلا بسبب تلك الكلية اللعينة، التي أرتديها الآن.سؤال آخر:

- ماذا تعني برفضك الغناء لشعراء أمثال (ضو النور)، كنت فيما مضى تغني لهم أغنيات رائجة ؟

في الواقع لم أسمع بشاعر اسمه ضو النور أبدًا ، كانت لي معه تجارب أو لم تكن، أيضًا لم أرفض الغناء لشاعر من الذين أعرفهم، وما قلت ذلك في كلمتي إلا تضخيمًا لصدى عودتي، كنت أريدها عودة متكبرة.. عودة أسطورية.أجبت عن السؤال الوهمي بإجابة وهمية أيضًا، أضفت إليها أسماء أخرى هي أيضًا لم أسمعها تكتب الشعر أبدًا:

- ضو النور و أحمد أمير ومحمد طراوة، إخوة أعزاء لكنهم لم يتطوروا حقيقة، ظلوا حبيسين لتجارب التوهان والتوحد التي لا تفيد هذه الأيام.. أنتم ترون الطفرة التي تحدث في كل شيء، لماذا لا تكون هناك طفرة في الغناء أيضًا ؟
- وأسماء.. هل يمكن أن نسميها شاعرة المراثي ؟
- لكم ذلك.. لكن لا تنسوا إمكاناتها التي تستطيع أن تصنع أيضًا قصيدة عاشقة ومجنونة. أعتقد أن المسألة.. هي مسألة وقت فقط.
- ومتى ستغني في حفل جماهيري ؟

إجابة هذا السؤال بالذات لم أكن أعرفها، فكما قلت من قبل لم يدعني أحد للغناء، لا جماهيريًّا ولا غير ذلك، وماهذا المؤتمر الذي أقيمه الآن إلا شبكة أصيد بها تذكر الناسى ليتذكروني. .لكنني أجبت:

- قريبًا.. قريبًا جدًّا.
- هل نستطيع القول إن أحمد ذهب قد انتهت مشاكله الآن.. سوى تلك الصحية أو الاجتماعية، ويستطيع التفرغ لفنه ؟

كان سؤالًا صاعقة من فتى عشريني، أطفأ لتوه السجارة العاشرة منذ بدأ المؤتمر.. لم أكن أعرفه، وخمنت أنه توظف لتوه في تلك الصحافة الفنية التي كنت فيما مضى أعرف حتى من يصنعون الشاي لمحرريها ليحرروا، أعرف كم عدد السجائر التي يدخنونها، وكم عدد القمصان والبناطيل التي يملكون.مشاكلي لم تنتهِ مادام زيتون موجودًا والصويعة موجودة، وحملات إعادة الريفيين إلى أوطانهم، مجرد تفاهة لم تعد ذلك البهائمي هزاز إلى منبع (بهائميته).وذلك العجوز الغريب الأطوار إلى حيث يعثر على معني لتلك السنداسة. .مشاكلي لم تنتهِ وأولاد صفوان ينتظرون،ووكالات الحافلات التي لابد أن متبرعي قد أزعجها، أيضًا تنتنتظر. لم أعرف.بماذا أرد، في داخلي يقين مر بأن لا حل لمشاكلي، ويقين آخر أقل مرارة يهتف.. أن ثمة حلًّا ممكنًا.تركت السؤال مطروحًا وقفزت إلى إجابة لا تشبهه أو حتى تقترب منه.

كان للمؤتمر صداه الذي أرواني، جاءني على الفور حفل ساهر كبير، حفل فاخر في سينما (البلو) إحدى قاعاتي المفضلة حيث لا سكارى ولا مجانين، ولا صعاليك يفسدون مزاجي.حفل أغني فيه منفردًا بلا (جلود مجلود) ولا (عزو جمباز) أو واحد من أولئك القتلة الذين ذبحوا الغناء الأصيل علنا.وللأسف الشديد، قضموا الكثير من شهرتنا نحن رواد الطرب.في ذلك الحفل سينسى كل شئ عن توعكي وابتعادي،

ويبدأ تاريخًا جديدًا للحنجرة الذهبية. وقفت مرفوع الرأس أغني من كلمات (الشربيني عاشور)، ذلك الشاعر الرقيق الذي التقيته مرة في القاهرة، ونفحني بشيء من روحه:

كفى يا دمع أن تأتي غزيرا
لتفسد مهجة الصب البهيج
وكنت أدسها في القلب حتى
غدت قلبًا أصيلًا من نسيجي
أقابلها مكحَّلة الليالي
وفاتنة تلوِّح بالأريج
أقابلها إذا قابلت سعدي
رقيقًا أو تخضَّر بالمروج.

كان الناس أمامي يستمعون في وقار،بعضهم يسند رأسًا حزينًا بيد مرهقة، بعضهم يتجه بنظراته إلى الأرض،بينما آخرون يمدون أيديهم إلى أعينهم بين لحظة وأخرى ربما ليمسحوا دمعًا، أو يطردوا ذكرى مؤلمة تراءت لهم.فجأة تغير طابع الحفل، لا.. لم يتغير، بل انكسر..أو تمزق، صعدت الصحراء إلى مسرحي وحاصرتني:

- أنا سلمان عودة.. قريب زيتون الذي أعطاك كليته.. أعطني سيجارة.
- أنا الكبيب.. قريب زيتون الذي أخذت كليته جئت لتوي من الصويعة، وفاتني المولد الذي كان في بيتك.
- أنا محفوف زوج أخت زيتون الذي أعطاك كليته..هل تعطيني عمامة جديدة لو جئتك في البيت ؟
- أنا الحاجة أم ضروس جدة زيتون الذي أعطاك كليته..أطلب أغنية (شلَّخوها

النيَّة) للمرحوم ولد كادر.

– أنا مرضي ابن أخت زيتون الذي تعيش بكليته، يا خيالي.

أنا الرضي.. أنا طرطاق..أنا.. لم أعد أرى، لم أعد أسمع، لم أعد أتنفس، و لم أعد أتذكر حتى أين كنت أغني، وما الأغنية التي يجتهد العازفون في الحفاظ على توازن موسيقاها، غمغمت بكلام ممزق، رتقته الموسيقى، وأشرت إلى جمعة عازف الكمان أن يظل يبكي بكمانه.. حتى تنقشع السحابة.

-١٦-

مرت عدة أشهر لم أرَ فيها (أبو زيد زيتون) شخصيًا، لكنني كنت أسمع صوته الصحراوي بانتظام،أسمعه يهدر عبر الهاتف، يذكرني بالوفاء بدينه الذي علي، والذي طال عليه الأمد، لقد تأكدت تمامًا بعد غربلة جديدة لدخلي ومنصرفاتي، أنني لن أستطيع تسديد ذلك الدين إلا إذا بعت جزءًا كبيرًا من عالمي الارستقراطي، وانحدرت مجددًا إلى مسافة تقترب من النقطة التي بدأت بها.. ربما إلى أيام ذلك البيت الذي أعددته كعش للزوجية في حارة اليهود القديمة. خاصة أن الحفلات الكبيرة التي كنت سلطانها فيما مضى، خاصمتني بعض الشيء، وأصبح اسمي لا يظهر فيها بتلك الكثافة التي كانها. كأن شعبي يتنفض من ولائي، كأن تاريخي لم يعد تاريخًا حافلًا، أو لأكون صادقًا، إنني أصبحت موضة قديمة في عرف هذا الجيل الغريب الأطوار. أراجع صوتي مرارًا، أجده كما هو لم يشخْ، لم تظهر عليه التجاعيد التي ظهرت على الوجه واليدين، أجرب وقفتي لساعات في فناء بيتي، أجدها وقفتي التي ثبت بها عشرات السنين في المسارح المفتوحة والمغلقة والجامعات، ومعاهد الرطانة والفلكور في كل بلد زرته. ليس ثمة آلام في القدمين، ليس ثمة (تكلس) في مفاصل الساق ولا حتى رعشة السن التي من الممكن أن أرتعشها. أجرب ثيابي.. تلك البدل والقمصان ذات الألوان الفاتحة والمتناسقة، وأربطة العنق من (جياني) و (فالنتينو)، أجدها أنيقة جدًا،وأذهب أحيانًا إلى المستشفى لمراجعة الأطباء، أو منحهم عينة من دمي لعمل التحاليل الروتينية، ابتسم للكوثرات، فيبتسمن لي، وأبحث عن الآسيوية (ماريانا استراد)، أطلب يدها ممازحًا، فتوافق على الفور.. أمشي في الطرق.. في السوق، فيستوقفني طالبو التوقيع، أو يلتقط لي مصور هاوٍ، لقطة مفاجئة قد تظهرني وأنا منحنٍ على الأرض، أعدل رباط حذائي، أو واضعًا يدي على خدي في واحد من (سرحانات) المبدعين. أيضًا واظب

(الصويعيون) من رعية زيتون وأهله على اغتيالي باستمرار، افتح فمي لأغني في بقعة مهما كانت بعيدة عن مقرهم، فأجدهم أمامي.. يغبرون غنائي، ينحشرون بين الكلمة والموسيقى:

أنا زاحف.. من أهل الصويعة.. أنا البردع..أنا غالي مغلول.. أنا عجبين ولد سهل. لم تكن تُفيد عصي الأمن التي تحاول تفريقهم من حولي، لم يكن يُفيد صراخ المستمعين بوقار، أو المؤججين بالعاطفة، ولم تكن تُجدي حتى التوسلات التي كنت أتوسلها إليهم أن يتركوني أرتزق حتى أتخلص من زيتونهم المر.وأذكر أن رحلة جاءتني إلى إحدى دول الخليج، كانت للمشاركة في حفل زفاف أحد أبناء الوطن العاملين في تلك الدولة، وأصر على إحيائه كاملًا بأصوات الوطن العريقة.جهزت عددًا من أغنيات اللوعة والحنين، وأيضًا أغنيات العشق النظيف، منها أغنية (سوسن) الذي يقول مطلعها:

عزيزة وغالية زي الروح
ومن حبل الوريد أقرب.
وساكنة رهافة الأحلام
ونبضات الفرح في القلب.
سوسن يا اسم زهرة
شعاع نجمة وبعد كوكب
وسوسن يا محيط زاخر
ملون بالولف والحب.

صعدت إلى ذلك المسرح المبهرج ممتلئًا حيوية غريبة، أحس بطعم برتقال لم أحسه منذ زمن بعيد، حين يجيء ذلك الطعم إلى حلقى، أعرف أنني لائق فنيًا، وأن

جمهوري لن يستمتع فقط، لكنه سيذوب وجدًا.بدأت الموسيقى وبدأت.. فتحت الحنجرة المبدعة لأسحر ذلك الجمهور الكثيف، ثم فجأة كما كان يحدث في بلدي الممتلئ بالصويعيين، صعد إلى المسرح نفر يرتدون الزي الوطني، ليس نظيفًا تمامًا، لكنه مقبول.يضعون طواقي ملونة على رؤوسهم،ويرفعون أيديهم اليمنى في حركة الطرب الشهيرة التي نسميها (الهز).اقتربوا أكثر مما يقترب منشرح عادي:

- أنا جابر عرب.. قريب زيتون الذي تبرع لك بكليته،أعمل راعيًا للأغنام في البر عند أحد الشيوخ.
- أنا محمد أوهيل من الصويعة.. صديق زيتون الذي أعطاك كليته، أعمل هنا في كتابة العرضحالات في المحكمة الشرعية.
- أنا باري أبو حسين ابن أخت زيتون الذي أنقذك بكليته، أعمل فراشًا في شركة الماء والكهرباء.
- أنا نزلي محمود، من الصويعة..كنت زميلًا في الابتدائية ل(أبو زيد زيتون) الذي أعطاك كليته، وأعمل هنا شرطيًا في المرور.

كسرت الأغنية؛ حتى ينكسروا، حولتها إلى راقصة، فرقصوا، كنت في حالة يرثى لها حين عدت إلى فندقي الفاخر الذي أسكنني فيه المغترب، وإلى درجة أنهم ظنوا هناك، أن كليتي الصحراوية المزروعة، تعاني من مشاكل ما.حاولوا جري إلى المستشفى، فأبيت، وفي نهار اليوم نفسه غادرت عائدًا إلى الوطن دون أن أقبض أجري كاملًا، ودون أن أفي بالتزامي لإحدى الجهات التي سرها حضوري، وأعلنت عن حفل ساهر أحييه في إحدى القاعات المجهزة.

الخفير التلب أيضًا.. ذلك الذي ظننت أنني تخلصت من نزقه حين غادر روضة ذهب، واستوطن حي التخنة الذي يشبهه،ويشبه الصويعيين الذين يُؤْونه،أصبح مصدر

مضايقة شديدة، كان هو المبعوث الرسمي أوالمبعوث (الحشري) لمتبرعي،المبعوث البعوضة الذي يقرصني من حين إلى آخر، يذكرني بالحقوق المؤجلة، لاصقًا صفة الخيالي التي تحولت عنده إلى صفة شاتمة.. كأنها التافه.. أو السخيف.. أو حتى قليل الأدب..وحقيقة كنت قد مللت من ذلك اللقب الغريب،وإلى درجة أنني قلت له يومًا وكنت هادئًا جدًا بلا ذرة من انفعال:

- لماذا لا تغير هذا اللقب يا خفير ؟

قال وهو ينهض منصرفًا، ويده على رأسه تحاول أن تزيح طاقيته، تعري بها جزءًا صعلوكًا من الشعر:

- إنه اللقب الذي يناسبك يا خيالي..ويجب أن تفهم.. أننا سنقاضيك في النهاية إذا لم تسدد التزاماتك.. يا خيالي.

يقاضونني ؟.. الحقيقة أنني لم أفكر في ذلك الأمر مطلقًا، أن أقف عاريًا من هيبتي في محكمة غاصة بالصرامة والإهانات، ومتهمًا بعدم الوفاء من راعٍ فقير للأغنام لا يملك سوى تلك الحياة التي وفرتها له. والتي لولاها لمات من هدير سيل أو زمهرير ريح أو ابتلعته بئر مطموسة في لجة الرمال.ماذا كانت ستفيده الكلية ؟.. لو كنت مكانه لاكتفيت بتلك العشرين ألف دولار أخضر،للثمتها حتى يبهت لونها،و لعلقتها على حوائط بيتي ودعوت أعراب البلاد كلها للتفرج عليها.لكن لم تكن الأمنيات هي مخرجي بالتأكيد.. قمت من فوري إلى الهاتف.. اتصلت بأحد المحامين الكبار..إيهاب محمد نور.. شخصية لها مركزها ولسانها القانوني، وهي التي ستفيدني بالتأكيد.. كان المحامي مشغولًا فتفرغ لدقائق من أجلي.. قال: أنا شديد الأسف يا سلطان..ليس ثمة مخرج مادمت قد وقعت على ورقة تلتزم بها أمام الرجل، إما أن تتفاهم معه مرة أخرى

وتنتهي من تلك المعضلة.. وإما أن تفي بالتزامك.. جرب أن تحدثه ولن تخسر.

لم يكن المحامي يعرف شيئًا عن بائع الثواب.. «أبو زيد زيتون».. لم يكن يعرف أن رجلاً انتظر حتى بدأت إبر التخدير تستعد للحقن، وأقنعة الأكسجين لضخ أكسجينها ثم طالب بالثمن، يمكن أن يسعى إلى تفاهم آخر، أو يقبل بتفاهم يسعى إليه..لن يستطيع رجل القانون أن يبصر بقانونه الذي يقال بأنه أعمى.. إلى ماوراء تلك الورقة التي يحملها زيتون ويسنها يوميًا على مسن شمالي اسمه (التلب) ليأتي بها جارحة إلى بيتي..المضاعفات.. المضاعفات التي لو درست من قبل مراقبين حقيقيين لوضعي المتأزم لعذرني الجميع.. عذروني في هيبتي التي تمزقت.. حتى المخابراتي الصديق ما عاد يهمه أمري.. نظم حملة امتلاك الذهب.. جاء بزيتون مر من الصويعة، وأخفق في إيجاد أية تهمة للصويعي، وهو المعروف بإيجاد التهم حتى للرضع في أثداء أمهاتهم. كنت قد كلمته منذ عدة أيام وبالتحديد بعد أن عدت من حفل آخر اختنقت به بعرق الأعراب وتذكيرهم إياي بالكلية التي نبعت في بيئتهم.. قلت له: دبر لي مخرجًا يا صديق.. فقال لي بلا نفس: لا أستطيع..أنا لست في الخدمة الآن وأخاف حتى على نفسي.

طلبت أن أرى (نادر صفوان) عاجلًا ، إنه أحد أبناء صفوان، ملاك تلك المزارع الاستثمارية السخيفة، كانوا قد اشتروا آلاف الفدادين من أراضي الفقراء على شاطئ النيل بأثمان زهيدة، استصلحوها بأسمدة جاءوا بها من خارج البلاد، وزرعوها بنباتات لم يكن أحد يظن أنها تنبت في بلد جاف وقاحل كذلك الذي نعيش فيه.. غطوا أجزاء منها بالأبقار والخراف والماعز وحتى الطيور المختلفة، وحين عرضوها للبيع بعد ذلك، استحى حتى بعض كبار الرأسماليين من أسعارها التي كانت تشبه أسعار جزر في الأطلسي.لو كتب زيتون مزرعة في منطقة (الجريف) الشعبية، لوفرتها له فورًا، لو طلب غابة في خط الاستواء،لامتلكها دون جدال.. ولكن عند أولاد

صفوان ؟؟ ما أتعس أموري وأمور كليتي.

جاءني نادر صفوان مهرولًا كأنه كان يقف على ناصية شارع بيتي، كان برفقته لدهشتي الشديدة، ذلك الزاري (ولد ساكنة) الذي ظننته ملَّ من جفاء يدي، ولن يعود أبدًا إلى مصافحتها. كنت لا أعرف علاقته بأولاد صفوان، ولا تخيلته وسيطًا جاء ليقرب وجهات النظر، إن كانت ثمة وجهات للنظر.لكن حين جلس الرجلان قبالتي في الصالون، كدت أصعق..كانا وجهيْن متطابقيْن حتى في نعومة العضلات، وبقايا حب الشباب التي لم تستطع شراسة الكريمات في محوها.قلت منفعلًا:

- هل أنتما قريبان ؟

رد الزاري مبتسمًا..

- نعم.. أنا خاله وهو ابن أختي.

آخ.. لقد تعقدت الأمور بشكل يصعب عليَّ أن أخمن طريق سيرها..الذي لم أعطه الود أبدًا، كان يمكن أن يساعد لو نال قليلًا من ذلك الود، بدأت أستعيد أيامًا بعيدة وقريبة جرحت فيها الزاري بلساني أو بنظراتي..إنها كثيرة.. كثيرة جدًّا.. ولعلها تكاثرت أيضًا في ذهن الرجل، وجاءني اليوم يحملها كخامات تشف أو انتقام. كان نادر صفوان بالطبع يعرف المعضلة التي كنت منغمسًا فيها، يعرفها من (ميمها) الذي تصفحته الصحف، أذاعتة الإذاعة وتلفزه التلفزيون، إلى (تائها) المربوطة في عنقي، أجرها خلفي أينما ذهبت.إضافة إلى أن متبرعي كان قد زاره في ذلك المقر الذي تباع فيه البلوى، ولقحه بما شاء من الكلام، كما اتضح لي ذلك فيما بعد.وضع حقيبة سوداء كبيرة الحجم كان يحملها، على طاولة العاج التي أمامه،أخرج رزمة من ورق سميك، كان فاخرًا وملونًا، وبداخله رسمت خرائط لابد أنها لتلك المزارع التي تساءلت مرارًا.. كيف استدل الصحراوي إلى جغرافيتها التي لا يعرف تضاريسها إلا

القليلون ؟..نشرها أمامي وهو يشير إلى نقاط معتمة، وأخرى مضيئة داخل إحداها: هذه من (كلاس آي)..تصلح لتربية جميع أنواع الماشية.. وذات عائد مضمون..هذه خاصة بالدواجن من دجاج وبط.. وأوز بري..هذه لخراف الأضحية والمناسبات.. هل تدري كم يدفع الناس لقاء خروف العيد كل عام؟.. وكم يدفعون إذا رزقوا بولد ذكر.. أو عادوا من الحج سالمين غانمين ؟..ثم فجأة قفز بإصبعه إلى نقطة مضيئة، وضعت معزولة في الخريطة وفي أعلى ركنها الأيمن بالتحديد: هذه هي المزرعة التي اختارها السيد أبو زيد.

– أبو زيد ؟

تساءلت بصوت لم يكن ينبع من حلقي أنا، ولكن قطعًا من حلق بعيد ربما كان في الشارع المقابل، أو الحي الذي يلي روضة ذهب.

– نعم.. أبو زيد زيتون.
– ومتى زاركم ؟

الصوت ذاته الذي ينبع الآن من بيت الجيران..

– زارنا أكثر من خمس عشرة مرة طاف على المزارع كلها وتفقدها واحدة واحدة، وفي المرة الأخيرة.. وقع اختياره على هذه..لكنه طلب تدعيمها بخيمتين صحراويْن، وفرس عربي أصيل، ومولد إضافي للكهرباء يضاف إلى الثلاثة العاملة أصلاً... وقد نفذنا طلباته.. نحن نعمل على راحة زبائننا.

قال ذلك وابتسم ملقيًا إليّ نظرة الراحة التي يختص بها الزبائن.. وكانت قبضة من يد، أو ركلة من قدم، وليست نظرة.

– وكم سعر كل هذا ؟

لم يجب ولد صفوان مباشرة، لكنه تحول بوجهه إلى خاله الزاري الذي كان صامتًا طوال الوقت، يعبث بلحية لاتبدو وقورة، بقدر ما هي اكسسوار صارخ لترميم شرخ رجولي كان واضحًا في سلوكه وقسمات صوته.بادله الخال نظرته الشاملة، ولعلها كانت أشمل؛ لأنني رأيت نفسي داخل إطارها. قال نادر صفوان:

– مائتا ألف دولار من أجلك فقط يا سلطان.. أنت أستاذنا كلنا وتستحق شيئًا من التكريم.

أحسست بلسع نمل غير مرئي يزحف على جلدي، بخبط فؤوس تصب على رأسي من الأعلى، وبأن الصيف قد أقبل بلزوجته وعرقه، ونحن مازلنا في الشتاء.هل ما أسمعه حقيقة. أم صوَّره الخيال فقط ؟.. لم تكن المؤامرة إذن من كتابة زيتون وحده أو بمشاركة أولئك الصعاليك من حي التخنة، لكنها مدعمة بمخرجين ومنفذين، وباعة أرستقراطيين، لم يجدوا حرجًا في بيع الرفاهية لولد فقير لكنه يملك مُولًا..لو كنت من آل صفوان لما سمحت لذلك الرعوي بولوج مزرعتي إلا راعيًا لأغنامها أو ساقيًا لدجاجها، أو حلَّابا لعنزاتها المرفهات.. لكنهم للأسف استقبلوه وأكرموه، أضافوا له مولد الكهرباء، وخيام البيئة، وحتى الفرس العربي الأصيل.صحيح أنا من طلب رؤية ولد صفوان، لكن من الواضح أن الولد كان سيداهمني آجلًا أو عاجلًا. ولعله كان بالفعل يقف عند ناصية بيتي حين طلبت رؤيته. سأستمر قليلًا في الحوار.. ليس بنية الشراء بالطبع، ولكن قد يكون بنية التسلية. تمضية الوقت.. كأنك تقرأ (مائة عام من

العزلة) لماركيز.. لكنك لست الكولونيل (أورليانو بونديا).. سأقرب صوتي. أجعله يخرج من حلقي وليس من حلق بعيد عند الجيران أو في الحي المجاور:

- وطريقة الدفع ؟

هنا اعتدل نادر صفوان في جلسته، فقد (دخل الكلام الحوش) كما يقول أهل الوطن،بدا وجهه الأبيض الذي لابد يحمل جينات دخيلة على سمرتنا..مثل تلك التي تأتي من أم مصرية أو مغربية أو من حلب، أو لعله من أولئك البيض الذين وجدوا في البلاد بيضًا وتكاثروا بيضًا لايختلط بدمائهم أحد.بدا مخططًا بحمرة ما.. لن تكون أبدًا حمرة الخجل، ولكنها قد تكون حمرة تخص الجدية أو الصرامة في البيع والشراء. كنت أعرف سلسلة من الطرق، يسلكها المشترون في مثل تلك الحالات.. الدفع النقدي دون رحمة..مقدم دفع بسيط أو كثير مع الأقساط.. أقساط دون مقدم.. قد تطول إلى سنوات..جلست أخمن أي تلك الطرق سيرصفه لي ولد صفوان، وقد تركز تخميني على الطريق الأول.. الطريق الذي يرصف للكبار المرفهين كي يمشون فيه.. الدفع الفوري دون رحمة... لقد كنت ما أزال سلطانًا برغم اقترابي من النهاية الحتمية للسلاطين. عدل البائع من جلسته، وعدلت أيضًا من جلستي وملامحي لأمتص الإجابة.

- يوجد طلب كبير على هذه المزرعة بالذات، لكنني أجلت بيعها من أجلك، ادفع لنا نقدًا، ونسلمها للسيد «أبو زيد زيتون» فورًا.

آخ مرة ثانية وثالثة وعشرين..نسلمها لزيتون.. كأن هذا الزيتون هو أنا..كأنه ولدي، كأنه نتج من نطفة ممتعة ألقيتها في الصويعة وترعرعت هناك . هل من طريقة أخرى ؟.. لا..أسرع يا سلطان.. نريد أن نكرمك. حتى لو كانت هناك طريقة أخرى

فلا أريدها، فليقاضوني كما يشاؤون، هذان المتعجرفان يطمعان في حصاد خمسين عامًا من بكاء الحنجرة ولن ينالا شيئًا..وذلك الرعوي يسعى إلى تدميري دون أي وازع من ضمير. ما زلت أحمد ذهب الذي تستحي المحاكم من وقوفه متهمًا، وقد يستحي القضاة من سجن أعذب صوت نبع في البلاد وتدفق إلى ما حولها،نعم.. لقد نبعت مفردًا، عبرت المسافات في صحارٍ أعتبرها قاحلة من كل شيء، أرمي في كل شبر خضرة، وفي كل أذن تسمع، رنة من لحن.الآن لا مزارع، ولا (روزات)، ولا غيرها، وإذا أراد زيتون أن يسترد كليته، فليستردها..وقفت ووقف البائع وخاله، رفعت يدي في الهواء وتراجعا إلى الخلف، كانا وجهيْن توقفت ملامحهما عند لوحة كنت الذي رسمها على تلك الملامح.. لوحة الصدمة بلا شك...أعد الفرس الأصيل إلى بلاده، أعد مولد الكهرباء إلى (يابانه) أو (صينه)، أو إلق به في النهر إن شئت.اطرد «زيتون» حين يأتيك ليشتري بخياله المريض، لست ممولًا لأحد وليس هناك ما يلزمني بذلك التمويل.

كنت أصرخ والرجلان يتقهقران، حتى كانا أخيرًا في الطريق. في لحية أحدهما رذاذ ماء، وفي يد الآخر حقيبة جلدية فاخرة لم تغلق جيدًا، وبدت أطراف الخرائط بداخلها تطل مرتبكة.في هذا اليوم الحاسم ذاته، سوف أبصق على الصفقة الأخرى.. صفقة الحافلة التافهة التي لابد أن «زيتون» يفاوض الآن في سعرها. كم يا ترى تساوي واحدة من تلك الحافلات الخنزيرية الشكل، التي تشق العاصمة محملة بالبشر، تدلقهم في الطرق، وتنتهي في المساء عند حالم مثل زيتون يعد حصادها وهو متكئ على حلمه أكثر من اتكائه على الواقع ؟ أصبت بهياج داخلي لم يكن من سماتي، خرجت دون مرافق ولا سائق أطرق باب أية وكالة تبيع باصًا أو حافلة أو حتى سروجًا للحمير..هل زاركم مشترٍ اسمه أبو زيد زيتون ؟..لا... هل زاركم مشترٍ اسمه أبو زيد زيتون..لا.. وفي المرة التي قال لي فيها شاب أنيق المظهر،يضع نظارة مذهبة الإطار على عينيه.. استرح قليلًا يا سلطان، أيقنت أن غريمي قد مر من ذلك المكان واشترى الحافلة التي

يريدها بخياله. اختفى الشاب وسط غابة من العربات، بعضها جديد يتلألأ، وبعضها محكوك الطلاء في عدة أجزاء. كان ثمة مشترون يتفحصون، ويلتفتون ناحيتي من حين إلى آخر، فاردين ابتسامات مختلفة الأحجام. عاد الشاب أخيرًا.. كان يحمل عقدًا مبدئيًا بشراء حافلة جديدة من طراز روزا، طرفه الأول.. شركة (صاد) للتجارة، وطرفه الثاني.. أبو زيد زيتون. لم يكن ثمة توقيع بعد، وخمنت أنهم ينتظرون مال الحنجرة الذي يتوقعونه مني. قال الشاب بعد أن رآني أتفحص العقد:

- لقد طلب المشتري مزايا إضافية مثل الإطارات العريضة، والمرايا المذهبة، واستريو من ماركة (هاي فاي).

بالطبع لم تكن تلك طلبات زيتون، ولكنها - في الغالب - طلبات ذلك الخفير التلب الذي أعتبره المعول الذي يحمله زيتون في محاولة هدمي.

- ألم يطلبها مصفحة، مضادة للرصاص ؟
- نعم ؟

ارتفعت نظارة الشاب عدة سنتمترات عن أنفه وانخفضت، واستطعت أن أخمن أن العديد من عفاريت سوء الظن، تلعب الآن في خياله، أحمد ذهب قد جن.. السلطان ليس طبيعيًا.. وسيؤكد أقوال تلك العفاريت، مظهري الذي لم يكن مظهري المعتاد، وحضوري بلا سائق ولا مرافقين، كما كنت أفعل دائمًا. لطمت عفاريت الشاب حين ضحكت باتزان:

- كنت أمزح فقط.

عندها استرخى البائع على كرسيه، اتخذ جلد البائعين حين يعثرون على زبون له نكهته، ويبدو أنه كان خارج لعبة استثمار الذهب وامتلاكه، خارج نطاق التطورات والمضاعفات لا يقرأ صحيفة، لا يستمع إلى راديو..لا يشاهد التلفزيون..ولا أدري كيف تعرف إليَّ إذن ؟.. ذلك أنه سأل:

- هل زيتون قريبك يا أستاذ ؟

هذا ما كان ينقصني.. أن يكون زيتون قريبي..أي من عائلة ذهب التي لم تلد حتى الآن مبتزًا أو نصابًا، أو من عائلة (عبد الخالق).. عائلة أمي التي لم يكن رجالها قوامين على نسائهم فقط، ولكن على نساء منطقة بامتداد خمسمائة كيلومتر على شاطئ النيل.قلت:

- ليته كان قريبي.
- هل تحبه إلى هذا الحد ؟
- لا.. كنت سأقتله.

خرجت من دهشة البائع وأنا أتخيلها ورائي، وملتصقة بظهري، دهشة لها رونقها وطعمها، ومبرراتها، وقد تكون لها شفرتها التي ستنتقل بها إلى بائعين آخرين.. في وكالات أخرى.. في متاجر ومطاعم، وعلى أرصفة. قد يكون في تلك الأماكن من أحبني.. من اقتنى أشرطة غنائي، أو من وقف في تلك الطوابير التي وقفت لافتدائي.. لحسن الحظ لم تكن الصحافة تتعقبني كما كانت تفعل فيما مضى، وإلا لكنت الآن خبرًا عاجلًا في أيدي محررين نزقين، يحررونه بمتعة ليوضع في صدر الصفحة الفنية من صحف الغد.

ظللت أمشي في الطريق ناسيًا أين وضعت عربتي،وراودتني فكرة لم تكن لتخطر على بالي أيام مجدي وتألقي..بلا فشل ولا انهيار ولا زيتون مر يلوث تذوقي..أن أستوقف حافلة من طراز روزا،وبشرط أن تكون جديدة،لأحس بذلك الإحساس الذي يحمله زيتون في داخله..وقفت عند محطة للحافلات غاصة بالبشر،كنت متأكدًا أن أحدًا لن يتعرف عليّ؛ ذلك ببساطة أن لا أحد سيخطر على باله، أن سلطان مثلي، سيكون واقفًا بقريه في تلك المحطة.إنها استراتيجية الفريق الركن (ضابر شرحبيل) أيام كان رئيسًا للبلاد.. يشتري الليمون من بائع متجول، يركب الباصات واللواري، ويقف عريضًا وواضحًا في صف السينما دون أن يخطر على بال بائع التذاكر، إنه يبيع تذكرة للرئيس، وقد كان ظني في محله حين قالت (كوثرة) تقف بالقرب مني لكوثرة أخرى كانت ترافقها: انظري يا هناء.. إنه قطعة من الفنان أحمد ذهب.أيضًا ألقى عليّ الكثيرون من سائقي الحافلات التي ليست من طراز روزا، تحايا حارة..صائحين: تشبهه.. تشبهه حتى الجنون يا أبا الحجاج..وبالصدفة أو لعلها ليست الصدفة، كان مساعد في إحدى تلك الحافلات يدعوني للركوب وهو يترنم بأغنية لي اسمها (خبك والشوارع)، كنت قد غنيتها قبل وعكتي بوقت قصير، وطرحت في ألبوم غنائي بعد ذلك.

كان أمامي الآن عالم جديد لم أعرفه من قبل، عالم من الفقر والضجيج، واستخدام الألسنة، ومغازلة كل من مرت أو لم تمر، عالم (التلب) الخيالي وأمثاله، وعالم زيتون الآخر.. زيتون الذي كان سيأتي من الصويعة راكبًا لواري السفر.. وإلابقى مشتتًا في العاصمة بلا صنعة ولا مأوى، وليس زيتون الذي وقف في صف التبرع بالكلى ولاءمت كليته خصائص سلطان الطرب.

فجأة وفي اللحظة التي توقفت فيها حافلة جديدة من طراز روزا، وأوشكت أن أضع قدمي بداخلها، التصق بي شخص كان يرتدي قميصًا متسخًا، ونعالًا ممزقة، يضع

على رأسه طاقية حمراء، ويحمل في يده قفة تفوح منها رائحة سمك قديم، أمسك بيدي اليمنى، شدها بعيدًا عن سلم الحافلة صائحًا:

- أنا ميمون جعفر.. من الصويعة.. قريب زيتون الذي تبرع لك بكليته..ساعدني في حمل القفة يا خيالي.

-١٧-

كانت زوجتي (حياة الحسن) قد انتبهت أخيرًا إلى هذا السلوك الغريب الذي كنت أنتهجه في الأيام الأخيرة، انتبهت إلى زوج يخرج بلا أناقة ولا عطر ولا طاقم من المرافقين يليق بخروجه، ويعود بأنفاس مرهقة، وقدمين ثقيلتي الخطوات، وصوت لا يحيي أحدًا، لكنه يغمغم بلا معنى. انتبهت أيضًا إلى فنان كبير لم يمد يده إلى عوده المغبر منذ فترة، لم يترنم بلحن جديد، و لم يعمل على تطوير لحن قديم من ألحانه الخالدة.. لم تظهر صورته في جريدة، ولا اسمه في خبر، وما عادت تأتي اتصالات ارتباطه بالحفلات، سوى العامة أو الخاصة، إلا ما ندر.. باختصار شديد.. انتبهت إلى فنان بلا فن.

أجلستني يومًا أمامها، وبصوت فيه من الوهن أكثر مما فيه من الصرامة قالت:

– ماذا يحدث لك يا ذهب ؟

هززت كتفي بعلامة اللاشيء التي تستخدمها الشعوب كلها، لكن الأشياء كانت، وبشكل مكثف.. أشياء خاصة بعدم القدرة على الاسترخاء،و يسمونها اضطرابًا.. أشياء خاصة بنفوري من مهنتي،و يسمونها تقاعسًا، أشياء خاصة بعدم التواصل أسريًا، يسمونها إهمالًا، وأشياء أخرى تخص الشهرة العريضة التي أملكها... ويسمونها (كشف الحال)..أنا كشفت حالي دون أن أحس، أكتب اكتئابي واضطراب أعصابي في كل شبر أطأه، وعلى كل وجه أحادث صاحبه،وأعتذر عن الغناء في كل حفل أدعى إلى إحيائه، إلا بشرط..أن يكون نظيفًا من (الصويعيين).. لا ثوب مغبر، لا عمامة متسخة، لا صوت صحراويًا يهدر بين اللحن والكلام ليذكرني بكلية السخف التي

أحملها في جنبي.. كنت مستعدًا للغناءِ من أول الليل حتى آخره، ومستعدًا لتلقي الراقصين و(المهزهزين)، وطالبي أغنيات معينة.. مستعدًا للتفاعل معهم، لكن بلا صويعة.. بلا صويعة.. أرجوكم. لم يكن أحد يفهم ذلك الشرط؛ لأن لا أحد شرب من ذلك النبع المر الذي أشرب من مائه باستمرار بلا أمل في جفافه.. كأني أحدثهم عن حراس مدججين بالسلاح ليحرسوا غنائي، وأظنهم ما كانوا ليستغربوا لو طالبتهم بذلك الشرط. لكن هل يجدي كل هذا؟.. هل تستطيع التكنولوجيا أن تغربل الحضور في الحفلات لتعثر على صويعيين وسطهم، وتكنسهم؟. كان شرطًا مستحيل التحقيق.. شرطًا أبلة لا يعني سوى اضطرابي واستسلامي للمغيب الذي يشدني إليه بقوة.

لم تهتم زوجتي بكتفي الذي ارتفع (بلا شيء)، لكنها ضغطت على أسنانها بقوة:

- عد إلى فنك يا ذهب.. عد إلى أسرتك التي تحتاجها وتحتاجك، واترك هذه الهلاوس عن زيتون وغيره. لقد نجحت زراعة كليتك، ودفعت ثمنًا لم يكن أحد غيرك ليدفعه. هذا هو المهم، ولو كانت ثمة مطالب أخرى لا نستطيع الالتزام بها، فليذهب زيتون إلى جهنم.

(يذهب إلى جهنم)، هذه لغة جديدة على لسان حياة الحسن.. اللسان المهذب الشفاف الذي كان يستحي أن يصف حمارًا بأنه حمار، اللسان الذي تفاعل مع مشردي الوطن وأيتامه، وأنشد في تلك الليلة البعيدة أغنية تمجدهم، (يلا امسكني.. يلا امسكني).. لقد قضى الصويعيون على آخر معدة كانت تقاوم الحموضة في بيتي، آخر قولون لم يكن يعرف العصبية، وآخر لسان ناعم أيضًا. لكن «زيتون» للأسف لن يذهب إلى جهنم.. ولكن إلى أقرب مركز للشرطة لجي التخنة.. يسلمهم خيانته وورقته الكنز؛ لتسعى السلطة ورائي.

- هددوني برفع قضية ضدي

نطقت يائسًا.

- دعهم يرفعونها،لست شخصًا عاديًا لتتركك الدولة لهؤلاء الأوباش، ينهشون لحمك.. صدقني ستتولى الدولة حمايتك، وتسديد التزامك وربما منحتك وسامًا جديدًا بعد أن شفيت من المرض.وقد تعيد أولئك المزعجين إلى بلدهم. أنت اطلب فقط.. اكتب رسالة إلى أي مسؤول.. إلى رئيس الوزراء مثلًا.

خبطت على الطاولة وهي تصرخ: إلى رئيس الوزراء.. كأنها تريدها رسالة طلقة يهتز لها الرجل الكبير في منصبه. لو كانوا يعتزون حقًا بحنجرتي، كما اعتز أسلافهم وباركوا سلطنتي على عرش الطرب،لما كانت هناك أزمة من أي نوع، ولما كانت الصويعة موجودة حتى الآن في العاصمة..تعض وتقرص وتلدغ أيضًا.لا أنسى أنهم ساندوا الحملة الأخيرة، حملة امتلاك الذهب، لكنه كان سندًا بلا تنفيذ.. لم أستفد منه شيئا. هل أسمع كلام حياة الحسن وأكتب إلى سلطة قد لا تكون مرهفة الحس.بما يكفي لإغاثتي ... لا تكون ذات آذان تسمع أو عيون تبكي وسيقان تهتز ؟..كان تفكيري في ما قالته حياة مختلطًا بالهلاوس، ليس تفكيرًا متزنًا بأية حال من الأحوال..تقول إنك لست عاديًا ليفترسك الصويعيون، وتومض عشرات الدلائل إلى عاديتي في نظر من يأمرون وينهون، أو على الأقل عادية بدأت أترنح بها أخيرًا، وبعد أن بدأت أقف على قدمي بعد وعكتي الطويلة، وأسعى إلى تأجيج تاريخ جديد ربما اشتعل به جيل لم يعرف غنائي كما عرفه أسلافه. لم يسع أحد من الكبار سائلًا عني بجدية، أو حاملًا شاشًا معقمًا لتضميد فني الذي كان مجروحًا في الصميم.. وثيقة صفراء ممهورة بتوقيعي في لحظات يأس قاتل.. هي الآن جرح عميق بحق. كنت أجلس ساعات طويلة أمام التلفزيون، أشاهد برامج عن تاريخ الغناء، تحشر لي فيها أغنية على استحياء، بينما تأتي أغنيات أخرى لأولئك الحواة الجدد، مرفوعة الرأس وواسعة الخطوات تسرح وتمرح. أستمع إلى الإذاعة الوطنية، تهرش أذني أغنية (هريتني يامجنون) أو (أبو الدلاليع) ولا

تهرشها أغنية (شكوى) أو (مصير الحب) أو حتى تلك الأغنيات الراقصة التي ربما تلائم الأذواق الجديدة.وحين أقبل العيد السنوي للثورة، وغرقت البلاد في أضوائها وأفراحها، ونودي المطربون لإحياء الحفل الجماهيري الكبير، كنت من الذين أخطأهم النداء.تمامًا مثل العظيم (صالح جفون) الذي انسحب من الحياة الفنية بفعل الشلل والغيبوبة، لكنني لم أكن مشلولًا ولا نهبًا لغيبوبة.تريدني حياة أن أستجدي.. أقول إنني معلق بخيط فاجر أو مهدد بشيخوخة في السجن، أو سائل على شاكلة (عزيز قوم)، تعصرني لأكتب، وأصدها بعناد.. تعصرني وأصدها، لتجلس هي.. تكتب ما أرادتني أن أكتبه..وأقرأ ما كتبت لأجده ملائمًا لذهب مغشوش لا ذهب حر يعرف الجميع عياره، وإن كانوا لا يفصحون، لكنني لا أقول شيئًا.. أتركها ترسل الرسالة.. تحكم غطاء الرأس على شعرها وتجلس لساعات تدعو وتستغفر..تنتظر. أنا لا أنتظر.. لكنني أفكر في سياق آخر..سياق الخروج من دائرة زيتون وصويعته... الهجرة إلى وطن بديل.

في الواقع أنني لم أخبر أحدًا بتلك الهلوسة، ولا حتى حياة التي كانت فيما مضى تقرأني قراءة مجتهد مجد لكتاب معد في اللغة، والآن حتى لو قرأت صفحة في تفكيري، لا تستطيع أبدًا أن تقلب الصفحة الأخرى.ولأصدقاء ما زالوا يحتفظون لي بشيء من الود، ويقيمون في دول بعيدة وقريبة، كنت أرسل المواجع.. وأتلقى الردود... أطلب بلدًا يقدر فنانًا في آخر العطاء..بلدًا بلا قرية رملية اسمها الصويعة.

في أحد الأيام جاءني رد من الصديق (هاشم كرار) الذي يعمل صحفيًا في أحد البلاد الإفريقية.. البلد الفقير ذاته الذي عثرت فيه قبل أربعين عامًا، على الفريق الركن (صابر شرحبيل) بلا أوسمة ولا رئاسة، يبيع تماثيل الفخار الرخيصة لسياح يضحكون ويلتقطون الصور..لكن بأحلام عودة تراوده، ولم تتحق إلى أن مات. يقول هاشم: تعال يا سلطان.. هنا يوجد بحر وبر وجو ماطر.. توجد خامات إلهام تستطيع حلبها

من الفقر.. والأهم من ذلك لا يوجد أعراب يجرحون الغناء.. تستطيع أن تسافر متى شئت، وتعود متى شئت، وتستطيع أن تغني في حضرة الرؤساء وطلاب السياحة ووفود الدول الكبيرة التي تؤرخ لثقافات الشعوب.. تعال يا سلطان ولن تندم.حزمت أمتعتي في خيالي عدة مرات وبعثرتها، توجد فسحة قصيرة للتفكير.. ليست لي ولكن لحياة الحسن.

وصل الرد أخيرًا على الرسالة.. الرد الذي كانت تنتظره زوجتي و لم أكن أنتظره، أو كان انتظاري له في مستوى متدنٍ عن انتظارها، كان ردًّا غريبًا وموجهًا إلى السيد (فيصل البعطوط)، الذي عطر سماء البلاد لسنوات طويلة كان فيها نعم المواطن هيبة وسلوكًا، ومفخرة للشعب كله. استمرت الرسالة في مدح البعطوط، ألقت بأضوائها على أناقته المفرطة، واتساع عينيه، وعطوره الغالية، وحذائه الذي ليس من إنتاج (لونغ) ولكن من إنتاج (كاردان)، لم تنسَ حتى أن تعلق على ذلك الخاتم الذهبي، والسلسلة الأنيقة التي تتدلى على رقبته.ثم عرجت على المشكلة موضحة :

(سيدي.. بالنسبة إلى طلبك الانضمام إلى نادي (الجولف) الذي تزمع السلطة إنشاءه بعد حوالي عشرلة أعوام من الآن، وبعد أن تتوقف الحرب، ويستخرج نفط البلاد كاملًا، فقد تمت الموافقة عليه..لكن بالنسبةإلى حمايتك من أنفاس السكارى، وبخات العطور الرخيصة التي ربما تواجهك وأنت في مكتبك أو سيارتك أو في واحد من مراكز التسوق، وتعيين مرافق خاص لتلقي التلوث، وشم العرق بدلا عنك، فهذا الأمر قيد الدراسة وسنوافيك بنتيجته قريبًا.. مع تحياتنا وتمنياتنا بالتوفيق).

كان ردًّا (أوف بوينت) كما يقولون، أو لعله (إن بوينت) لكنه يخص شخصًا آخر..غير أحمد ذهب المغني.. سلطان الطرب الذي يترنح.فيصل البعطوط.. شخص فاره بلا شك. لكنني لم أستدل عليه أبدًا، ولا استدلت عليه حياة ولا كل أصدقائنا

الذين تبقوا، ولا حتى المخابراتي السابق الذي انسحب من حياتي، لكني توسلت إليه أن يقوم بخدمتي في مجال تخصصه لآخر مرة.عثرنا على عشرات الفيصليين [أسماء أخرى وعشرات (البعطوطين) ولدوا أبناء آخرين ليس بينهم فيصل،.. رجال أعمال.. لاعبي كرة..عداءين، ساسة.. مسؤولين.. معارضين، مذيعي تلفزيون وإذاعة.. لا يوجد هذا الفاره..لا يوجد أبدًا..خلصنا في النهاية إلى ترك ذلك الرد مهملًا، والالتفات إلى طريق آخر..بالنسبة لي كنت قد مهدت الطريق إلى الهجرة البعيدة كما ذكرت،لكن بالنسبة إلى زوجتي وبقية الأسرة، كان التصاقهم جنونيًا ونحتهم في الصبر لا يتوقف.

في أحد الأيام وكنت أقترب من حافة الجنون، ذلك بعد أن أخفقت لي أمسية موسيقية بالغة الأهمية، وبحضور وفد عالمي جاء ليتعرف على ثقافتنا عن كثب،وطلب أن يستمع لي بالتحديد. أخفقت الأمسية بفضل أولئك الصويعيين الذين لا أدري كيف تسربوا إلى ذلك المنتدى، وكيف استطاعوا الصعود إلى حيث كنت مشبعًا بالأضواء، محتضنًا عودي، وأغني في ثقة بعض الأغنيات الكلاسيكية التي التقطها من فنون شعوب، احتككت بها في السفر..شيئا من (الرقي) شيئًا من (الكنتري ميوزيك) وأغنية ألمانية تعلمتها في أثناء رحلة لي إلى (ميونيخ). أنا صحاح.. أنا الماحي.. أنا البلال، وأنا التومة أم ضفائر، كنت خطيبة لزيتون الذي تبرع لك بكليته.الخلخلة التي لابد أن تحدث.. جروح الموسيقى، وانفلات الصوت إلى سلالم مكسرة، ثم تململ الوفود وانسحابي إلى بيتي دون أن يمد أحد يده لمصافحتي.في ذلك اليوم، ظهر زيتون ورفيقه التلب على شاشة التلفزيون الوطني، لم يكونا ريفييْن متسخيْن كما يتبادر إلى الذهن، ولكنْ رجليْن أنيقيْن، لم ينسيا حتى أن يبرزا قلميْن فاخريْن من فتحة الجيب، ويهتما بكي العمامتيْن اللتيْن كانتا بيضاويْن لامعتيْن.كان التلفزيون قد استضافهما في برنامج اسمه (تجربة)، ليتحدثا عن تجربة شابيْن فقيريْن ابتدآ من الصفر والآن يملكان عدة أكشاك لتوزيع شرائط الكاسيت، ومطعميْن شعبييْن لإنتاج (الضرابة) وما

شابهها من الوجبات التي لاغنى عنها لدى الشعوب.استضافهما بهذه الصفة ناسيًا أن يعرف ذلك (الصفر) الذي كان بيتي، تلك المسافة التي ركضاها لينجحا، والتي كانت أعصابي أنا شخصيًّا.استمر الحوار عن ألم التجربة، ومعاناتها والمعضلات التي واجهت وتواجه.وكان القرويان حاضريْن بإجابات أكبر من طاقة فهمهما.. كان واضحًا أنها لقنت لهما وفي وقت طويل حتى استطاعا الهضم.فجأة وجدت الحوار ينحرف.. انحرفت به المذيعة التي كانت وجها لم أسترح له أبدًا، ولا استطعت أن أصنفه وجهًا (كوثريًّا) على مدى الأعوام الخمسة التي بدأ يطل فيها من الشاشة:

- ما قصة المستند الذي تملكانه ضد المغني أحمد ذهب ؟

قفزت من مقعدي ملسوعًا، وقفز الخفير التلب أيضًا من مقعده، في لقطة نسي (المونتير) أن يقضمها، مد يده إلى جيبه واستخرج ذات الورقة الصفراء التي يعرفها الجميع من كثرة ما سلط عليها من الأضواء من قبل. عرضوها مرة أخرى وبتركيز ألوان أشد وبدا اسمي في ذيلها أكثر تعاسة وإذلالًا.. لم تسأل المذيعة عن الخطوة القادمة في ذلك الشأن، لكن التلب.. تطوع بصوته الذي بدأ يستعيد سوقيته بعد ساعة من النظافة:

- لقد غشنا الخيالي.. ولم يفِ بالتزامه..وقد قمنا برفع قضية.. وكلفنا عددًا من المحامين لاستعادة حقوق زيتون المسلوبة.

إذن فقد رفعوها.. رفعوها.. رفعوها..ظللت أرفعها بالصوت. وأسرتي تخفضها، أرفعها ويخفضونها..حتى بلغت مستوى لم يستطع ثقل الأسرة كلها أن يهبط به.. كانت تتراءى لي أرصدة مكشوفة الحال وممزقة، بيت فاخر يباع بالمزاد العلني بحضور السمسار (هيثم مختار) يتراءى لي عود مكسور في مائة موضع.. حنجرة مسلوخة حتى

الغضروف، وكنت أستطيع أن أرى أمامي مباشرة.. عددًا من تماثيل الفخار الرخيص، تباع لسياح مستهزءين.. في واحدة من أفقر الدول في العالم.

زحف النمل

بكثير من المكر الفنى صنع أمير تاج السر «زحف النمل» حيث تتلاحق الأحداث فى مصادفات مفعمة بخفة اللعب.

لا يقدم تاج السر مملكة عجائبية قديمة، كما فى روايته السابقة «مهر الصيَّاح» بل يضعنا فى قلب عجائبية مملكة الغناء، مقدمًا رحلة صعود مطرب من المجهول إلى قمة المجد، ثم انحداره الذى جاء على يد متبرع بكلية زُرعت فى خاصرته وأحالت حياته إلى جحيم.

يعلن المتبرع فى البداية رفض المقابل المادى لكليته، وسرعان ما نكتشف أن الثمن الذى يريده كان حياة المطرب ذاتها، وليس أقل من ذلك!

يُخلِّص «فاعل الخير» المطرب من زحف النمل فى دمه تحت ماكينة الغسيل الكلوى، لكنه يزحف مع كل أهل قريته، ليقيموا فى فيلا المطرب ويحيلوا هدوءها إلى فوضى صاخبة.

فى الرواية يتعانق السرد والشعر؛ حيث تأتى أغنيات المطرب كفواصل ساخرة بين فقرات الحكى سريع الإيقاع، وتحيلنا خفة الأغنيات إلى ما يحدث فى عالم الغناء، وكيفية تصنيع نجومه.

على أن أهم ما تحققه «زحف النمل» هو متعة القراءة، وهذه هى المهمة الأولى والأخيرة للكتابة الجيدة.

عزت القمحاوى

الغلاف: أحمد اللباد



